

قصة الحضارة

ول وَايرنيل ديورانت

حياة اليونان

ترجمة
محمد بدراف

الجزء الثالث من المجلد الثاني

٨



تونس



بيروت

الكتاب الخامس
افتشـار الـهـلـنـسـتـيـة
من ٣٢٢ إلى ١٤٦ ق . م .

ثبت مسلسل للحوادث التاريخية في الكتاب الخامس

ق . ٢٠ .	
٣٣٩ - ٣٤٨	اسبيوسهوس رئيس المجمع العلمي .
٣١٤ - ٣٣٩	زفقرات رئيس المجمع العلمي .
٢٨٥ - ٣٢٣	بطليموس الأول (سوتر) يؤسس أسرة البطلمة في مصر .
٣٢٣ -	بلاد اليهود تصبح ولاية سورية .
٢٨٨ - ٣٢٢	ثاوفراسطوس رئيس الوثوقيون .
٣٢١ -	تقسيم إمبراطورية الإسكندر ؛ أول مسرحيات منتلر .
٣٢٠ -	بطليموس الأول يستول على اورشليم ، الفيلسوفان بيرون الإيليسى وأقراطيس الطبيعى .
٣١٩ -	فليمون والمسلة الجديدة .
٣١٨ -	أرسطوفانس فيلسوف تارتم وفنائها الموسيقى .
٣١٧ - ٣٠٧	دمتريوس الفاليريوى يتولى السطة في أثينة .
٣١٦ -	كسندر ملك مقدونية .
٣١٥ - ٣٠١	أنتيغونس الأول سيكلبس ملك مقدونية .
٣١٤ -	أنتيغونس الأول يملن حرية بلاد اليونان ؛ تقوم زينون إلى أثينة .
٣١٤ - ٢٧٠	بوليما رئيس المجمع العلمى .
٣١٢ - ١٩٨	بلاد اليونان تخضع لبطلمة .
٣١٢ - ٢٨٠	سلولر الأول (لكاتور) يؤسس الإمبراطورية السلوقية .
٣١١ -	ملككار يفرز صقلية .
٣١٠ -	أجشكيل طافية سرقوسة يفرز إفريقيا .
٣٠٧ -	قالون مناهضة الفلاسفة .
٣٠٧ - ٢٨٧	دمتريوس پليورستيز ملك مقدونية .
٣٠٦ -	أبيكتور يفتح مدرسته في أثينة .
٣٠٦ - ٣٠٢	الحرب بين كسندر ودمتريوس پليورستيز للسيادة على بلاد اليونان .
٣٠٥ -	تميوس التورومنيوى المؤرخ .
٣٠١ -	زينون يفتح مدرسته في استوى ، وسلوقس الأول يؤسس أنطاكية .
٣٠٠ -	كساحوس يهزم أنتيغونس الأول عند إيسوس .
٢٩٥ - ٢٧٢	إقليدس الإسكندري الرياضى ؛ أوتيميروس صاحب المذهب العقلى .

- ق . م .
- ٢٩٠ - مدرسة التحت الروديسية .
- ٢٨٨ - ٢٧٠ استراتون رئيس اللوقيون .
- ٢٨٥ - ٢٤٦ بطليموس الثاني (فلادلفس) ؛ متحف الإسكندرية ومكتبتها .
- ٢٨٥ - زفودوتس مدير المكتبة ؛ هروفيلوس الخلقونى عالم التشريح .
- ٢٨٣ - ٢٣٩ أنتجونس الثاني (جناتاس) ملك مقدونية .
- ٢٨٠ - أرسطوخوس الساموسى الفلكى ، قيام حلف الآخيين ، پيرس يساعد تارتم على رومة .
- ٢٨٥ - ٢٦٢ أنطيوخوس الأول (سوتر) السلوقى الإمبراطور .
- ٢٨٥ - ٢٧٩ الغاليون يفزون مقدونية وبلاد اليونان .
- ٢٧٩ - پيرس يفزو صقلية .
- ٢٧٨ - تمثال رودس الضخم .
- ٢٧٧ - الغاليون يفزون آسية الصغرى .
- ٢٧٥ - أراطوس الصولى الشاعر .
- ٢٧١ - ثيمين الفيلوسى الهجاء .
- ٢٧٠ - كلخوس الإسكندرى وثاوقريطوس الكوسى الشاعران ؛ بروسس البابلى المؤرخ .
- ٢٧٥ - ٢٦٩ أقراطيس الأثينى رئيس المجمع العلمى .
- ٢٧٤ - ٢١٦ ميزون الثانى طاغية سرقوسة .
- ٢٦٩ - ٢٤١ أرسسلوس رئيس المجمع العلمى الأوسط .
- ٢٦٦ - ٢٦١ الحرب الكرمنيدية .
- ٢٦١ - أنتجونس الثانى يستولى على أثينة .
- ٢٦٦ - ٢٤٧ أنتيوخوس الثانى (ثيوس) الإمبراطور السلوقى .
- ٢٦٦ - ٢٣٢ أفلاينيتوس رئيس الاستوى .
- ٢٦٥ - هرداس الكوسى الشاعر .
- ٢٥٨ - إراسطراطوس الكيوسى العالم فى وظائف الأعضاء .
- ٢٥٧ - ١٨٠ أرسطوفان البيزنطى العالم اللغوى .
- ٢٥٦ - أراطوس السكيونى يحرر مدينته .
- ٢٥٠ - أراسيس يؤسس مملكة پارثيا ؛ اللاوكون ؛ مانيشون المؤرخ المصرى ليكفرون الخلقينى الشاعر .
- ٢٤٧ - أركيدز السراقوسى العالم الطبيعى .
- ٢٤٣ - ٢٢٦ سافونس الثانى (كليكوس) .
- ٢٤٦ - ٢٢١ بطليموس الثانى (إرجنيس الأول) .

ق . م .	
أراطوس يقود الحلف الآخر ضد مقدونية .	٢٤٣ -
أجيس الرابع يحاول الإصلاح في اسبارطة .	٢٤٢ -
أهلونيوس الرومى الشاعر .	٢٤٠ -
دمتريوس الثانى ملك مقدونية .	٢٣٩ - ٢٢٩
أتلس الأول يؤسس مملكة برجموم .	٢٣٥ - ١٩٧
أرتستينز مدير مكتبة الإسكندرية .	٢٣٥ - ١٩٥
أقريسيوس رئيس الاستوى .	٢٣٢ - ٢٠٧
أراطوس يحرر أثينة .	٢٢٩ -
أنتجونس الثالث (دوسون) ملك مقدونية .	٢٢٩ - ٢٢١
إصلاحات كليومينيس في اسبارطة .	٢٢٦ - ٢٢٤
سلوقس الثالث (سوتر) .	٢٢٦ - ٢٢٣
الزلازل يدمر وودس .	٢٢٥ -
أنتيوخوس الثالث (العظيم) الإمبراطور السلوق .	٢٢٣ - ١٨٧
أنتجونس الثالث يهزم كليومينز الثالث عند بلسيا .	٢٢١ -
فليب الخامس ملك مقدونية .	٢٢١ - ١٧٩
بطليموس الرابع (فيلوپاتر) .	٢٢١ - ٢٠٣
أهلونيوس الهرجاء العالم الرياضى .	٢٢٠ -
بطليموس الرابع يهزم أنتيوخوس الثالث عند رافيا .	٢١٧ -
تحالف فليب الخامس وهنيبال .	٢١٥ -
الحرب المقدونية الأولى ضد رومة .	٢١٤ - ٢٠٥
مارسلوس يستول على سرقرسة ، موت أركميديز .	٢١٢ -
صقلية تصبح ولاية رومانية .	٢١٠ -
زينون الطرسوسى الفيلسوف .	٢٠٨ -
ثورة نابيس في اسبارطة .	٢٠٧ -
مصر حماية رومانية .	٢٠٥ -
بطليموس الخامس (اپفانيز) .	٢٠٣ - ١٨١
الحرب المقدونية الثانية .	٢٠٠ - ١٩٧
ديجين السلوقى الفيلسوف .	٢٠٠ -
معركة سهنوسمل .	١٩٧ -
مجد برجموم تحت حكم يومينز الثانى	١٩٧ - ١٦٠
فلامنيوس يعلن حرية بلاد اليونان ، إنشاء مكتبة برجموم .	١٩٦ -
أرسطولان البيزنطى أمين مكتبة الإسكندرية .	١٩٥ - ٨١

- ق . م .
- ١٩٠ - العجل الفرنيزي .
- ١٨٩ - الرومان يهزمون أنتيوخوس الثالث عند مجنيزيا .
- ١٨٨ - فليپومين يلقى دستور ليغورغ في اسبارطه .
- ١٨٧ - ١٧٥ - سلوقس الرابع (فلوطار) .
- ١٨٦ - ١٤٥ - بطليموس السادس (فلوميتور) .
- ١٨٥ - المذبح العظيم في بروجوم . أرسطارخوس السمثراسى أمين مكتبة الإسكندرية
- ١٧٩ - ١٦٨ - برسيوس ملك مقدونية .
- ١٧٥ - ١٦٣ - أنتيوخوس الرابع (لبثانيز) الإمبراطور السلوقى .
- ١٧٥ - ١٣٨ - مئرداتس الأول ملك يارثيا .
- ١٧٤ - أنتيوخوس الرابع يعبد بناء أولمبيوم .
- ١٧٣ - قرنيادس رئيس الأكاديمية الجديدة .
- ١٧١ - ١٦٨ - الحرب المقدونية الثالثة .
- ١٦٨ - إميلوس بولوس يهزم برسيوس عند پدفا . أنتيوخوس الرابع يذهب ميكل
- أورشليم .
- ١٦٧ - إخراج الآخمين ومنهم بوليبيوس المؤرخ .
- ١٦٦ - نهضة المكابيين الأولى ؛ سفر دانيال .
- ١٦٥ - جوداس مكابى يعبد الصلوات في المعبد .
- ١٦٣ - ١٦٢ - أنتيوخوس الخامس (بوطار) الإمبراطور السلوقى .
- ١٦٢ - ١٥٠ - دمتريوس الأول (سوتر) الإمبراطور السلوقى .
- ١٦١ - جوداس مكابى يعقد معاهدة مع رومة .
- ١٦٠ - هزيمة جوداس مكابى وموته .
- ١٦٠ - ١٣٩ - أتلس الثانى ملك بروجوم ؛
- ١٥٧ - بلاد اليهود تصبح دولة مستقلة يحكمها رجال الدين .
- ١٥٥ - كرنيديز في رومة .
- ١٥٥ - ١٤٥ - الكسندر بالاس الإمبراطور السلوقى .
- ١٥٠ - هباركوس النيقياى وسلوقس السلوقى الفلكيان ؛ مسخوس الأزيميرى
- الشاعر .
- ١٤٦ - ميوس يذهب كورنثة ؛ بلاد اليونان ومقدونية تصبعمان ولاية تابعة
- لرومة .

الباب الثابت والعشرون

بلاد اليونان ومقدونية

الفصل الأول

تنازع السلطان

يقسم المؤرخون الماضي أحقاباً ، وسنين ، وحوادث ، كما يقسم الفكر العالم جماعات ، وأفراداً أو أشياء ؛ ولكن التاريخ لا يعرف ، كما لا تعرف الطبيعة ، إلا الاستمرار والتغير — والتاريخ لا يقفز قفزات *historia non facit*. لهذا لم تشعر بلاد اليونان الهلنستية بأن موت الإسكندر كان نهاية عصر من العصور ؛ بل نظرت إلى الإسكندر نفسه على أنه بداية العصور « الحديثة » ، ويعلى أنه رمز الشباب القوى لا على أنه عامل من عوامل الاضمحلال والفتناء ؛ وكان هذا العالم موقناً بأنه قد بدأ الآن أعظم مراحل النضوج ، وأن زعماءه لم يكونوا يقلون عظمة وفخامة عن الزعماء في أى عصر من العصور الماضية ماعدا الملك الشاب نفسه ، فهو دون غيره نسيج وحده^(١). ولقد كان هذا العالم على حق من نواح كثيرة . ذلك أن الحضارة اليونانية لم تمت بموت الحرية اليونانية ، بل لأنها على العكس من ذلك قد افتتحت لنفسها أقطاراً جديدة ، وانتشرت في ثلاث جهات بعد أن حطم تكوين الإمبراطوريات الواسعة ما كان يعترض سبل الاتصال والاستعمار والتجارة من حواجز سياسية . وكان اليونان لا يزالون شعباً مغامراً يقظاً ، فهاجروا بمئات الآلاف إلى آسية ، ومصر ، وإيروس ، ومقدونية ، وبذلك لم تزدهر أيونيا مرة أخرى وحسب ، بل إن الدم الهليني

واللغة اليونانية والثقافة اليونانية قد شقت طريقها إلى داخل آسية الصغرى ،
وفينيقية وفلسطين ؛ واخترقت سوريا ، وبابل ؛ وتخطت نهري الفرات
ودجلة ، بل وصلت إلى بكتريا والهند نفسها . ولم تكن الروح اليونانية في
في وقت من الأوقات أشد مما كانت في ذلك الوقت حماسة وشجاعة ؛ ولم
تحرز الآداب والفنون اليونانية نصراً مؤزراً أوسع من النصر الذي أحرزته
في تلك الأيام .

ولعل هذا هو السبب الذي جعل المؤرخين يهتمون بتاريخ بلاد اليونان
بالإسكندر ؛ ذلك أن العالم اليوناني بعد موته قد بلغ من الاتساع والتعقد حداً
لا يستطيع الإنسان معه أن ينظر إليه على أنه وحدة ، أو يقص تاريخه قصة
متصلة . ذلك أنه لم تقم فيه مملكة كبرى فحسب - مقدونية ،
وسلوينية ومصر - ؛ بل نشأ فيه أيضاً مائة من دول المدن اليونانية
تتمتع بدرجات مختلفة من الاستقلال ؛ وقامت أحلاف واتحادات متشابكة ؛
وأنشئت دول نصف يونانية في أيرسوس ، وبلاد اليهود ، وبرجوم ،
وبزنطية ، وبثينيا ، وكبلوكيا ، وغلاشيا ، وبكتريا . وقامت في الغرب
إيطاليا وصقلية اليونانيتان تتنازعهما قرطاجة العجوز ورومة الفتية . وكانت
دولة الإسكندر المزعومة القواعد لاتربطها إلا روابط ضعيفة من اللغة وسبل
الاتصال ، والعادات والدين ، لا تقوى معها على البقاء طويلاً . يضاف إلى
هذا أنه لم يترك وراءه رجلاً قوياً واحداً بل ترك رجالاً كثيرين ، لم يكن
منهم من يقنع بأقل من السيادة التامة . وغفلت الدولة الحديدية لسعتها واختلاف
أصقاعها عن فكرة الديمقراطية ، فقد كان الاستقلال ، كما يفهمه اليونان ،
يفترض وجود دولة مدينة يستطيع مواطنوها أن يجتمعوا في أوقات معينة
في مكان واحد . يضاف إلى هذا أن فلاسفة أثينة الديمقراطية قد عابوا على
هذه الديمقراطية نفسها أنها مستقر الجهالة والتحاسد والفوضى . وكان خلفاء
الإسكندر جماعة من الزعماء المقدونيين تعودوا من زمن بعيد أن يقيموا حكمهم
بالسيف ؛ ولم يكن للديمقراطية نصيب من تفكيرهم إلا في أوقات متفرقة

يستشيرون فيها أعوانهم . وبعد عدة مناوشات حربية صغيرة تخلصوا فيها من صغار منازعهم ، قسموا الدولة خمسة أقسام (٣٢١) ، فاخص أنتياتر بمقدونية وبلاد اليونان ؛ وليسماخوس بتراقية ، وأنتجونس بآسية الصغرى ، وسلوقس ببابل ، وبطليموس بمصر . ولم يروا ضرورة لدعوة مجمع عام من الدول اليونانية يؤيد هذا التقسيم . وظلت الملكية من تلك الساعة إلى قيام الثورة الفرنسية . - إذا استثنينا فترات متقطعة في تاريخ بلاد اليونان نفسها وتاريخ جمهورية رومة الأرستقراطية - هي السيطرة على أوروبا بأكملها .

إن المبدأ الأساسى الذى تقوم عليه الديمقراطية هو الحرية التى تدعو إلى الفوضى ، كما أن المبدأ الأساسى فى الملكية هو السلطان الذى يدعو إلى الاستبداد والثورة والحرب . ولقد كانت الحروب الخارجية والأهلية من عهد فليب إلى عهد بربسيوس ، ومن قبرونية إلى بدنا (٣٣٨ - ١٦٨) تكملها الحروب الخارجية والداخلية فى الممالك لأن منافع الحكم تغوى مائة من القواد على أن يتنازعا العروش . ولم يكن العنف أقل انتشاراً فى بلاد اليونان الهلنستية منه فى رومة فى عهد النهضة . كذلك لم يكن زعماء العصابات اللذين يستأجرون بالمال لتأييد هذا الفريق أو ذاك أقل عدداً أو أقل شهرة فى الأولى منهم فى الثانية . ولما مات أنتياتر ثارت أثينة مرة أخرى ، وقتلت فوشيون الشيخ الطاعن فى السن بعد أن حكمها باسم أنتياتر حكماً كان أعدل . ما يستطيع أن يهبها من أحكام ، وأعاد كسندر بن أنتياتر المدينة إلى محكم مقدونية (٣١٨) ، ووسع حق الانتخاب حتى شمل من كان يملك ألف درخمة ، وأصاب عنه فى الحكم ديمتريوس الفلورى Demetrius of Phalerum الفيلسوف ، والعالم ، والفنان الهاوى الذى نعمت المدينة فى عهده بعشر سنين من الرخاء والسلام ، وفى هذه الأثناء كان أنتجونس الأول « الجبار الأعور » يحلم بضم دولة الإسكندر كلها تحت عينه الواحدة ؛ ولكن حلفاء من أقسام هذه الدولة هزمه هند لإيسوس (٣٠١) ، وانزع منه سلوكس آسية الصغرى ، وحرر

ابنه دمتریوس بولیکریتر (« آخذ المدن ») بلاد اليونان من نير مقدونية ، واستمعت أثينة تحت حكمه باثني عشر عاما أخرى من الحكم الديمقراطي ؛ وأقام في البرثون ضيفاً على المدينة ، وجاء بالسراري ليعشن معه فيه^(٣) ، ودفع بعض الشبان المستيئين إلى أعمال العنف بمغامراته النسائية^(*) ، وانتصر في معركة بحرية انتصاراً باهراً على بطليموس الأول قرب قبرص (٣٠٨) ، وحاصر رودس ستة أعوام استخدم فيها آلات جديدة من آلات الحصار ، ولكنه ارتد عنها خائباً . وجعل نفسه ملكاً على مقدونية (٢٩٤) ، وقضى على حرية أثينة بحماية وضعها فيها ، وتورط في حرب بعد حرب ، حتى هزمه سلوكس وقبض عليه ؛ ومات من كثرة الشراب .

وبعد أربع سنين من ذلك الوقت (٢٧٩) ، انتهزت جموع من الكلت أو « الغالين » بزعامة برنوس Brennus فرصة ما حدث من الاضطراب بسبب النزاع القائم على السلطة في شرق البحر الأبيض المتوسط^(**) ، فانقضت على بلاد اليونان مخترة تراقية ومقدونية . ويقول بوسنياس إن برتوس « أشار إلى ضعف بلاد اليونان ، وإلى ما في مدنها من ثروة طائلة ، وما في هياكلها من نذور ضخمة ، وإلى ما في البلاد من مقادير هائلة من الفضة والذهب^(٤) » . وشبت في نفس هذا الوقت نار الثورة في مقدونية بزعامة أبلودوروس Apollodorus ؛ وانضم قسم من الجيش إلى الثوار ، وأيدوا الفقراء الجياع في ثأرهم اللورى المتكرر من الأغنياء وانتهاب ثروتهم . وما من شك في أن الغالين قد وجلوا لهم بإرشاد أحد اليونان طريقاً سرياً حول ترموپيلي ، فعاثوا في الأرض فساداً ، يقتلون وينهبون بلا حرج ولا تمييز ، ثم تقدموا بجمعهم نحو هيكل دلفي

(*) وبحث دمتریوس عن دمكليز Damocles في كل مكان ، ولما أوشك أن يقبض عليه قتل نفسه بأن قفز في قدر بها ماء يغلي^(٣) . وليس لنا أن نحكم على الاثنين حكماً خاطئاً مستدين إلى هذا المثل الفذ من أمثلة الفضيلة .

(**) وهو غير برنوس الذي غزا إيطاليا في عام ٣٩٠ ق . م .

الغنى . فلما صدتهم عنه قوة يونانية وعاصفة هوجاء أرسلها أبلو كما يعتقد اليونان للدفاع عن جزاره ، تفهقر برتوس وقتل نفسه فرارا من العار . وعبرت فلول الغالين الذين نجوا من القتل إلى آسية الصغرى ، ويقول فيهم بوسنياس لانهم « ذبحوا جميع الذكور ، والعجائز ، كما ذبحوا الأطفال على صدور أمهاتهم ؛ وشربوا دماءهم وأكلوا لحوم السمان منهم ، فلما رأت ذلك النساء الشريقات والعذارى المخدرات انتحرن فرارا من العار . . . وتعرض من بقين على قيد الحياة لأصناف من الامتهان لا حصر لها . . . فنهن من ألقين بأنفسهن على شفار سيوف الغالين ، يطلبن لأنفسهن الموت ، ومنهن من قصفين نحبهن من الجوع وعدم النوم ، وكان هؤلاء البرابرة الغلاظ الأكباد يختصمون واحدة في إثر واحدة ويشبعون فيهن شهواتهم سواء كن أحياء أو أمواتا(*)» .

وبعد أن عاث الغزاة فسادا في البلاد أعواما طويلا ، أقنعهم يونانيو آسية بما نفحهم من المال بأن ينسحبوا إلى شمالي فريجيا (وعرفت مستعمراتهم فيها باسم غالاشيا) ، وإلى تراقية وبلاد البلقان . وظل الغالون يجلبن كاملين يرهبون سلوقس الأول والمدن اليونانية القائمة على سواحل آسية وشواطئ البحر الأسود . وكانت بيزنطية وحدها تؤدي لهم جزية سنوية تقدر بما يوازي ٢٤٠,٠٠ ريال أمريكي(*)» . وكما أن أباطرة رومة وقوادها قد شغلوا في القرن الثالث بعد الميلاد بصد غارات البرابرة على الدولة الرومانية ، كذلك

(*) ليس لدينا رواية من الفالين أنفسهم عن هذه الحوادث ، كما أننا ليس لدينا أية رواية من « البرابرة » عن غزو اليونان لآسية ، أو إيطاليا ، أو صقلية .

(**) ستقدر الوزلة في الصفحات التالية من هذا الكتاب بما يعادل ٣٠٠٠ ريال أمريكي على أساس قيمة الريال في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٩ ، وذلك لكي ندخل في حسابنا ما حدث في العصر الهلنستي من ارتفاع في الأسعار .

سخر ملوك بروجوم ، وسلوقيا ، ومقدونية ، هم وقوادها مواردهم وقواهم في القرن الثالث قبل الميلاد لصدم موجات الكلت الغزاة المتكررة عن البلاد اليونانية . ذلك أن الحضارة القديمة كانت طوال تاريخها تعيش على شاطئ بحر من الحمجية طالما هدها بإعراقها واجتياحها ؛ وقد استطاعت بسالة المواطنين أن تصد أمواج هذا البحر الطامى في يوم من الأيام بعد أن أعدت لهذا الغرض إعداداً دائماً طويلاً الأمد ؛ ولكن البسالة كانت تختصر في بلاد اليونان في وقت أن كان الدهر يضيئ عليها صبغتها القديمة ويخلع عليها اسمها اللذين عرفت بهما في مستقبل أيامها .

وطرد أنتجونس الثاني ابن دميريوس بوليكراتيس والمعروف باسم « جوناناس » لأسباب لا نعرفها الآن ، طرد الغاليين من مقدونية ، وقلم أظفار قننة أيلودورس ، وحكم مقدونية حكماً حازماً معتدلاً دام ثمانية وثلاثين عاماً (٢٧٧ - ٢٣٩) . وكان سمحا جواداً يناصر الآداب والعلوم والفلسفة ، واستدعى شعراء مثل أراطوس السلياني إلى بلاطه ، ووثق مع زينون الرواقى الصداقة التي دامت طوال حياته ، وكان أول تلك السلسلة غير المتصلة الحلقات من الفلاسفة الملوك التي انتهت بماركس أورليوس . ومع هذا ففي أثناء حكمه بدلت أثينة آخر جهودها لاستعادة حريتها . ذلك أن الحزب الوطني الأثيني الذي كان يزعمه في ذلك الوقت أفرميدس Chremonides أحد تلاميذ زينون الشبان استولى على أزمة الحكم في عام ٢٦٧ . واستطاع بمعونة مصر أن يطرد الجنود المقدونيين من المدينة ، ويعلن استقلال أثينة وحريتها . وجاءه أنتجونس على مهل ، واسترد المدينة (٢٦٢) ، ولكنه عامله معاملة من يحترم الفلسفة والشيخوخة ؛ فوضع حاميات في بيرية وسلاميس وعند سنيوم ، وحذر أثينة من الاشتراك في أحلاف والاشتباك في حروب ، وفيما عدا هذا ترك للمدينة حريتها كاملة .

وكانت المدن اليونانية الأخرى وقتئذ تحل بأساليب أخرى مشكلة التوفيق بين الحرية والنظام ، فشرعت إيتوليا الصغيرة حوالي عام ٢٧٩ ، وكان يسكنها

كما يسكن مقدونية أقوام جبليون نصف همج لم يخضعوا في حياتهم لغريب ، شرعت هذه المدينة الصغيرة تنظم مدن اليونان الشمالية - وخاصة مدن الحلف الدلفي الاثني عشرى - وتضمها في الحلف الإيتولى ، وضم الحلف الآخى المؤلف من مدائن پترى Patrae ، وديمي Dyme ، وپلبنى ، إلى عضويته حوالى ذلك الوقت كثيراً من مدن الهلپونيز . وظلت الهيئات البلدية التى يتألف منها كلا الحلفين تشرف على جميع فروع الحكومة المحلية ، ولكنها أسلمت قواها المسلحة وعلاقاتها الخارجية إلى مجلس الاتحاد وإلى استراتيجوس ينتخبه من يستطيع من المواطنين أن يحضر الجلسات السنوية التى تعقدها الجمعية فى إاجيوم من أعمال آخية أو فى ثرموس من أعمال إيتوليا . وكانت مهمة كل حلف أن يحافظ على السلم ، ويوحد المقاييس والموازين والسكة فى الأصقاع التى يشملها . وتلك خطوة فى سبيل التعاون تجعل القرن الثالث أرقى من عصر پركايز من بعض الوجوه .

وحول أراتوس السكيونى عصبة الدول السكيونية إلى قوة من الطراز الأول . واستطاع هذا التمسكتكيز الحديد وهو فى سن العشرين أن يحرر سكيون من طاغيته بأن باغته بالهجوم ليلاً هو وحفنة من الرجال ، واستطاع بفصاحته وبراعته فى المفاوضات أن يقنع جميع مدن الهلپونيز ماعدا اسبارطة وإليس بأن تنضم إلى العصبة التى ظلت تنتخبه رئيساً لها مدى عشر سنين (٢٤٥ . ٢٣٥) . ودخل مدينة كورنثة سرا ومعه بضع مئات من رجاله وتساقى قوة أكر وكورنثس المنيعه ، وبدد شمل الجيوش المقدونية ، وأعاد إلى المدينة حريتها . ثم انتقل إلى ثغر پرية ورشا الحامية المقدونية المقيمة بها بالمال فاستسلمت له وأعلن تحرير أثينة ، وظلت تلك المدينة من ذلك الوقت إلى الفتح الرومانى تستمتع باستقلال فذ فى نوعه - فقد كانت لا حول لها ولا طول

من الناحية العسكرية ولكن الدول الهلنستية تركتها وشأنها لم تمسها بسوء لأن جامعاتها العلمية جعلتها العاصمة الذهنية للعالم اليونانى . ووجهت أثينة عنايتها للفلسفة ، واختفت من ذلك الحين من التاريخ السياسى .

وكانت عصبتا الدول اليونانية وقتئذ فى عنفوان قوتهما ، ثم أخذتا تضعفان نفسيهما بمحاربة كل منهما للأخرى فى الخارج ، وبحروب الطبقات فى الداخل . فى عام ٢٢٠ اشتبكت العصبة الإيتولية ومعها اسبارطة وليس فى الحرب « الاجتماعية » العوان ضد العصبة الآخية ومقدونية . وكان أراطوس المدافع عن الحرية يدافع أيضاً عن حق الملكية ؛ ولذلك كانت العصبة تؤيد حزب الملاك فى كافة المدن . وشكوا فقراء المواطنين من أنهم لا يستطيعون حضور الجمعيات النائية لعصبة الدول وأنهم كانوا فى واقع الأمر محرومين من الحقوق السياسية ؛ وكانوا يرتابون فى فائدة حرية لا معنى لها إلا أن تلج الفرصة كاملة للأقوياء والمهرة دون غيرهم لكى يستغلوا الضعفاء والسذج ؛ فأخذوا يؤيدون تأييداً متزايداً المهرجين من زعماء الشعب الذين كانوا ينادون بإعادة توزيع الأراضى الزراعية ؛ وشرع الفقراء يفضلون حكم المقدونيين على حكومتهم الوطنية كما كان يفعل الأغنياء قبل مائة عام من ذلك الوقت .

يند أن الذى قضى على مقدونية آخر الأمر هو أمانة أنتجونس الثالث . وذلك أنه كان قد استولى على زمام السلطة بوصفه وصياً على فليب ابن زوجته ، ووعد بأن يتخلى على الملك حين يبلغ فليب سن الرشد . وأطلق عليه الساخرون فى ذلك الوقت اسم « الدوسون Doston أى الواعد » ، لأنهم على ما يبدو كانوا موقنين بأنه لن يوفى بوعده . ولكنه أنجز هذا الوعد فعلاً ، وبدأ فليب الخامس فى عام ٢٢١ ، وهو فى السابعة عشرة من عمره ، حكماً طويلاً مليئاً بالدسائس والحروب . وكان فليب شجاعاً قديراً ، ولكنه كان مخائلاً ميت الضمير ، لم

يتورع عن أن يغرر بزوجة ابن أراطوس ، ويسم أراطوس نفسه ، ويقتل
ابنه هو لأنه ظنه يأتمر به ، وأقام ولائهم من الخمر المسموم للذين
وقفوا في وجه خططه^(٧) . وقد وسع رقعة مقدونية وزاد ثروتها ، وتركها
وهي أكثر سكانا وأعظم رخاء مما كانت عليه منذ مائة وخمسين عاماً . ولكنه
في عام ٢١٥ أوجس خيفة من قوة رومة النامية ، فارتكب الغلظة التاريخية
الموبقة بأن تحالف مع هنيبال وقرطاجة ، فما كان من رومة إلا أن أعلنت
الحرب على مقدونية بعد عام واحد من ذلك الوقت وبدأت تستولى على
بلاد اليونان .

الفصل الثاني

الكفاح من أجل المال

ويقول أثنيوس ، وهو ثرثار خليق بأن يعتمد عليه بالقدر الذى يصح أن يعتمد به على أمثاله الثرثارين ، إن دمتريوس الفالرومى أحصى سكان أثينة حوالى عام ٣١٠ ق . م فوجد فيها ٢١,٠٠٠ من المواطنين ، و ١٠,٠٠٠ من الغرباء المستوطنين ، و ٤٠٠,٠٠٠ من الأرقاء (٨) : فأما العدد الأخير فلا يمكن تصديقه ، ولكننا لانعرف شيئاً ينقضه ، وأكبر الظن أن عدد الأرقاء الذين كانوا يعملون فى المزارع قد ازداد لأن الضياع كانت آخذة فى الاتساع ، ولأن استغلالها بجهود العبيد تحت إشراف العبيد الذين يعملون فى خدمة المالك البعيد عنها ، كان آخذاً فى الازدياد (٩) . وبفضل هذا النظام انتشر نظام الزراعة الذى يعتمد على العلم أكثر من ذى قبل ؛ ودليلنا على ذلك أن فارو Varro كان يعرف أسماء خمسين كتاباً فى فن الزراعة . ولكن عوامل التعرية وتقطيع الغابات أدت إلى اكتساح التربة فى مساحات واسعة من الأرض الخصبية . وحتى فى القرن الرابع ذكر أفلاطون أن الأمطار وفيضانات الأنهار قد جرفت على مر الزمن كثيراً من تربة أتكيا الخصبية ؛ ويشبه مابقى من التلال بالهيكل العظمى الذى انتزع منه اللحم (١٠) . وما وافى القرن الثالث حتى كانت مساحات واسعة فى أتكيا قد تعرت من تربتها الخصبية إلى درجة اضطرت أصحاب كثير من الضياع القديمة إلى هجرها ، وأخذت غابات بلاد اليونان تخفى شيئاً فشيئاً ، حتى اضطروا أهلون إلى استيراد الخشب كما اضطروا إلى استيراد الطعام من خارج البلاد (١١) . كذلك أجذبت مناجم لويوم ، وكادت هى الأخرى أن تهجر ، وكان

استيراد الفضة من أسبانيا أرخص من استخراجها من مناجم البلاد ، وأضحى مناجم الذهب في تراقية تغني خزائن مقدونية وتكمل عمالتها بعد أن كانت تصب ثروتها في أثينة :

وبينا كانت موارد الرجولة والمواطنة المستقلة ينضب معها في القرى ، كانت الصناعة وحرب الطبقات تفعلان فعلهما في المدن ، فكانت المصانع الصغيرة في أثينة وفي جميع المدائن الكبرى في العالم الهلنستي يتزايد عددها وعدد العبيد الذين يعملون فيها ؛ وكان تجار الرقيق يصحبون الحيوش ، ويبتاعون من لا يفتدون من الأسرى ، ويبيعونهم بسعر ثلاث مينات أو أربع (مائة وخمسين ريالاً أو مائتي ريال) في أسواق الرقيق الكبرى في ديلوس ورودس . وكان عدد من الناس يشعرون بما في هذا النظام القديم ، نظام الاسترقاق ، من عجافاة للمبادئ الإنسانية ؛ وكان من ثمار الفلسفة أن سرت في قلوب الناس عاطفة إنسانية نبيلة ؛ يضاف إلى هذا أن الروح العالمية التي سادت ذلك العصر لم تكن تميز بين الأجناس البشرية ، وأن العمال المأجورين الذين يخرجون من الأعمال حين لا تأتي بأرباح ليعيشوا من معونة الدولة ، كانوا في كثير من الظروف أقل كلفة من العبيد الذين لا بد من إطعامهم على الدوام^(١٢). وكان من أثر هذه العوامل كلها أن أخذ عدد العبيد المحررين يزداد في ذلك الوقت زيادة ملحوظة .

وكسدت التجارة في المدن القديمة ولكنها راجت في المدن الحديثة ، فازدهرت الثغور اليونانية في آسية ومصر على حساب ثغر بيرية ، وحتى في أرض اليونان القارية كانت خلقيس وكورنثة هما اللتين استفادتتا من تيار التجارة الهلنستية الزاخر ؛ فقد كان التجار لا ينقطعون عن التردد غادين راغبين على هذين البلدين ذوى المركز الهام والاستعداد التجارى العظيم ، كما لم يكونوا ينقطعون عن التردد على أنطاكية ، وسلوقيا ، ورودس ، والإسكندرية ، وسرقوسة ؛ وكانوا ينشرون مع تجارتهم نزعتهم العالمية والمتشككة . وتضاعف عدد رجال المصارف ، ولم يكونوا يقرضون المال

للتجار والملاك فحسب ، بل كانوا يقرضونه أيضاً للمدن والحكومات (١٣) ، وكان لبعض المدن مثل ديلوس وبيزنطية مصارف عامة أو وطنية تودع فيها الحكومات أموالها ويديرها موظفون معينون من قبل الدولة (١٤) . وفي عام ٣٢٤ أنشأ أنتمينيس الرودسى أول نظام معروف للتأمين ، وذلك بأن ضمن للملاك تظير ثمانية في المائة من إيرادهم ما عسى أن يصيبهم من الخسارة إذا فر منهم عبيدهم (١٥) . وكانت نتيجة انطلاق الأموال المكلسة في خزائن بلاد الفرس ، وسرعة تداول رؤوس الأموال ، أن نقص سعر الفائدة إلى عشرة في المائة في القرن الثالث ، وإلى سبعة في المائة في القرن الثاني . كذلك انتشرت المضاربات انتشاراً كبيراً ، ولكنها كانت على غير نظام ؛ فمن المضاربين من كانوا يعملون لرفع الأسعار بتحديد الإنتاج ؛ وقد وجد في البلاد من كانوا يدعون إلى تحديد مقدار الحاصلات الزراعية لكي يحفظ الزراع بقدرتهم على الشراء (١٦) . وكانت أثمان السلع مرتفعة في العادة لأن الإسكندر هو الآخر قد صب في أيدي الناس الأموال المكلسة في خزائن الملوك الأكينيين ؛ لكن هذا السبب عينه كان من الأسباب التي يسرت سبل التجارة ، ونشطت الإنتاج فعادت الأثمان إلى مستواها العادى . وازدادت ثروة الأغنياء إلى حد لم يعرف له مثيل في تاريخ اليونان ، فاستحالت البيوت قصوراً ، وأضحت الرياض والعربات أفخم من ذى قبل ، وكثر العبيد ، وصارت وجبات الطعام قصفاً ولها خليعاً ، وأضحت النساء معارض لثراء أزواجهن (١٧) .

ولم تستطع الأجور لانخفاضها مجازاة أثمان السلع الآخذة في الارتفاع ، فإذا انخفضت هذه الأسعار انخفضت معها الأجور على الفور ؛ ولم تكن تكفى إلا لإطعام شخص بمفرده ، وكانت سبباً في انتشار العزوبة والمسكنة ، وإفقار البلاد من أهلها ؛ وأخذ الفرق بين أجر العمل الحر ونفقات الرقيق ينقص — تدريجاً . ولم يكن العمل ميسراً للعمال على الدوام ، وترك آلاف من الرجال مواطنهم في المدن اليونانية التي في أرض القارة ليعملوا جنوداً

مرتزقين في خارج البلاد ، أوليخفوا فقرهم في عزلتهم الريفية (١٨) . وأعانت حكومة أثينة المعدمين من أهلها بهبات من الحبوب ، وأخذ الأغنياء يسلونهم بما يقدمون لهم من التذاكر التي تبيح لهم حضور الحفلات والألعاب . فقد كانوا يقترون في الأجور ، ولكنهم كانوا أنبياء في الصدقات ، وكثيراً ما كانوا يقرضون المال لمندهم من غير فائدة ، أو ينقلونها من الإفلاس بالهبات الضخمة ، أو ينشئون المباني العامة على نفقتهم الخاصة ، أو يهبون المال للهيكل والجامعات ، أو يجودون بالكثير منها لإقامة التماثيل ، أو لإجازة الشعراء الذين يذيعون في الناس ملاحهم أو يشيلون بمطايهم . ونظم الفقراء أنفسهم في اتحادات ليتبادلوا المعونة فيما بينهم ، ولكنهم كانوا أضعف من أن يحلوا من سلطان الأغنياء أو مهارتهم ؛ ومن جود الفلاحين واستعداد الحكومات والأحلاف المتنافسة لتبادل المعونة المسلحة للقضاء على الثورات (١٩) . وقد أدت حرية الكمفايات غير المتكافئة في جمع الثروة أو الهلاك جوعاً إلى ما أدت إليه من قبل في أيام صولون ، ألا وهو تركيز الثروة في أيدي عدد قليل جداً من الأفراد . وكان الفقراء سريعي الاستجابة إلى الدعايات الاشتراكية ، فأخذ ممثلهم يطالبون بإلغاء الديون ، وإعادة توزيع الأراضي الزراعية على الأهلين ، ومصادرة الثروات الكبرى ، وكان أكثرهم جرأة يطالبون من حين إلى حين بتحرير العبيد (٢٠) .

وكان ضعف العقيدة الدينية سبباً في نشأة الدعوة إلى إقامة مدائن فاضلة خيالية تعوض على الناس هذا الضعف : فوصف زينون الرواق في جمهوريته التي نشرها عام ٣٠٠ ق . م على ما يظن نظاماً شيعياً مثالياً ، وألمهم يمولوس أحد أتباعه (٢٥٠ في الغالب) . الثوار اليونان برواية له وصف فيها جزيرة مباركة في المحيط الهندي ، (قد تكون جزيرة سرنديب) قال إن الناس كلهم فيها أكفاء ، لا في الحقوق فحسب ، بل في مقدرتهم وذكائهم ، وإنهم كلهم يعملون على قدم المساواة ، ويقتسمون ثمار عملهم بالتساوي ، ويشتركون

كلهم إذا جاء دورهم في تصريف شئون الحكومة ، وإن هذه الجزيرة لم يكن فيها غنى ولا فقر ، ولا حرب بين الطبقات ، وإن الطبيعة تنتج فيها الفاكهة موفرة بلا حاجة إلى جهد ، وإن الناس يعيشون فيها متآخين متحابين (١٢٠) .

وأمت بعض الحكومات عددا من الصناعات : فاستولت حكومة بريزي على مصانع الملح ، وأمت ميليطس مصانع النسيج ، ورودس ونيدس مصانع الفخار ؛ ولكن الحكومات لم تكن تؤدي للعمال أجورا أعلى مما يؤديه أصحاب الأعمال الشحيحون ، وكانوا يمتصون من كدح عبيدهم كل ما يستطيعون امتصاصه من المكاسب . واتسعت الهوة بين الأغنياء والفقراء (٢١) ، وأضحت حرب الطبقات أشد مرارة مما كانت قبل ؛ فأخذت كل مدينة قديمة كانت أو حديثة تردد أصداء كراهية الطبقات بعضها لبعض ، وكانت هذه الكراهية تتمثل في الفتن ، والمذابح ، وأعمال القمع ، والنقى ، والقضاء على الأنفس والثمرات . فإذا ما انتصر فيها حزب طرد الحزب الآخر وصادر أملاكه ؛ فإذا عاد إلى المنفيين سلطانهم ثأروا لأنفسهم مثل هذا الثأر وقتلوا أعداءهم ، ألا فليتصور القارئ أى استقرار يمكن أن يتاح لنظام اقتصادى يتعرض لأمثال هذه الاضطرابات والهزات العنيفة . وقد وصل ما حل من الخراب ببعض المدن اليونانية القديمة من جراء النزاع بين الطبقات إلى درجة أن هجرتها الصناعات وفر منها الناس ، وأن نمت الأعشاب في شوارعها وأقبلت عليها الماشية ترعاها (٢٢) . وكتب پوليبوس حوالى عام ١٥٠ ق . م يصف بعض مظاهر هذه الحرب كما يراها رجل محافظ ثرى :

« ولما أن هيئوا (أى الزعماء المتطرفون) نفوس العامة إلى الجشع والرشوة ، قضى على ما فى الديمقراطية من فضيلة ، واستحالت حكم العنف والاستبداد . ذلك أنه إذا اعتادت الغوغاء أن تطعم على حساب غيرها ، وأن تُبعث فيها الآمال بأن تعيش من مال جيرانها ، ثم وجدت زعيما أوقى قلدا كافيا من

الطموح والجرأة . . إذا حدث هذا نشأ عنه حكم العنف . وحينئذ تقوم الجمعيات الصاخبة ، والمذابح ، والننى ، وإعادة توزيع الأرض (٣٣) ، وكانت الحروب ونزاع الطبقات هي التي أضعفت بلاد اليونان الأصلية حتى جعلتها غنيمة سهلة لرومة . ذلك أن قسوة المنتصرين وغلظة قلوبهم المتناهية ، وتدمير الغلات ، والكروم ، والبساتين ، وتخريب الضياع ، وبيع الأسرى في سوق العبيد قد قضى على إقليم في إثر إقليم ، وترك البلاد أشبه بقشرة فارغة أمام العدو الأخير . وهل تقوى أرض أفقرها التنازع والتباغض ، واكتسحت تربتها عوامل التعرية ، وقطعت غاباتها ، ولم يكن يزرع أرضها إلا المستأجرون الفقراء أو الأرقاء الكليلون ، هل تقوى أرض هذا شأنها على منافسة السهول الفيضية التي تشقها أنهار العاصي ، والفرات ، ودجلة ، والنيل . أهدف إلى هذه أن المدن الشمالية لم تحد كما كانت من قبل قائمة على الطرق التجارية الكبرى ، وأنها قد فقدت أساطيلها الحربية ، ولم يكن في مقدورها أن تشرف على موارد الحبوب وطرقها وهي الموارد والطرق التي كانت أثينة واسباطة تسيطران عليها في أيام عظمتهما الإمبراطورية . وانتقلت مراكز القوة ، بما فيها قوة الإبداع الأدبية والفنية ، إلى أماكنها القديمة في آسية ومصر ، وهي المراكز التي أخذت منها بلاد اليونان في تواضع ونجسوع آدابها وفنونها قبل ذلك الوقت بألف عام .

الفصل الثالث

أخلاق الانحلال

لقد عجل فشل نظام دول المدائن تدهور الدين القديم ؛ ذلك أن آلهة المدينة قد ثبت عجزها عن حمايتها ، ومن أجل هذا تزعزع إيمان الناس بهذه الآلهة . واختلط أهلها بالتجار الأجانب الذين لم يكن لهم نصيب في حياة البلد المدنية والدينية والذين انتشر تشككهم وطموهم بين المواطنين . على أن أساطير الآلهة المحلية القديمة قد بقيت بين الفلاحين والسذج من سكان المدن ، وبقيت كذلك في الطقوس الرسمية ، وظل المتعلمون يستخدمونها في الشعر والفن ؛ أما من تحررت عقائدهم بعض التحرر من سلطانها فأخلوا بها جونها بعنف . غير أن الطبقات العليا ظلت تستمسك بها وتستعين بها على حفظ النظام ، وتقاوم الإلحاد الصريح وتعهده شاهداً على فساد الذوق . ولما قامت دول كبيرة أدى قيامها هذا إلى توحيد الآلهة واندماجها هي الأخرى ، وسرت في نفوس الناس نزعة غامضة نحو التوحيد ، وحاول الفلاسفة أن يصوغوا للأدباء مذهب وحدة الوجود في صيغة لا تتعارض تعارضاً صريحاً كل الصراحة مع العقائد الثابتة القديمة . من ذلك أن أوفروس Euphemerus أحد سكان مسانا في صقلية نشر حوالى عام ٣٠٠ ق.م كتابه المسمى هيرا أنجرافا Hiera Anagrapha (ومعناه الحرفى الكتابات أو السجلات المقدسة) ، والذي قال فيه إن الآلهة إما أن تكون قوى طبيعية جسدها الناس ، وإما أن تكون — وهذا هو الأغلب الأعم — أبطالاً آدميين ألَّهمهم خيال الشعب أو عبدهم اعترافاً بفضلهم على بنى الإنسان ؛ وإن الأساطير إن هي إلا استعارات وتشبيهات ، وإن الاحتفالات الدينية كانت في الأصل مراسم تخليداً لذكرى الموقى . فزيوس

مثلا كان فالحامات في كريت وأفريقي كانت موجدة الدعازة ونصيرتها ، ولم تكن قصة كرونوس وأكله أبناءه إلا طريقة للقول بأن أكل اللحوم البشرية في الزمن القديم عادة متبعة على ظهر الأرض . وقد كان لهذا الكتاب أثر قوى في نشر النزعة الإلحادية في بلاد اليونان في القرن الثالث قبل الميلاد (*) (١٢٣) .

يبد أن الناس لا يستريحون للتشكك لأنه يترك قلب الإنسان وخياله فارغين ، وهذا الفراغ لا يلبث أن يجذب إليه عقيدة جديدة مشجعة ، وقد مهدت انتصارات الفلسفة وانتصارات الإسكندر السبيل إلى الطقوس الدينية الجديدة .

وسادت أئنة في القرن الثالث عقائد دينية غريبة اضطربت لها أحوالها ، وكانت كلها تقريبا ، تبشر بالجنة وتتلذذ بالحجم ، حتى أحسن أبيقور ، كما أحسن لكريشوس في رومة في القرن الأول ، أن من واجبه أن يندد بالدين ويقول إنه يتعارض مع طمأنينة العقل وممتعة الحياة . ومن أجل هذا أصبحت المعابد الحديدة ، حتى في أئنة نفسها ، تشاد عادة لإيزيس ، وسراپيس Serapis ، وبنديس Bendis وأدنيس ، وغيرها من الأرباب الأجانب . وانتشرت الطقوس الإليزيدية الخفية وأخذ الناس يحاكونها في مصر ، وإيطاليا ، وصقلية ، وكريت . وظلت عبادة ديونيشيوس اليوثيريوس - الحرر - واسعة الانتشار حتى اندمج هذا الإله في المسيح . وانضوى تحت إواء الأرفية أتباع جدد حين جددت اتصالها بالأديان الشرقية التي نشأت هي عنها . لقد كان الدين القديم أرسقراطيا ، وكان يحرم على الأجانب والرقى أن يكونوا من أتباعه ، أما الطقوس الشرقية الحديدة فكانت تقبل بين أتباعها جميع الرجال والنساء ، ومنهم الأجانب ، والأرقاء ، والأحرار ، وكانت تعد الناس على اختلاف طبقاتهم بالخلود في الدار الآخرة .

(*) وربما كان هذا الكتاب تعيرا عن العادة الملنسية عادة تأليه الملوك ومشجما لها في الوقت نفسه .

وانتشرت الخرافات والأوهام في الوقت الذي بلغ فيه العلم أوجهه ، وإن الصورة التي رسمها ثاوفراسطوس « للرجل المخرف » لتكشف عن رقة الغشاء الثقافي في حاضرة النور والفلسفة نفسها . فلقد كان العدد ٧ عدداً مقدساً إلى حد لا يتصوره العقل ؛ فكان ثمة سبعة كواكب سيار ، وسبعة أيام في الأسبوع ، وسبع عجائب في العالم ، وسبعة أعمار للإنسان ، وسبع سماوات ، وسبعة أبواب للجحيم . وانتعش علم التنجيم على أثر انتشار التجارة مع بابل ، وكان من العقائد المسلم بها والتي لا تقبل الحدل أن النجوم آلهة تتصرف في مصائر الأفراد والدول صغيرها وكبيرها ، وحتى خلق الإنسان كان يحدده الكوكب الذي ولد الإنسان في مطلعته ، فيكون مرحاً إذا ولد والمشتري في السماء ؛ أو نشطاً زواغاً ، إذا كان فيها عطارد ، أو نكداً إذا كان فيها زحل (*) . وحتى اليهود أنفسهم كانوا يعبرون عن الأمانى الطيبة بقولهم : « مزول — توف Mazzol-Tof » نرجو أن يكون كوكبك سعداً (٢٤) . . وكان علم الفلك يكافح في سبيل الحياة ضد التنجيم ، ثم استسلم له آخر الأمر في القرن الثاني بعد الميلاد . وكان الناس في جميع أنحاء العالم الهلنستي يعبلون تيكي Tyche إله الفرص .

وليس في مقدور الإنسان أن يدرك عظيم الأثر الذي يحدثه في الأمة موت دينها التقليدي إلا إذا أوتى خيالاً قوياً لا يكل ، أو قدرة فائقة على الملاحظة . لقد قامت الحضارة اليونانية القديمة على الإخلاص لدولة المدينة والتفاني في حبها ، وكانت العقائد الخرافية من أقوى العوامل في تدعيم المبادئ الأخلاقية وإن كانت هذه المبادئ متأصلة في القصص الشعبي والمعارف الشعبية أكثر من تأصلها في العقيدة الدينية . لكن الرجل اليوناني المتعلم قد خسر في الوقت الذي نتحدث عنه دينه ووطنيته ؛ ومحت الإمبراطوريات الحدود المدنية ، وأضحت

(*) ويطلق على هذه الصلوات بالإنجليزية : mercurial ، jovial على التوالي .

المبادئ الخلقية ، وشئون الزواج ، والأبوة ، والقوانين ، بسبب انتشار المعارف من الأمور الدنيوية . وقد كان عصر الاستنارة في أيام پركليز من أسباب تدعيم الأخلاق إلى حين ، وهذا شبيه بما حدث في أوروبا الحديثة ؛ فقد نمت المشاعر الإنسانية ، وأيقظت - ذون جلوى - في نفوس الناس استياء شديداً من الحروب ، ونشأت عادة التحكيم في المنازعات بين المدن والأفراد ، وأصبحت الآداب أظرف مما كانت وأكثر صفلا ، وصار الجدل أكثر تحضراً ، وانتقلت آداب اللياقة والمحاملات اللطيفة من حاشيات الملوك ، حيث كان الباعث عليها السلامة الشخصية والهيئة الملكية ، إلى أفراد الشعب ، فلما أن جاء الرومان دهش اليونان أشد الدهشة من سوء آدابهم وغلظة طباعهم . لقد أصبحت الحياة في بلاد اليونان أرق مما كانت وأكثر تهديداً ، وكان النساء يستمتعن بقسط أوسع من الحرية في غلوهن ورواحهن ، ويبعثن في الرجال الميل إلى الظرف والرشاقة ؛ فأخلوا يخلقون لحاهم وخاصة في بيزنطية وزودس ؛ حيث كانت القوانين تحرم هذا العمل وتعهده تشبهاً بالنساء^(٢٥) . غير أن البحري وراء اللذات قد أنهك حياة الراشدين من أفراد الطبقات العليا . ولم تجد المشكلة القديمة مشكلة الآداب والقوانين الأخلاقية ، وكيف يوفق الناس بين أبيقورية الفرد الفطرية ورواقية الدولة الضرورية ، لم تجد هذه المشكلة حلالاً في الدين ، أو السياسة ، أو الفلسفة .

وانتشر التعليم ولكن انتشاره كان رقيقاً غير عميق ، فقد كان يفعل ما يفعله في جميع العصور التي كانت الغلبة فيها للعقل فيعنى بالمعارف أكثر مما يعنى بالأخلاق ، ولذلك أخرج جماهير غفيرة من أنصاف المتعلمين الذين انتزعوا من العمل ومن الأرض ، وأخلوا يطوفون وهم ساخطون حيث يجب ألا يكونوا ، كأنهم بضاعة سائبة في سفينة الدولة : وأنشأت بعض المدن مثل ميليطس ورودس مدارس عامة تتفق عليها الدولة ، وكان الذكور والإناث

يتعلمون مجتمعين في مدارس تيوس Teos ، وطشيوز ، وكانت تعطى للجنسين فرص متكافئة لا نظير لها إلا في اسببارطة^(٢٦) . وتطورت مدارس الرياضة البدنية حتى أصبحت مدارس عليا أو كليات جامعية بها غرف للتدريس ، وقاعات للمحاضرات ومكتبات . كذلك ازدهرت ساحات التدريب الرياضي وأضحى لها شأن في بلاد الشرق ؛ ولكن الألعاب العامة اضمحلت حتى أصبحت مباريات بين المحترفين وخاصة في الملاكمة ، التي كانت قوة الجسم فيها أهم من المهارة والحذق ؛ وأصبح اليونان أمة من النظارة يقنعون بأن يشاهدوا ولا يعملوا وقد كانوا في ماضى أيامهم أمة من الرياضيين .

وتحللت الأخلاق الجنسية من القيود أكثر من تحملها في عصر بركليز نفسه ، وإن كان هذا التحلل لم يقلل من انتشار اللواط بل ظل كما كان في سابق الأيام . انظر إلى قول شميثا Simaetha في بعض قصائد ثاوفراطوس : « إن الشاب دلفس Delphis يحب ، ولكني لا أعرف أيحب امرأة أم رجلا ^(٢٧) » . وظلت الخطيئة صاحبة السلطان الأعلى ، وهل أدل على ذلك من أن دمتريوس بليوكرتيز جبي من الأثينيين ضريبة مقدارها مائتي وزنة وخمسين (٧٥٠,٠٠٠ ريال أمريكي) ثم وهبها لعشيقتة لاميا Lamia بحجة أنها في حاجة إلى هذا المال لتبتاع به ما يلزمها من الصابون ؛ وقال الأثينيون الغضاب « إن هذه السيدة لا بد أن تكون قلرة إلى أبعد حدود القذارة » وأصبح الناس لا يتأففون من رقص النساء العاريات بل يرونه من العادات المألوفة ، وكان هذا يحدث أمام أحد ملوك مقدونية^(٢٨) . وقد صور مندلر في مسرحياته الحياة الأثينية بأنها حياة تدور كلها حول السفاسف ، والغواية والزنى .

واشتركت المرأة اليونانية اشتراكا نشيطاً في الأعمال الثقافية في ذلك العصر ، وكانت لها جهود موفقة في الأدب والعلم والفلسفة والفن ، فكانت أرسطوداما Aristodama الأزميرية تنشد أشعارها في طول بلاد اليونان وعرضها وتقابل أينما حلت بأعظم مظاهر التكریم ؛ ولم يتردد بعض

الفلاسفة ، كأبيقور مثلاً ، في قبول النساء في مدارسهم . وبدأ الأدب يعنى بوصف جمال المرأة الجسماني بعد أن كان من قبل يعنى بقيمتها وفنيتها من ناحية الأمومة ، ونشأت العبادة الأدبية للجمال النسوي في ذلك العهد إلى جانب أشعار الحب الروائي وقصصه . وقد صحب هذا التحرير الجزئي للمرأة ثورة على قصر وظيفتها على الأمومة ، وأضحى تحديد النسل من أهم الظواهر البارزة في ذلك العصر ، فلم يكن يعاقب على الإجهاض مثلاً إلا إذا بلغت إليه المرأة على غير إرادة زوجها ، أو بتحرير من أغواها ، وكان الطفل في كثير من الأحيان يعرض للجو القاسي ، ولم يكن عدد الأسر التي تربي أكثر من بنت واحدة في المدن اليونانية القديمة يزيد على واحد في المائة من مجموع أسرها ؛ وفي ذلك يقول پوسيدپوس Posidippus ، « وحتى الرجل الغني نفسه ، كان يعرض ابنته للجو القاسي على الدوام . وكان يندر وجود أخوات للأبناء ، وكثر عدد الأسر التي لم يكن لها أبناء قط أو كان لكل منها ولد واحد . وفي وسعنا أن نتبع من النقوش الباقية إلى هذه الأيام خصوبة تسع ومبعين أسرة من سكان ليليطس في عام ٢٠٠ ق. م : لقد كان لاثنتين وثلاثين من هذه الأسر طفل واحد ، وإحدى وثلاثين منها طفلاً ؛ وكان مجموع أبناء هذه الأسر جميعها مائة وثمانية عشر ولداً وثمانيا وعشرين بنتاً^(٣٠) . وفي إرتريا Eretria لم يكن عدد الأسر التي لها ولدان يزيد على أسرة واحدة في كل اثنتي عشرة أسرة ، وقلما كان لأسرة واحدة ابنتان . وكان الفلاسفة يتجاوزون عن قتل الأطفال بحجة أنه يخفف من ضغط السكان على موارد الرزق ؛ فلما أن بلغت الطبقات الدنيا إلى هذه العادة وأسرفت فيها تساوت نسبة الوفيات مع نسبة المواليد . ولم يعد في مقدور الدين أن يتغلب على مقتضيات الراحة ونفقات الأبناء ، مع أن الدين نفسه كان في الأيام الحالية يخيف الناس ويحذرهم من قلة النسل حتى تجد أرواحهم من يعنى بها بعد موتهم . وحل المهاجرون في المستعمرات محل الأسر القديمة ، فلما أن نقص عدد المهاجرين في أتكيا والهلوبونيز إلى أدنى حد قل عدد السكان كثيراً . ورأى

ورأى ذلك فليب الخامس فحرم تحديد عدد أفراد الأسر في مقلونية ، وزاد بذلك عدد الرجال بنسبة خمسين في المائة مما كانوا عليه قبل هذا الأمر (٣١) ؛ وفي وسعنا أن نستدل من هذا على مبلغ ما وصلت إليه عادة تحديد النسل حتى في مقلونية التي كانت لاتزال نصف بدائية ، وفي هذا المعنى يقول پولبيوس في عام ١٥٠ ق . م :

لقد سرت في جميع بلاد اليونان موجة من نقص المواليد ومن قلة السكان تبعاً لهذا النقص ، نشأ عنها أن أفقرت المدن من السكان وأجدبت الأرض فلم تعد تخرج ثمرها ... ذلك أن الناس قد انغمسوا في الترف والبخل والكسل ؛ فلم يعودوا يرغبون في الزواج ، أو في تربية الأبناء إذا تزوجوا ، وأقصى ما كانوا يسمحون به أن يكون لهم من الأبناء ولد أو ولدان حتى يظلوا يستمتعون برخاء العيش ، وحتى يربوا هؤلاء الأبناء ليتلقوا ما يتركون لهم من المال . واستبشرى هذا الفساد بسرعة وإن تكن غير ملحوظة ، وكان يحدث أحياناً أن يهلك أحد الولدين في الحرب وأن يقضى المرض على الولد الثاني ، فيكون مصير البيت الخراب ... وهكذا نضب معين المدن وحل بها الوهن شيئاً فشيئاً (٣٢) .

الفصل الرابع

الثورة في اسبارطة

وفي هذه الأثناء كان تركيز الثروة في أيدي عدد قليل من الأفراد يثير النزاع الأبدي بين الطبقات في جميع أنحاء اليونان . وكان من أثر هذا التركيز في اسبارطة أن بذلت محاولتان لإصلاح الحال بإحداث انقلاب تام في أحوال تلك المدينة . لقد استطاعت اسبارطة بفضل عزلتها بين الحواجز الجبلية أن تحافظ على استقلالها ، وأن تصد جيوش مقدونية ، وتهزم جيش بروس (٢٧٢) الضخم ببسالة أبنائها وشدة بأنهم . ولكن نهم الأقوياء أحدث في داخل البلاد من الخراب ما لم تقو جيوش الأعداء على إحداثه فيها من الخارج . فقد ألغى قانون ليقورغ الذي كان يمنع انتقال الأرض من أيدي ملاكها بالبيع أو تقسيمها بالوصية(*) ، واستخدم الاسبارطيون ما عاد عليهم من الثروة بطريق الإمبراطورية أو الحرب في شراء هذه الأراضي من أصحابها(٣٣) . وما وافت سنة ٢٤٤ حتى آلت أراضي لكونيا الزراعية التي تبلغ مساحتها ٧٠٠,٠٠٠ فدان إلى مائة أسرة لا أكثر(٣٤) ، وحتى لم يحتفظ بحقوق المواطنة إلا سبعائة رجل ، وحتى هؤلاء السبعائة لم يكونوا يطعمون مجتمعين كما كانوا يطعمون من قبل . ذلك أن الفقراء لم يستطيعوا تقديم قسطهم من الطعام ، وأن الأغنياء كانوا يفضلون ولائهم الخاصة . وحلت الفاقة بمعظم الأسر التي كانت من قبل تستمتع بالحقوق السياسية ، وأخذت تطالب بإلغاء الديون وإعادة توزيع الأراضي على الأهلين .

(*) ولعل سبب إلغائه أنه أدى إلى تحديد عدد أفراد الأسرة ؛ كما حدث في فرنسا الحديثة .

وكان من فضائل الملكية أن محاولة إصلاح هذه الحال قد قام بها ملوك اسبارطة . ذلك أن أجيس الرابع Agis IV وليونداس قد ارتقيا عرش المدينة المزدوج في عام ٢٤٢ . وأيقن أجيس أن ليقورغ كان يقصد أن تكون الأراضي موزعة بالتساوي بين جميع الأحرار فاقترح أن يشرع في توزيعها بينهم من جديد ، وأن تلغى جميع الديون ، وأن يعاد النظام شبه الشيوعى الذى وضعه ليقورغ . وأيد الملاك الذين كانت أرضهم مرتبة اقترح لإلغاء الديون ؛ فلما أن ووفق على المشروع عارضوا أشد المعارضة كل ما عداه من عناصر إصلاحات أجيس ؛ ثم اغتيل أجيس نفسه بتحريض ليونداس ، واغتيلت معه أمه وجدته ؛ وكانت كلتاها قد نزلت عن ضياعها طائفة مختارة لتوزع على أبناء الشعب . وكانت النساء أنبل الشخصيات في هذه المسرحية الملكية ؛ فقد كانت كلونيس Chilonis ابنة ليونداس زوجة كليبروتوس Cleombrotus الذى يؤيد أجيس . ولما نفي ليونداس واغتصب كليبروتوس الملك هجرت كلونيس زوجها الظافر لتشارك في النفي مع زوجها ، ولما أن استعاد ليونداس السلطة ونفى كليبروتوس ، آثرت كلونيس أن تنفى مع أبيها (٣٥) .

وأراد ليونداس أن يضم لأملاك أسرته ما كان لأرملة أجيس من ثروة طائلة ، فأرغمها على أن تزوج بابنه كليمنيس Cleomenes . ولكن كليمنيس هام بحب زوجته ، واستلهم منها آراء الملك القليل ؛ ولما أن اعتلى العرش باسم كليمنيس الثالث ، قرر أن ينفذ إصلاحات أجيس . واستطاع أن يضم الجيش إلى جانبه ببساطته في الحرب ، وأن يكسب تأييد الشعب ببساطة معيشته ، فلما تم له ذلك ألغى الأفورية الأبحرية بحجة أن ليقورغ لم يوافق عليها قط ، وقتل أربعة عشر من الذين عارضوا هذا الإلغاء ، ونفى منهم ثمانين ، وألغى جميع الديون ، ووزع الأراضي على الأهلين الأحرار ، وأعاد نظام ليقورغ إلى ما كان عليه من قبل . ولم يكتف بهذا ، بل شرع

يفتح البلوينيز أمام الثورة . ورحب به للصعاليك في كل مكان. ورأوا فيه منقذاً ومحرراً لهم ، واستسلمت له عدة مدن وهى فرجة مستبشرة ، فاستولى على أرجوس ، وپليني ، وفليوس Philius ، وإيلدورس ، وهرميوني Hermione ، وتريزين Troezen ؛ وحتى كورنثة الفتيحة استسلمت له هى الأخرى فى آخر الأمر . وانتشرت عدوى خطته هذه فى كل مكان : ففى بوثوشيا امتنع المدينون عن الوفاء بديونهم ، واستولت الدولة على الأموال لاسترضاء الفقراء ؛ وفى مجالوپوليس Megalopolis قام الفيلسوف سرسداس Cercidas يدعو الأغنياء أن يمدوا يد المعونة للفقراء قبل أن تطيح الثورة بجميع أموالهم^(٣٦) . ولما أن غزا كليمنيس أخيه Achaea وهزم أراطوس ، دب الرعب فى قلوب الطبقات العليا جميعها خوفاً على أملاكها، واستغاث أراطوس بمقلونية ولي نداءه أنتجونس دوسن Antigonus Doson ؛ وهزم كليمنيس فى سلاسيا Sellisia (٢٢١) ، وأعاد النظام الأجركى فى لسديمون . وفر كليمنيس إلى مصر ، وحاول دون جدوى أن يستعين ببطليموس الثالث ، كما حاول دون جدوى أن يدفع أهل الإسكندرية إلى الثورة ، فلما أخفق فى كلتا المحاولتين لم يجد بداً من الانتحار^(٣٧) .

وظلت حرب الطبقات مستعرة نارها، فخرج أهل اسپارطة على حكومتهم بعد جيل واحد من حكم كليمنيس ، وأقاموا دكتاتورية ثورية ، فما كان من قلوپيمين الذى خلف أراطوس فى رئاسة العصبة الآخية إلا أن غزا لكونيا ، وأعاد إليها حكم الملاك . وماكاد قلوپيمين ينصرم أجله حتى ثار الشعب مرة أخرى ، وأقام مكانه نابيس Nabis حاكماً بأمره (٢٠٧) . وكان نابيس هذا سورى الوطن ساعى الجنس، أخذ أسيراً فى الحرب ، وبيع عبداً فى مجالوپوليس . ولم يطلق صبراً على كفايته المقموعة فانتقم لنفسه بتنظيم ثورة بين الهيلوتين، ولما تم له الأمر منح المواطنة الاسپارطية لجميع الأحرار ، وقال للهيلوتين كونوا

أحراراً فكانوا . ولما وقف الأغنياء في وجهه صادر أملاكهم وقطع رؤوسهم . وانتشرت أنباء أعماله هذه في خارج اسبارطة : ووجد من أيسر الأمور أن يفتح بمعونة الطبقات الفقيرة مدائن أرجوس ، ومسينيا ، وإليس ، وبعض أركاديا . وكان أينما سار يؤمم المزارع الكبرى ، ويعيد توزيع الأراضي على الأهلين ، ويلغى الديون (٣٨) . ورأت عصابة الدول الآخية أنها عاجزة عن القضاء عليه فطلبت العون من رومة . ولجى فلامينيوس طلبه ، ولكن ناييس قاومه مقاومة عنيفة أرغمت الرومان على قبول هدنة رضى بمقتضاها ناييس أن يطلق سراح الأغنياء المسجونين ، ولكنه اشترط أن يظل محتفظاً لنفسه بالسلطة . وفي هذه الأثناء اغتال ناييس مغتالاً بتحريض عصابة الدول الإيتولية (١٩٢) (٣٩) . وبعد أربع سنين من ذلك الوقت زحف فلبومين مرة أخرى على اسبارطة ، وأعاد السلطة إلى الملاك ، وألغى أنظمة ليقورغ ، وباع ثلاثة آلاف من أتباع ناييس في أسواق الرقيق . وهكذا قضى على الثورة ، ولكن اسبارطة قضى عليها أيضاً ؛ نعم إن المدينة ظلت قائمة ، ولكنها لم يكن لها بعدئذ شأن في تاريخ بلاد اليونان .

الفصل الخامس

سيادة رودس

انتقلت التجارة ورؤوس الأموال من بلاد اليونان القارية وأخذت تبحث لها عن ملاحى جديدة فى جزائر بحر إيجه ، وذلك لأنها خشيت عنف الانقسامات الحزبية ، ولأن حركات السكان اجتذبتها إلى تلك الجزائر. فازدهرت ديلوس فى القرن الثانى ، وقد كانت من قبل موفورة الثراء بسبب وجود هيكل أبلوبها ؛ وأضحت ثغراً حراً تحت حماية رومة وإن كانت أثينة هى التى تصرف شئونها . وازدحت الجزيرة الصغيرة بالتجار الأجانب ، وبمكاتب رجال الأعمال وبالقصور ، والأكواخ ، والمياكل المختلفة التى أقيمت للآلهة الأجنبية .

وبلغت رودس غاية مجدها فى القرن الثالث ، وأضحت بإجماع الآراء أحمل مدائن هلاس وأعظمها حضارة . وقد وصف استرابون الثغر الكبير بأنه « يفوق سائر الثغور فى مرافئه ، وطرقه ، وأسواره ، وما أدخل عليه من الإصلاحات ، حتى لأعجز عن القول بأن مدينة أخرى تضارعه أو تكاد تضارعه (٤) » .

وكانت رودس ذات موقع طيب فى ملتقى الطرق التجارية التى تخترق البحر الأبيض المتوسط ، يمكنها من أن تقيد من التجارة الآخذة فى الانتشار والتى يسرت سبلها فتوح الإسكندر ، بين أوروبا ، ومصر ، وآسية ، ومن أجل هذا حلت مرافئ رودس الرحبة محل مرافئ صور وبيرية ، وأضحت المرافئ التى يعاد منها شحن البضائع ، كما أضحت مكان المقاصة التجارية والمالية والعاملة على تنظيمها فى شرق البحر . وكان لتجارها سمعة حسنة فى الأمانة . ولمصارفها ، وحكومتها شهرة طيبة فى الاستقرار ، وسط المكلة خيانة وتقلقل . وأفادت (٤ - قصة الحضارة ، ج ٣ ، مجلد ٢)

الجزيرة كثيراً من هذه السمعة الحسنة ، وكان لها عمارة بحرية قوية يسيرها ملاحون من مواطنيها ، استطاعت أن تظهر بحر إيجه من القراصنة ، وتؤمن السبل البحرية لجميع السفن التجارية لسائر الأمم على قدم المساواة ، وأن تضع قوانين ضالحة للملاحة تدل على عقلية ناضجة ، رضيت بها سائر السفن التجارية ، وظلت هذه القوانين هي المسيطرة على تجارة البحر الأبيض قروناً عدة ، ثم أصبحت جزءاً من القوانين التجارية لرومة والقسطنطينية والبندقية .

وبعد أن حررت رودس نفسها من سيطرة مقلونية بفضل مقاومتها الباسلة لدمتريوس پليوكريثيس (٣٠٥) ، وجهت سفينها السياسية توجيهاً ناجحاً وسط بحر السياسة المضطرب في ذلك العصر ، فاحتفظت بحيادها احتفاظاً حكيماً ولم تتورط في الحرب إلا لتحول بين ازدياد سلطان دولة معتدية يخشى بأسها ، أولت حفظ للبحار حريتها . وقد ضمت كثيراً من مدن بحر إيجه وألفت منها « عصابة جزرية » ، وكانت في ممارستها حقوق السيادة عليها عادلة إلى حد لم تشك أية وإجته منها فيما لها من حق الزعامة عليها . وكانت لها حكومة ذات نظام أرسقراطي على أساس ديمقراطي ، شبيهة بحكومة رومة في عصر الجمهورية ؛ وكانت تحكم مدائن لندس ، وكيروس Camirus ، وبالسوس lalysus ، ورودس مجتمعة بمهارة وعدل نسبي ، ومتحف المقيمين فيها من الأجانب من الامتيازات ما لم تمنحه أثينة من هاجر إليها من الغرباء ، وبسطت حمايتها على عدد كبير من الأرقاء ، ولما أن تعرضوا للخطر لم تردد في تسليحهم للدفاع عن أنفسهم ، وفرضت على أغنياء المدينة أن يعنوا بالفقراء من أهلها (١) . وكانت الدولة تواجه نفقاتها بفرض ضريبة مقبدارها اثنان في المائة على الصادرات والواردات ؛ وكانت تقرض المال بنسقاء ، ومن عر فائدة في بعض الأحيان ، إلى المدن إذا حلت بها الأزمات .

ولما أن حرب الزلزال رودس نفسها (٢٢٥) ، هب جميع العالم اليوناني لمعاونتها ، وذلك لأن اليونان على بكرة أبيهم كانوا يعتقدون أن اختفاءها من وسط بحر إيجه سيؤدى لامحالة إلى الفوضى التجارية والسياسية . فأرسل هيرون الثانى مثلاً مائة وزنة ذهبية (٣٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى) ، وأعاد فى المدينة نحت طائفة من التماثيل تمثل أهل رودس يتوجههم السرقوسيون ، وأرسل بطليموس الثالث ثلثمائة وزنة (*) ، وأنتجونس الثالث ثلاثة آلاف ، ومعها مقادير كبيرة من الخشب والقار لتستخدمها فى البناء ، وتبرعت زوجته الملكة كريسيس Chryseis بثلاثة آلاف وزنة من الرصاص ، وبما يعادل ثمانية وعشرين أردباً من الحبوب ، وبعث سلوقس الثالث بضعفى هذا القدر وبعشر سفن ذات خمسة صفوف من المجاديف كاملة العدة . « أما المدن التى قدمت كل منها ما يتناسب مع قدرتها المالية فهذه يخططها الحصر على حد قول پوليبوس (١٢) » . لقد كانت هذه الفترة « شكاة نيرة فى دياجير التاريخ السيامى المظلمة ، وكانت فرصة من الفرص القليلة النادرة إلى فكر فيها العالم اليوناني وعمل بدأ واحدة .

(*) كانت الوزنة اليونانية تزن نحو ثمانية وسبعين رطلاً مصرياً . (المترجم)

الباب الرابع والعشرون

الهلبية والشرق

الفصل الأول

الإمبراطورية السلوقية

إذا انتقلنا من أرض اليونان الأصلية مجتازين بحر إيجه إلى المستقرات اليونانية في آسية ومصر أذهشنا أن نجد فيها حياة جديدة مزدهرة ، وأدركنا أن العصر الهلنستي لم يشهد سقوط الحضارة اليونانية بل شهد انتشارها . ذلك أن طوائف في إثر طوائف من الجنود والمهاجرين اليونان أخذت تتدفق على آسية ، وزادت فتوح الإسكندر من ضخامة هذه الطوائف بما أتاحت للمغامرات اليونانية من فرص وما مهدت لها من سبل جديدة .

وكان سلوقس الملقب « نيكاتور » Nicator (المظفر) يمتاز من بين قواد الإسكندر بالشجاعة ، وقوة الخيال ، والكرم الذي لا حد له . وحسبك دليلا على هذا الكرم أنه وهب زوجته الثانية استرنتيس Stratonice الحسناء لابنه دمتريوس لما عرف أن الغلام قد افتتن بها . وغضب أنتيجونس الثاني حين جعلت بابل من نصيب سلوقس فزحف بجيوشه ليستولى على جميع بلاد الشرق الأدنى ، ولكن سلوقس وبطليموس هزماه عند غزة (٣١٢) . وكانت الأسرة السلوقية تعد هذه الحادثة مبدأ لتاريخ الإمبراطورية السلوقية والعصر الجديد ، وهي طريقة في التاريخ بقيت في غرب آسية إلى ظهور الإسلام . وضم سلوقس تحت لهائه عدة ممالك وثقافات قديمة هي عيلام ، وسومر ، وفارس ، وبابل ،

وأشور ، حوسوريا ، وفينيقية ، وشملت آسية الصغرى وفلسطين في بعض الأحيان ، وأنشأ في سلوقية وأنطاكية عاصمتين للملكه كانتا أعظم ثروة وأكثر سكاناً من أية مدن عرفناها في بلاد اليونان الأصايب . واختار لسلوقية موضعاً قرب موضع مدينة بابل القديمة التي شيدت فيه بغداد فيما بعد ، لا يبعد إلا قليلاً عن ملتقى نهر دجلة والفرات ، وكان هذا الموضع من أصلح المواضع لاجتذاب التجارة المتبادلة بين أرض الجزيرة والخليج الفارسي وما وراءه . ولم يكد يمضي عليها نصف قرن من الزمان حتى بلغ عامها ٦٠٠,٠٠٠ نفس ، كانوا خليطاً من مختلف أجناس آسية تسيطر عليهم أقلية يونانية(*) . وكان موقع أنطاكية على نهر العاصي شبيها بموقع سلوقية ، ولم تكن تبعد عن مصبه بعداً يحول دون وصول السفن المحيطية إليها ، ولكنها تبعد عنه بعداً يجعلها في مأمن من هجوم الأساطيل المعادية ، ويمكنها من استغلال حقول وادي النهر الغنية ، ومن اجتذاب تجارة البحر الأبيض المتوسط وشمال الجزيرة وسوريا . وفي هذه المدينة شاد الأباطرة السلوقيون المتأخرون قصورهم ، وظلت المدينة تنمو وتزدهر حتى صارت في عهد أنتيوخوس الرابع أغنى مدائن آسية السلوقية ، تزيئها المعابد والأروقة المعقدة ، ودور التمثيل ، وساحات الألعاب الرياضية ، والمدارس ، وحدائق الأزهار ، والشوارع الواسعة ذات المناظر الرائعة ، والبساتين الجميلة ومنها حديقة دفي Daphne التي طبقت الحافقين شهرة ما بها من أشجار الغار والسرو ، والقوارات والحداول . واغتيل سلوقس الأول في عام ٢٨١ ، بعد أن حكم البلاد حكماً صالحاً دام خمساً وثلاثين سنة كسب فيها قلوب شعبه . وأخذت دولته بعد موته في التفكك ،

(*) وقد استخرج الأستاذ لروي وترمان Leroy Waterman من هذا الموضع في عام ١٩٣١ ألواحاً تدل على أن رجلاً من أغنى رجال سلوقية قد ظل يهرب من أداء الضرائب خمساً وعشرين سنة (١) .

تمزقها الاختلافات الجغرافية والعنصرية ، والتنازع العنيف على العرش ،
وغارات البرابرة من كل صوب . واستبسل أنتيوخوس الأول سوتر Soter
(المنقذ) في حرب الغالين ؛ وعاش أنتيوخوس الثاني ثيوس (الإله) ، عيشة
الإدمان المستمر ، كأنه أراد أن يثبت مرة أخرى ما تتعرض له البلاد ذات
الحكومات الملكية المطلقة من خطر شديد ؛ وبدأت زوجته لأوديسى Laodice
سلسلة الدسائس والمؤامرات التي مزقت البيت المالك شر ممزق وقضت عليه
في آخر الأمر . وكان أنتيوخوس الثالث الأكبر رجلا عظيم الكفاية ، حسن
الثقافة ؛ ويظهره تمثاله النصفي المحفوظ في متحف اللوفر رجلا يونانيا -
مقدونيا جمع إلى شجاعة المقدونيين ذكاء اليونان . وقد استعاد بحروبه الطويلة
معظم الأقاليم التي فقدتها الإمبراطورية من أيام سلوقس الأول ، وأنشأ مكتبة
في أنطاكية وناصر الحركة الأدبية التي بلغت ذروتها على يدى مليجر الغزى
Meleager of Gaza في أواخر القرن الثاني . وحافظ هذا العاهل على العادة
اليونانية ، عادة استقلال المدن بشتونها ، وكتب إليها يقول إنه « إذا أمر
بشيء يخالف القوانين ، فعلها ألا تعير أمره التفاتا ، بل يجب أن تفترض أنه
فعل ما فعل عن جهل (٢) » . ولكنه قضت عليه المطامع المفرطة ، والخيال
القوى ، والعشق العنيف . وهزمه بطليموس الرابع عند رافيا Raphia في عام
٢١٧ ، وضاعت منه فينيقية ، وسوريا ، وفلسطين . وخفف من وقع هذه
المزيمة وأعقابها حملته المظفرة إلى بكتريا والهند (٢٠٨) ، وهى الحملة التي
جددت أعمال الإسكندر . وأغراه هنيبال بأن يساعده على رومة فأرسل جيشا
إلى عوبية ؛ وهام وهو فى سن الخمسين بحب فتاة حسناء فى خلقيس . وأخذ
يغازلها غزلا شريفا ، ثم تزوجها باحتفال عظيم ، ونسى الحرب وقضى فصل
الشتاء يستمتع معها بالسعادة (٣) . وهزمه الرومان فى ترمبيل ، وطردوه
إلى آسية الصغرى ، وهجموا عليه هجوما عنيفا فى مجنيزيا . ولم تطاوعه

نفسه على السكون فتوزط في حرب أخرى في بلاد الشرق مات في أثناءها بعد أن حكم ستة وثلاثين عاماً .

وكان ابنه سلوقس الرابع ميالا للسلم ، صرف شئون الدولة بالاقتصاد والحكمة ، واغتيل في عام ١٧٥ ق . م وكان أصغر ابنه في ذلك الوقت أركونا في أثينة ، حيث ذهب ليدرس الفلسفة . فلما سمع بموت سلوقس ، جمع جيشا زحف به على أنطاكية ، وخلع قاتل أبيه ، واعتلى العرش . وكان أنتيوخوس الرابع أجدر أفراد هذه الأسرة بالاهتمام وأكبرهم أخطاء ، ذلك أنه كان مزيجا نادرا من الذكاء والحنون ، والجاهلية ، وقد حكم مملكته حكما حازما رغم ما ارتكبه من مئات المظالم والسخافات . فقد أجاز لعماله أن يسيثوا استخدام سلطتهم ، وأطلق يد عشيقته في ثلاث مدن ؛ وكان كريما وقاسيا لا يعتمد في أحكامه على عقل ، يحكم ويصنع عن هوى ، ويفاجئ البسطاء من أفراد الشعب ، بالهدايا القيمة ، ويلقى بالنقود على رؤوس الجماهير في الشوارع كما يفعل الأطفال المنتشون . وكان يحب الخمر والنساء والفنون ؛ يفرط في الشراب ، ويقوم من مجلسه في الولاثم ليرقص عاريا مع أضيافه ، أو يتعاطى نفايات الطعام والشراب . وكان رجلا إباحيا شاءت الأقدار أن تحقق له ما كان يعلم به من سلطان . كان يحتقر وقار البلاط وزخرفته ، ويمزح مزاحاً عملياً مع كبار رجال الدولة ، ويتخفى ليستمتع بما يهيئه التخفى من الترف . وكان يسره أن يختلط بأفراد الشعب ليتعرف مايقولونه عن الملك ، وأن يتجول في أماكن الفنانين ليدرس أعمال الحفارين والصياغ ويناقشهم في التفاصيل الفنية لصناعتهم . وكان يشعر بحماسة صادقة للآداب والفنون والأفكار اليونانية . وبفضله ظلت أنطاكية مائة عام كاماة مركز الفنون في العالم اليوناني ؛ وكان يجود بالمال بسخاء على الفنانين لينحتوا التماثيل ويشيدوا المعابد في غير أنطاكية من مدن هلاس ، فأعاد تزيين ضريح أبلو في ديلوس ، وشاد دار تمثيل لتيجيا ، وتبرع بالأموال اللازمة لإتمام الأولمبيوم في أثينة . وإذا كان

قد قضى في رومة أربعة عشر عاما وهو في سن يكون فيها المرء سريع التأثر بما حوله ، فقد تشرب فيها بحب الأنظمة الجمهورية ؛ وكأنما أراد أن يستبق عهد أغسطس ، فكان يسره ويواثم مزاجه وسياسته أن يخلع على سلطته الملكية المطلقة ستاراً من الحرية الجمهورية . وكان أهم آثار هيامه بكل ما هو روماني أن أدخل ألعاب المجالدين في أنطاكية عاصمة ملكه . واستاء الشعب من هذه الألعاب الوحشية ، ولكن أنتيوخوس استرضاه بما أقام له من الاستعراضات الفخمة الرائعة وما أنفق عليها من أموال طائلة ؛ فلما أن ألف الشعب مظاهر التقتيل عد انحطاطه هذا نصراً له . وكان من مميزاته أنه بدأ حياته رواقياً شديداً التحمس للرواقية ، ثم اختتمها بعد أن تحول في غير عناء إلى الأبيقورية . وكان يستمتع بصفاته هذه استمتاعاً بلغ من قدره أن نقش على النقود التي ضربت في أيامه « أنتيوخوس الإله البتّين » *Antiochus Iheos Epiphanes* . ولما أن عدا طوره كما يفعل أمثاله من ذوى الخيال ، حاول في عام ١٦٩ أن يفتح مصر . وكاد يتم له ما أراد لولا أن أمرته رومة ، وكانت هي الأخرى تتطلع إلى الاستيلاء على مصر ، أن ينسحب من أرض إفريقية بأجمعها . وطلب أنتيوخوس أن يتاح له بعض الوقت ليفكر في أمره ، ولكن هوبليوس رسول رومة رسم في الرمل دائرة حول أنتيوخوس وأمره أن يقطع برأى قبل أن يجتاز محيطها . فاستسلم وهو غاضب ثائر ، ونهب هيكل أورشليم ليسترد ما أنفق في حملته من الأموال ، طلب المجد كما طلبه أبوه من قبل في شن الحرب على القبائل الشرقية ، ومات في فارس وهو في طريقه إلى هذه القبائل من الصرع والجنون والمرض^(٥) .

الفصل الثاني

الحضارة السلوقية

لقد كانت مهمة الدولة السلوقية في التاريخ أن تهب الشرق الأدنى الاستقرار الاقتصادي والنظام السياسي ، اللذين وهبتهما إياه فارس قبل الإسكندر ، واللذين أعادتهما إليه رومة بعد قبصر . ولقد أدت في واقع الأمر هذه المهمة رغم ما ينتاب أحوال البشر من حروب وثورات ونهب وفساد . ذلك أن الفتوح المقدونية قد حطمت ما أقامته الحكومات واللغات من حواجز بين الأمم ، ودعت الشرق والغرب إلى تبادل المصالح التجارية تبادلاً أتم مما كان بينهما من قبل ، وكانت نتيجة هذا أن بعثت الحياة في بلاد آسية اليونانية بعثاً باهراً جديداً . فبينما كان الانقسام والنزاع وجذب التربة وتحول الطرق التجارية يقضى على بلاد اليونان الأصلية ، كانت الوحدة والسلام اللتان احتفظ بهما الأباطرة السلوقيون ذواتي أثر عظيم في تشجيع الزراعة والتجارة والصناعة . ولم تعد مدن آسية اليونانية حرة في إشعال نار الثورات أو التجارب في أساليب الحكم ، بل أرغمها الملوك على أن تتألف ، حتى أصبح الائتلاف لها يعيد في هذه المدن (٦) ، وكانت نتيجة هذا أن ازدهرت من جديد مدن قديمة مثل ميليطس ، وإفسوس ، وأزمير .

وكانت أودية دجلة والفرات ، والأردن ، والعاصى ، وهيندر ، وهاليس ، وجيحون خضبة إلى حد لا يستطيع خيالنا أن يتصوره الآن لما يثقله من مناظر الصحارى ، والقفار الصخرية التي تغلظ أصقاعاً واسعة من بلاد الشرق الأدنى بعد أن ظلت ألى عام كاملة معرضة لعوامل التعرية ، ولتقطع الغابات وإهمال الأهليين حرثها وزرعها (٧) . وكانت الأرض في أيام تلك الإمبراطورية ترويه

شبكة من القنوات تشرف عليها الدولة وتعنى بأمرها . وكانت وقتئذ ملكا للملوك أو النبلاء من رجال حاشته ، أو للمدن ، أو الهياكل ، أو الأفراد . وكان الأقنان هم الذين يزرعونها في جميع هذه الأحوال وينقلون معها إذا ما أورثت أو بيعت . وكانت الحكومة تعد كل ما تحتويه الأرض من ثروة ملكا قوميا^(٨) ، لكنها قلما كانت تعنى باستغلالها . وقد بلغت الحرف وقتئذ ، والمدن نفسها ، درجة عظيمة من التخصص ؛ فكانت ميليطس مثلا مركزا هاما لصناعة النسيج ، وكانت أنطاكية تستورد المواد الغفل وتحيلها إلى بضائع مصنوعة ، وبلغت بعض المصانع الكبرى التي تستخدم العبيد درجة لا بأس بها من الإنتاج الكبير ترسله للأسواق العامة^(٩) . ولكن الاستهلاك المحلي لم يجار الإنتاج ، لأن فقر الأهليين لم يساعد على قيام أسواق محلية كبيرة تشجع الصناعات الكبرى .

وكانت التجارة حياة الاقتصاد الهلنستي ، فهي التي أوجدت الثروات الكبرى ، وشادت المدن العظيمة ، واستخدمت نسبة متزايدة من السكان الآخذين في الازدياد . وحل التعامل بالنقد في ذلك الوقت محل المقايضة التي ظلت أربعة قرون وسيلة للتعامل لم تقض عليها نقود كرويسس . لكنها وقتئذ كادت تختفي اختفاء تاما من تلك البلاد ؛ فقد أصحرت مصر ، ورودرس ، وسلوقية ، وبرجموم ، وغيرهما من الحكومات نقودا بلغت من الاستقرار والتشابه حدا يكتفى لتيسير التجارة الدولية . وكانت المصارف تيسر وسائل الائتمان الفردي والعام . وكانت السفن كبيرة تتراوح سرعتها بين أربعة أميال بحرية وستة أميال في الساعة ، وكان لها فضل تقصير المسافات بعد أن استطاعت السير في عرض البحار . وفي البر عنى السلوقيون بالطرق الكبرى التي ورثها بلاد الشرق عن فارس ، وأكثروا منها ، وزادوا في أطوالها . وكانت طرق القوافل الممتدة من أطراف آسية الصغرى تلتقي في سلوقية ثم تتفرع منها إلى دمشق ، وبريتس (بيروت) وأنطاكية . وأثرت سلوقية من هذه التجارة الواسعة ،

وعملت على إنمائها ، فقامت أحياء غاصبة بالسكان فيها وفي بابل : وصور ،
وطرسوس ، وزانثوس ، ورودس ، وهليكرنسس ، وميايطس ، وإفسوس ،
وأزمير ، وبرجوم ، وبزنطية ، وسزيكوس Cyzicus ، وأپاميا Apamea ،
وهرقلية ، وأمسوس Amisus ، وسينوب ، وبنتيكيوم Banticapacum ،
والبينا Albia ، ولسماكيا Lysimacheia ، وأبيدوس ، وثسلونيكيا (سلونيكيا) ،
وخقلقيس ، ودياوس ، وكورنثة ، وأبراشيا Ambracia ، وإيدامنوس Epidamnus
(درازو الحالية) ، وتراس ، ونپوليس Neapolis (ناپلي) برومة ، ومساليا ،
ولاهوريوم Emporium ، وبنورموس Banormus (پالمو) ، وسرقوسة ،
ويوتيكيا Uilca ، وقرطاجة ، وقوريني Cyrene والإسكندرية . وكانت شبكة
ناشطة من طرق التجارة ربط أسبانيا في عهد قرطاجة برومة ، وقرطاجة في
أيام هملكار وسرقوسة في عهد هيرون الثاني برومة أيام آل سيبو ، ومقدونية
في عهد الأنجنونيين ، وبلاد اليونان في عهد العصب المتحالفة ، ومصر في عهد
البطالة ، والشرق الأدنى في عهد السلوقيين ، والهند في عهد آل موريا Maurya
والصين في عهد أسرة هان . وكانت الطرق الآتية من بلاد الصين تخترق
التركيستان ، وبكتريا ، وفارس ، أو تجتاز بحر أرال والبحر الأسود وبحر
قزوين . أما الطرق الآتية من الهند فكانت تجتاز أفغانستان وفارس إلى سلوقية
أو تخترق بلاد العرب والبراء إلى أورشليم ودمشق ، أو تعبر المحيط الهندي إلى
أدانا (عدن) ثم تجتاز البحر الأحمر إلى أرسنوى (السويس الحالية) ، ومنها
إلى الإسكندرية . ومن أجل الإشراف على هذين الطريقين الآخرين اشتبكت
السلوقيون والبطالة في « الحروب السورية » التي أضعفتها جميعاً آخر الأمر
ضعفاً أخضعهما إلى رومة .

وورثت الملكية السلوقية التقاليد الآسيوية فكانت ملكية مطلقة ، لا تحد
من سلطتها جمعية شعبية . وقد نظم بلاط الملك على الطراز الشرق فكان فيه

رجال التشریفات ذوو الملابس المزركشة ، والخصبان ، والحلل الرسمية ،
والبحور والموسیقی ؛ ولم یبق فیہ شیء یونانی عدا الكلام والملابس الداخلية .
ولم یكن الأشراف فیها زعماء شبه مستقلین كما كانت الحال فی مقدونية وفی
أوربا فی العصور الوسطی ، بل كانوا موظفین لإداریین أو عسکریین بعینهم
الملوك . وهذا النظام الملكي هو الذی انتقل من بلاد الفرس عن طریق السلوقیین
والساثانیین إلى رومة فی عهد ذقلدیانوس ، وبیزنطیة فی عهد قسطنطین . وكان
السلوقيون یعرفون أن سلطاتهم فی هذا المحيط الأجنبی إنما یعتمد على ولاء
السكان یونان ، ولهذا بذلوا كل ما یستطیعون من جهد لإعادة المدن یونانیة
القديمة وإنشاء مدن أخرى جدیدة ؛ فأنشأ سلوقس الأول تسع مدن باسم
سلوقیة وستاً باسم أنطاکیة وخمساً باسم لأودینسیا ، وثلاثاً باسم آپامیا ، وواحدة
باسم استرتونیس Stratonice ، وحذا خلفاؤه حذوه بقدر ما وسعته جهودهم
التي كانت أقل من جهوده . ونمت هذه المدن وتضاعف عددها كما حدث فی
أمريكا فی القرن التاسع عشر .

وعن طریقهم أخذ غربی آسیة یصطبغ بالصبغة یونانیة بخطی سریعة فی.
ظاهر الأمر . ولا حاجة إلى القول بأن هذه العملية كانت قديمة العهد ، فقد
بدأت فی أيام الهجرة الكبرى ، وكان الانتشار الملهنسی من بعض نواحيه هو
نهضة آیونیا من جدید وعودة الحضارة یونانیة إلى مواطنها الآسیویة القديمة ،
ولقد كان یونان حتی قبل الإسكندر یشغلون مناصب رفیعة فی الإمبراطورية
الفارسیة ، كما كان التجار یونان ینیطرون على المسالك التجاریة فی الشرق
الأدنى القریب . أما الآن فإن الفرص السیاسیة والتجاریة والفنیة قد اجتذبت
سیلاً جارفاً من المهاجرین المغامرین ، والمستعمرین والكتبة ، والجند والتجار .
والأطباء ، والعلماء ، والسراری . وكان المثالون والحفارون یونان ینحتون
التماثل ینقشون النقود للملك فینیقیة ، ولیشیا ، وكاریا ، وصقلیة ، وبكتریا .

وهرعت الراقصات اليونانيات إلى الثغور الآسيوية (١٠) ، وغشى القباد الخلقى
البحنسى ستار يوناني ظريف ، وأثارت مدارس الألعاب الرياضية اليونانية
وساحاتها في بعض الشرقيين شغفاً لم يألوه من قبل بالألعاب والحمامات.
فأنشأت المدن طرقاً جديدة تملأها بالماء ونظماً جديدة لصرف الأقدار ، ورصفت
الطرق ونظفت . ونشطت المدارس ، ودور الكتب ، والتمثيل والقراءة
والأدب ، وكان طلاب العلم في الكليات والحمامات يطوفون بشوارع المدن
يحتاجون بعضهم بعضاً ، أو يحتاجون الناس كما كانوا يفعلون في العهد القديم ،
ولم يكن أحد يحسب من المثقفين إلا إذا كان يفهم اللغة اليونانية ، ويستطيع
الاستمتاع بمسرحيات مناندر ، ويورپديز . وكانت سيطرة الحضارة اليونانية
على بلاد الشرق الأدنى من أغرب الظواهر في التاريخ القديم ، ولم تر آسية
من قبل مثل هذا التبدل السريع الواسع المدى . غير أننا لانعرف من تفاصيله
وآثاره إلا النزر اليسير ، ذلك أن ما وصلنا من المعلومات عن آداب آسية
السلوقية ، وفلسفتها ، وعلومها نجد ضئيل ، وإذا لم نجد فيه إلا عدداً قليلاً
من الشخصيات الجبارة أمثال زينون الرواقى ، وسلوقس الفلكى ، وفي العهد
الرومانى مليجر الشاعر ، وبسديدس الذى كان يلم بكثير من العلوم المختلفة ،
إذا لم نجد إلا هذا العدد القليل فلما لانستطيع أن نجزم أنه لم يكن هناك كثيرون
غيرهم . والحق أن هذه الثقافة كانت ثقافة مزدهرة ، ذات ألوان متعددة ،
رقية مهيبة ، متحمسة ، لاتقل خصباً في الفنون عن أية ثقافة سبقها . ومبلغ
علمنا أنه لم توجد قبلها ثقافة تضارعها في سعة انتشارها وفي وحدتها المعقدة
بين ما كان يحيط بها من بينات متباينة . وقصارى القول أن غرب آسية ظل
مدى قرن من الزمان تابعاً لأوروبا ، وأن السبيل قد مهدت للسلام الرومانى
والتألف المسيحي الجامع الشامل .

ولكن هذا لايعنى أن الشرق قد غلب على أمره ، فقد كانت خصائصه
متأصلة فيه قديمة العهد ، ولم يكن من اليسير أن يسلم روحه إلى الغرب أياً كانت

قوته . لهذا ظلت حمرة الناس تتخاطب بلغاتها الوطنية ، ونجوى على سننها وأساليبها المألوفة من قديم الزمان ، وتعبد الآلهة التي كان يعبدها آباؤها وأجدادها ؛ وكان انغشاء اليوناني الذي يغطي البلاد البعيدة عن شواطئ البحر الأبيض المتوسط رقيةاً ، وكانت المراكز الهلنيتية القائمة في هذه الأصقاع أمثال سلوقية على نهر دجلة جزائر يونانية في البحر الشرقى . ولم تنزع في هذه الأصقاع الأجناس والثقافات الامتزاج الذي كان يحلم به الإسكندر ؛ بل كان من فوق سطحه يونان وحضارة يونانية ، من تحتهما خليط من الشعوب والثقافات الشرقية ، ولم تدخل الصفات الذهنية اليونانية في العقل الشرقى ؛ ولم تحدث ما امتاز به اليونان من نشاط وحب للجديد ، وحرص على الشؤون الدنيوية ، ورغبة شديدة في الكمال ، والتعبير عن الذات والتزعة الفردية القوية ، لم يحدث هذا كله تغييراً ما في أخلاق الشرقيين . بل حدث عكس هذا ، حدث على مر الأيام أن جاشت أساليب التفكير والإحساس الشرقية من أسفل وغمرت الطبقة اليونانية الحاكمة ، ثم نقلها هؤلاء إلى الغرب فكانت هي التي بدلت العالم « الوثني » . ففي بابل استعاد التاجر السامى ومصر في الهيكل الصابران سيطرتهما على الهلنى المتقلب الفرار ، فاحتفظا بالكتابة المسماية ، وأنزلت اللغة اليونانية إلى المكانة الثانية في عالم الأعمال ؛ وأفسد التنجيم ، والكيمياء الكاذبة ، فلك اليونان وعلومهم الطبيعية ، وأثبتت الملكية المطلقة الشرقية أنها أقوى من الديمقراطية اليونانية ، وانتهى الأمر بأن فرضت صورتها على الغرب نفسه ، فأصبح الملوك اليونان والأباطرة الرومان آلهة كما كانوا في بلاد الشرق ، وانتقلت نظرية حق الملوك المقدس التي كانت تسود بلاد الشرق إلى أوروبا الحديثة عن طريق رومة والقسطنطينية .

وبث الشرق عن طريق زينون نزعتة التجريدية والخبرية في الفلسفة اليونانية ، كما سرى تصوفه وتقواه من مثات السبل إلى الفراغ الذي تركه تدهور

الدين اليونانى السليم . وسرعان ما قبل اليونان آلهة الشرق ورأوا أنهم فى جوهرهم آلهتهم هم ؛ ولكن اليونانى لم يكن فى واقع الأمر يؤمن بالآلهة كما كان يؤمن بها الشرق ، ولهذا بقى الإله الشرق ومات الإله اليونانى ، فعادت أرتميس الإفيزية كما كانت إلهة شرقية للأمم ، ذات اثنى عشر ثديا ، واستسلم عدد عظيم من غزاة اليونان للطقوس الدينية البابلية ، والفينيقية ، والسورية . وقصارى القول أن اليونان عرضوا على الشرق الفلسفة ، وأن الشرق عرض على اليونان الدين ، كانت الغلبة للدين ، لأن الفلسفة كانت ترفا يقدم للأقلية الضئيلة ، أما الدين فكان سلوى للكثيرين . واستعاد الدين سلطانه فى هذا التبادل التاريخى المضطرب بين الإيمان والكفر ، والنزعة التصوفية والنزعة الطبيعية ؛ والدين والعلم ؛ وذلك لأن الدين أدرك ما ينطوى عليه الإنسان من ضعف وعزلة ، وبعث فيه الإلهام والشعر . وقد سر العالم الذى زالت عن أعينه غشاوة الخداع ، العالم المستقل ، الذى سُم الحروب ، سر هذا العالم أن يعود إليه الإيمان والأمل . وكانت أعمق فتوح الإسكندر أثراً نتيجة أبعد ما تكون عن العقول ، ألا وهى اصطباغ الروح الأوربية بالصبغة الشرقية .

الفصل الثالث

برجموم

لقد كان امتصاص آسية لليونان امتصاصاً تدريجياً شيئاً في ضعف قوة الدولة السلوقية ، ونشأة ممالك مستقلة على أطراف العالم الهلنستي . فقد أقامت منذ عام ٢٨٠ بلاد أرمينية ، وكپدوكيا ونيقس ، وبيثينيا ممالك مطلقة مستقلة ؛ ولم تلبث المدن اليونانية القائمة على شواطئ البحر الأسود أن خضعت لحكم الأسبوين . وانفصلت بكتريا ومجديانا من حكم السلوقيين حوالي عام ٢٥٠ ؛ وفي عام ٢٤٧ اغتال أرسيزيزعيم البارني Parni — وهي قبيلة إيرانية بدوية — حاكم بلاد الفرس السلوقي ، وأنشأ مملكة پارثيا التي قدر لها أن تنازع رومة سلطانها عدة قرون ؛ وفي عام ٢٨٢ استولى فلايتروس Philataerus على تسعة آلاف وزنة من الملك ، وكان لسمخوس Lysemachus قد ائتمنه عليها ، كما استولى على تل برجموم الحصين في آسية وأعلن استقلاله عن الدولة السلوقية . وضم ابن أخيه أمينز الأول Eumenes الأول إلى ملكة پيتاني Pitane وأترنيوس Atarneus وجعل برجموم مملكة مطلقة مستقلة ذات سيادة (٢٦٢) . وكان لأتلولس الأول Attalus فضل كبير على آسية اليونانية لأنه صد عنها الغاليين الذين اخترقوا هذه الأضيق حتى وصلوا إلى أسوار مدينته (٢٣٠) ؛ وواصل أمينز الثاني أكبر أبنائه حكم أبيه الحازم ، ولكنه أثار دهشة اليونان بأن استغاث برومة لتحمية من أنتيوخوس الثاني ؛ وبعد أن هزم بمعونتها أنتيوخوس عند مجنيزيا ترك له الرومان جميع بلاد آسية الصغرى تقريباً ، وخلفه على العرش أخوه أتلولس الثاني ، وكان يرتاب في مقدرة أبنائه على أن يحتفظوا بحرية برجموم ، فأوصى بملكه وهو على فراش الموت (١٣٩) إلى رومة .

وبذلت الدولة الصغيرة كل ما في وسعها لتكفر عما أحاط بمولدها ونشأتها من غدر وخيانة ، فأخذت تنافس الإسكندرية بوصفها مركزاً للعلم والفن ، فلم تنفق كل ما عاد عليها من خيرات المناجم ، والكروم ، وحقول الغلال ، ومن نسيج الصوف وصناعة رقائق الجلد والعطور ، والآجر والقرميد ، ومن سيطرتها على تجارة بحر إيجة ، تقول إنها لم تنفق كل ما عاد عليها من هذا في إنشاء جيش وأسطول قويين بل أنفقت جانباً كبيراً منه في تشجيع الأدب والفن ، ذلك أن ملوك برجموم كانوا يؤمنون بأن الحكم والأعمال التجارية والمالية الخاصة تستطيعان أن تنافسا تنافساً يوثق خير الثمرات ، وأن تقضيا على كثير من أسباب العجز والشره . فقد كان الملك يستخدم العبيد في زرع مساحات واسعة من الأرضين ، ويدير كثيراً من المصانع ، والمحاجر والمناجم ، وإن لم يكن ذلك بطريق الاحتكار . وبهذه الطريقة القذرة ازدادت الثروة وتضاعفت ، وأضحت برجموم حاضرة مزخرفة ، اشتهرت بمذبح زيوس ، وبقبة مسورها الفخمة ، وبمكتبتها الجامعة ، ودار تمثيلها العظيمة ، وربما كان فيها من ساحات رياضية وحمامات ، بل إن ما كان فيها من دورات مياه عامة لبشهادة بفتحيل إدارتها البلدية^(١١) . ولم تكن مكتبتها الجامعة يفوقها في عدد مجلداتها ، وفي شهرة علمائها الواسعة إلا مكتبة الإسكندرية وحدها ، وكان معرض صورها يحتوي على مجموعة عظيمة من الرسوم الملونة يتردد عليها الزائرون ليستمتعوا بنجالتها . وظلت برجموم خمسين عاماً أنصر زهرة في الحضارة الهلينية .

وكان بيت سلوقس في هذه الأثناء آخذاً في الاضمحلال والفناء . ذلك أن قيام الممالك المستقلة في أنحاء الإمبراطورية السلوقية كان يقتصر سلطان الملوك السلوقيين على سوريا وبلاد الجزيرة . وأخذت بارثيا وبرجموم ، ومصر ، ورومة تعمل جاهدة في صبر وأناة لإضعاف هذه الأسرة ، يساعدها على هذا

المدعون الذين كانوا يطالبون بعرش البلاد كلما انتقل هذا العرش من ملك إلى ملك، كما تساعدها الجزازات والانشقاق والحرب الأهلية . وبينما كان دمتریوس الأول يعيد القوة والنشاط للحكومة السلوقية ، إذ جيشت رومة في عام ١٥٣ جيشاً من مرتزقة الجند جاءت بهم من كافة الأنحاء لتأييد مغامر من أهل أزمير في مطالبته الباطلة بعرش البلاد . وانضمت برجموم ومصر في الهجوم على دمتریوس ، فقاوم هذا الملك جيوش أعدائه مقاومة الأبطال ، وخر صريعاً في ميدان القتال ، وآلت سلطة السلوقيين إلى يدي رجل حقير خامل يدعى ألكسندر بالاس Alexander Balas ، كان ألوبة في أيدي عشيقاته ورومة .

الفصل الرابع

الهلبية واليهود

يدور تاريخ بلاد اليهود في العصر الهلنستي حول نزاعين : الكفاح الخارجي بين آسية السلوقية ومصر البطالمة للاستيلاء على فلسطين ، والكفاح الداخلي بين أساليب الحياة الهلنية والعبرية . فأما الكفاح الأول فهو تاريخ ميت ، وفي وسعنا أن نفرغ منه في عبارات موجزة ، وأما الكفاح الثاني فهو في اعتقاد ماثيو آرنلد Mathew Arnold أحد الانشقاقات الخالدة التي طرأت على الأفكار والمشاعر البشرية . وكانت بلاد اليهود (أي فلسطين الواقعة جنوب السامرة) في التقسيم الأول لإمبراطورية الإسكندر من نصيب بطليموس ، ولكن السلوقيين لم يقبلوا قط هذا التقسيم لأنهم وجدوا أنفسهم بمقتضاه منفصلين عن البحر الأبيض المتوسط ، ولأنهم كانوا يطمعون فيما قد يعود عليهم من ثراء بسبب التجارة المارة بدهش وأورشليم . وانتصر بطليموس في الحروب التي ثارت بسبب هذا النزاع ، واستولى على بلاد اليهود وظلت خاضعة لسلطان البطالمة أكثر من مائة عام (٣١٨ - ١٩٨) ، كانت تؤدى في خلالها جزية سنوية مقدارها ثمانية آلاف وزنة ، ولكنها ازدهرت وعمها الرخاء رغم هذا العبء الثقيل . وقد ترك البطالمة لبلاد اليهود قسما كبيرا من الحكم الذاتي ، تحت سلطان كاهن أورشليم الأكبر والجمعية الوطنية الكبرى . وأضحت الحروب بين أوجلس الكبار ، التي أنشأها عزرا ونحميا قبل ذلك العهد بمائتي عام ، مجلس شيوخ ومحكمة عليا في وقت واحد . وكان أعضاؤها السبعون أو الأكثر من السبعين يختارون من بين رؤساء الأسر الشهيرة في البلاد ، ومن بين أكبر رجال العلم (السفريم Soferim) . وقد ظلت قرارات هذه الجمعية المعروفة

باسم « الدبرسفریم » Dibre Soferim أساس الدين اليهودى العام من العصر
المهلنسى إلى العصر الحديث .

وكان أساس اليهودية هو الدين : كما كانت فكرة وجود إله قادر تسيطر
على كل ناحية من نواحي الحياة اليهودية وكل لحظة من لحظاتها . وكان مجلس
الكبراء يفرض القوانين الأخلاقية والآداب الاجتماعية بجميع دقائقها . ويشرف
على تنفيذها إشرافاً تاماً . وكانت أسباب اللهو والتسلية والألعاب قليلة محدودة ،
وكان الزواج بغير اليهود محرماً ، وكذلك العزوبة وقتل الأطفال . ومن ثم كان
اليهود يلدون كثيراً ويربون جميع أبنائهم ، وظلوا طوال العصور القديمة
يتكاثرون رغم الحروب والمجاعات حتى بلغ عددهم في الإمبراطورية الرومانية
أيام قبصر سبعة ملايين . وكان معظم السكان قبل العهد المقدونى يشتغلون
بالزراعة ، لأن اليهود لم يكونوا قد أصبحوا بعض أمة من التجار . وقد
كتب عنهم يوسيفوس Josephus في ذلك العهد المتأخر ، وهو القرن الأول
بعد الميلاد ، يقول : « لسنا شعباً تجارياً (١٣) » . أما الشعوب التجارية العظيمة
في ذلك العصر فهي الفينيقيون والعرب واليونان . وكان الرق موجوداً في بلاد
اليهود كما كان في غيره من الأقطار ، غير أن حرب الطبقات كانت هادئة
نسبياً . ولم يكن للفنون عندهم شأن عدا الموسيقى فقد كانت راقية مزدهرة .
وكان الناي والطبل ، والصنوج و « قرن الكباش » أو البوق . والقيثارة ،
تستخدم مصاحبة للصوت الواحد ، أو للأغاني الشعبية ، أو الترانيم الدينية .
وكان الدين اليهودى يعين على الطقوس اليونانية استرسالها في الخضوع لخيال
الشعب ويزدريها لهذا السبب ؛ وكانت الصلة مقطوعة بينه وبين الصور ،
والنبوءات ، ومعرفة الغيب بالنظر في أحشاء الطير ؛ وكان أقل تبسيداً ،
وتخريفاً ، وأقل بهرجة ومرحاً من دين اليونان . وكان الربانيون يواجهون
طقوس الشرك الهلنية بإنشاد هذه النعمة التي لا تزال تتردد حتى اليوم في كل
كنيس يهودى : « استمعى يا إسرائيل : الرب إلهنا ، الرب واحد » .

وأدخل الغزاة اليونان في هذه الحياة البسيطة المترتبة كل بما في الحضارة
المهذبة الأبيقورية من أسباب اللهو والغواية . وقد كان يحيط ببلاد اليهود حلقة
من المستقرات والمدن اليونانية : السامرة ، ونيوبوليس ، وغزة ، وعسقلان ،
وأزوتس Azotus (أشروذ) وجبا Joppa (باثا) ، وأبولونيا Appollonia ،
ودوريس Dorisa ، وسكينا Sycamina ، وپوليس Polis (حيفا) وأكو (عكا) .
وكان على الضفة الأخرى من نهر الأردن عصابة من عشر مدن يونانية : هي دمشق ،
وجدارا Gadara ، وجراسا Gerasa ، وديوم Dium ، وفلدلفيا ، وپلا Pella ،
ورافيا Raphia ، وھپو Hippo ، واسكيثو پوليس Scythopolis ، وكنيثا Canetha .
وكانت تقوم في كل واحدة من هذه المدن نظم ومؤسسات يونانية وھياكل
للآلهة والإلهات اليونانية ، ومدارس ، ومجامع علمية ، ومدارس وساحات
للألعاب الرياضية ، وألعاب يشترك فيها الناس وهم عراة . وأقبل على أورشليم
من هذه المدن ومن الإسكندرية ، وأنطاكية ، وديلوس ، ورودس يونانك
ويهود يحملون العدوى الهلينية ، عدوى التبخر في العلم والفلسفة ، والفن ،
والأدب ، والاستمتاع بالجمال واللذة ، والغناء ، والرقص ، والشراب ،
والطعام ، والألعاب الرياضية ، والعشيقات ، والغلمان ؛ فضلا عن السفسة
المرحة ، التي ترتاب في جميع القوانين الأخلاقية ، والتشكك الذي قضى على
كل عقيدة في خوارق الطبيعة . وهل يستطيع الشاب اليهودي أن يقاوم
هذه المغريات ، التي تدعوه إلى الاستمتاع باللذة وإلى التحرر من آلاف
القيود الضيقة الثقيلة ؟ لقد بدأ الشبان اليهود الفكهون يسخرون من الكهنة
ويصفونهم بأنهم طلاب مال ، كما يصفون الأتقياء من أتباعهم بأنهم حمقى ،
ينتحلون إلى الشيخوخة من غير أن يعرفوا الملاذ والترف ومباهج الحياة .
وانضم إليهم في هذا أغنياء اليهود ، لأنهم كانوا يستطيعون أن يستجيبوا لداعى
الغواية . وأحس اليهود الذين كانوا يطلبون المناصب من الموظفين اليونان بأن من

حسن السياسة أن يتكلموا اللغة اليونانية ، وأن يعيشوا كما يعيش اليونان ، بل أن يقولوا بضع كلمات طيبة في حق الآلهة اليونانية .

وكانت ثلاث قوى تسمى اليهود من هذا الهجوم القوي على عقولهم وحواسهم : هي ما وقع عليهم من الاضطهاد أيام أنتيوخوس الرابع ، وحماية رومة ، وسلطان القانون وهيئته لأنه كان في اعتماد اليهود وحيا منزلا من عند الله . وتجمع الأتقياء من اليهود ، كما تتجمع الكرات البيضاء في الدم لحماية الجسم من جراثيم الأمراض ، وألفوا هيئة من الصفوة المختارة أطلقوا عليها اسم « المتقين » . وبدأت هذه الجماعة (حوالي عام ٣٠٠ ق . م) بعهد بسيط . قيلوا به أنفسهم أن يمتنعوا عن شرب الخمر زمنا معينا ؛ ثم ذهبوا فيما بعد مدفوعين بسيكولوجية الحرب المحتومة إلى أبعد حدود التزمت ، فحرموا جميع الملاذ وعدوها استسلاما للشيطان واليونان . وعجب منهم اليونان أشد العجب وضموهم إلى زمرة الفلاسفة الزاهدين العرايا العجيين الذين التفت بهم جيوش الإسكندر في بلاد الهند . وحتى اليهودي العادي نفسه كان يعارض في تزمت جماعة المتقين الشديد ويبحث لنفسه عن خطة وسطى بين التزمت والإباحة ، ولعله هو وأمثاله كان يستطيع أن يجد هذا الحل الوسط لولا أن أنتيوخوس لإفانيز حاول أن يقحم الهلنية في بلاد اليهود بالإقناع تارة وبالسيف تارة أخرى .

وظلت بلاد اليهود تابعة لمصر حتى عام ١٩٨ حين هزم أنتيوخوس الثالث بطليموس الخامس وضمها إلى الإمبراطورية السلوقية . وكان اليهود قد ملوا حكم المصريين فأعانوا أنتيوخوس ورجعوا باستيلائه على أورشليم وتحريرهم من حكمهم ؛ ولكن خلفه أنتيوخوس الرابع لم يرفى بلاد اليهود إلا أنها مصدر للإيراد ، وكان وقتئذ يستعد لحروب عوان تتطلب الكثير من الأموال ، فأمر اليهود أن يؤدوا إلى خزانة الدولة ثلث محصولاتهم من الحبوب ، ونصف ما تثمره أشجار الفاكهة (١٤) . ثم عين جيسن المعروف بتلله وملكه حاكما

أكبر ، وتجاهل في هذا التعيين ما جرت به العادة من توارث هذا المنصب الدينى . وكان جيسن هذا يمثل الحزب القائم في أورشليم والذي ينادى بفرض الثقافة الهلنكية على بلاد اليهود ، ويطلب الإذن بإقامة النظم اليونانية في تلك البلاد . وأصغى أنتيوخوس إلى مطالبه وهو فرح مستبشر لأن اختلاف الطقوس الدينية الشرقية في بلاد آسية اليونانية وقوة هذه الطقوس كانا يقلقان باله إذ كان يحلم بتوحيد إمبراطوريته المتعددة اللغات والأجناس بإخضاعها كلها لشريعة واحدة وعقيدة واحدة . ولما أن أبطأ جيسن في العمل للوصول إلى هذه الغاية عين أنتيوخوس بدلا منه منلوس ، بعد أن وعده بأكثر مما وعده به سلفه ونفحه برشوة أكبر (١٥) . وتوحد يهوه وزيوس على يدى منلوس ، وبيعت آنية المعابد للحصول على المال ، وقربت بعض الجماعات اليهودية القرايين إلى الآلهة الهلنكية . وافتتحت في أورشليم مدرسة للرياضة البدنية ، واشترك شباب اليهود والكهنة أنفسهم وهم عراة في الألعاب الرياضية . وبلغ من تخمس بعض شبان اليهود للهلنية أن تحملوا جراحات في أجسامهم ليعالجوا بها بعض العيوب التي قد تكشف عن أصلهم (١٦) .

وارتفعت كثرة الشعب اليهودى من هذه التطورات وأحست أن دينها يكاد ينهار من أساسه ، فانحازت إلى آراء المتقين ؛ ولما أن طرد پوپليوس (١٦٥) أنتيوخوس الرابع من مصر ، شاع في أورشليم أنه قتل ، فاعتبط اليهود بالنبأ ، وتخلعوا الموظفين المعينين عليهم من قبله ، وقتلوا زعماء الحزب الذى كان يدعو إلى الثقافة الهلنكية ، وطهروا الهيكل مما كانوا يرونه منكراً أو كفراً . لكن أنتيوخوس لم يكن قد مات ، بل هزم وذل وأصبح فقيراً معلماً ؛ وقد أيقن أن اليهود كانوا سبباً في هزيمته في مصر وأنهم كانوا ياتمرون ليعملوا بلادهم إلى البطالة (١٧) ، فعاد إلى أورشليم وذبح آلافاً من اليهود رجالهم ونسائهم ، ودنس الهيكل ونهبه ، وصادر منبجه الذهبى وآنيته وكنوزه وضمها إلى الخزان الملكية ، وأعاد إلى منلوس سلطته العليا ، وأمر أن يثقف اليهود كلهم

على الرغم منهم بالفتاة الهلنية (١٦٧) ، وأن يعود الهيكل كما كان ضريحاً مقدساً لزيوس ، وأن يقام مذبح يوناني فوق المذبح القديم ، وأن يستبدل بالقرابين القديمة قربان من الخنازير . ثم حرم تقديس السبت والاحتفال بالأعياد اليهودية ، وجعل الختان جريمة يعاقب عليها بالإعدام ، وحرمت جميع مراسم الدين اليهودي في جميع أنحاء بلاد اليهود ، وألزم الأهلون باتباع المراسم اليونانية ، وعوقب من يخالف هذه الأوامر بالإعدام . وكان كل من يأبى من اليهود أن يأكل لحم الخنزير وكل من يوجد عنده كتاب الشريعة يشجن أو يقتل ، وأمر أن يحرق هذا الكتاب أتي وجد (١٨) . وأشعلت النار في أورشليم نسيها ، وهدمت أسوارها ، وبيع سكانها اليهود في أسواق الرقيق ، وجرى بالأجانب ليقبضوا في مواضعها ، وشيد حصن جديد على جبل صهيون ، ووضعت فيه حامية من الجند لتحكم المدينة باسم الملك (١٩) . ويبدو أن أنتيوخوس سعى في بعض الأوقات لأن يجعل نفسه إلهاً ، وأنه طلب إلى الناس أن يتخلوه إلهاً يعبدونه (٢٠) .

وزاد الاضطهاد شدة على مر الزمن . ذلك أنه يوجد دائماً في كل مجتمع أقلية فطرت على الابتهاج إذا أذن لها بالاضطهاد ، لأنها ترى في هذا الاضطهاد انطلاقا من قيود الحضارة . وكان عملاء أنتيوخوس من هذه الأقلية ، فإنهم بعد أن قضوا على جميع مظاهر اليهودية في أورشليم انطلقوا لفتح البلاد يبحثون عن هذه المظاهر في المدن والقرى ، وكانوا أينما حلوا يخربون الأهلين بين الموت والاشتراك في العبادات الهلنية زماً بتضمنته من أكل لحم الخنازير المذبوحة على النصب (٢١) . وأغابقت جميع الهياكل والمدارس اليهودية ، وعُد جميع من يأبون الاشتغال في يوم السبت عصاة خارجين على القانون . وأرغم اليهود في عيد بانخوس أن يزينوا باللبات كالليونان أنفسهم ، وأن يشركوا في المواكب ، وأن ينشدوا الأناشيد الحمجية تكريماً لديونيش . وضدغ الكثيرون من اليهود بما أمروا به ، وتزقبوا أن تمر بالعاصفة ، وفر كثيرون غيرهم إلى

الكهوف أو المعازل الجبلية الثانية : وعاشوا على ما يمتطوئته: تحلصة من الحقول ، وثبتوا على ممارسة أساليب الحياة اليهودية . وأخذ « المتقون » يطوفون بهم يدعرونهم إلى الشجاعة والمقاومة . وعثرت شرذمة من جنود الملك على كهوف آوى إليها آلاف من اليهود — رجال ونساء وأطفال — فأمرهم بالخروج ؛ فلما عصوا أمر الجنود وأبوا كذلك أن يزيلوا ماعساه أن يكون في مداخل الكهوف من الحجارة ، لأن اليوم كان يوم السبت ، أعمل فيهم الجنود النار والسيف ، وقتلوا كثيرين من اللاجئين ، واختفى الباقيون بالدخان (٢٢) . وفي المدن قبض على النساء اللاتي ختن من ولدن حديثا من الأطفال وألقين من وأطفالهن من فوق الأسوار (٢٣) . وما كان أشد دهشة اليونان من استمسك الأهليين بدينهم القديم ، ذلك أنهم لم يروا من عدة قرون مثل هذا الإخلاص للرأى والاستمسك بالعقيدة . وكانت قصص الاستشهاد تتناقلها الألسن وتتلأ بها الكتب ؛ فضربت للمسيحيين أمثلة صادقة في الاستشهاد والشهداء . وهكذا أضحت اليهودية ديناً وقومية وثبتت قواعدها وتأصلت جلورها وآثرت العزلة لتحتمى بها من أعدائها .

وكان من بين اليهود الذين فروا وقتلوا من أورشلين ماثياس Mattathias من أسرة هزمو ناي Hasmoni من سبط هارون — وأبنائه الخمسة يوهنان كاديس ، وسيمون ، وبوداس ، والزر ، ويوناثان . ولما أقبل أبلز عامل أنتيوخوس إلى مدين Modin التي لجأ إليها هؤلاء الستة ، أمر أهلها أن يرحلوا . « الشريعة » ويقربوا لزيرس . وجاء ماثياس الشيخ ومعه أبنائه الخمسة وقال : « لو أن جميع سحان المملكة أطاعوا أمركم بالمروق من دين أبائهم لبقيت أنا وأولادى الخمسة مستمسكين بعهد آبائنا الأولين » . ولما ان اقرب أحد اليهود من المذبح ليقرب القربان المطلوب ذبحه ماثياس بيده وذبح أيضا مندوب الملك . ثم نادى في الشعب قائلاً : « من كان يغار على الشريعة ، وأراد

أن يؤيد العهد فليتبغى (٢٤) . فسار وراءه هو وأبنائه كثيرون من القرويين حتى وصلوا إلى جبل إفرام . حيث انضمت إليهم جماعة صغيرة من الشبان الثائرين ومن كان باقيا على قيد الحياة من « المتقين » .

وبعد قليل من هذا الحادث توفي متاثياس بعد أن أوصى بأن يرأس أتباعه من بعده ابنه بوداس المعروف باسم مكابي (*). وكان بوداس هذا رجل حرب أوتي من الشجاعة مثل ما أوتي من التقوى . وكان من عادته قبل أن يخوض أية معركة أن يصلي كما يصلي الأولياء المطهرون ، حتى إذا خاض غمارها « كان كالأسد في سورته » . وكان جيشه الصغير « يعيش في الجبال كما تعيش الوحوش ، ويقطات بالأعشاب » . ثم ينقض من حين إلى حين على إحدى القرى المجاورة ويقتل المارقين ويهدم مذابح الوثنيين ؛ وإذا وجدوا أطفالا لم يمتحنوا أجروا لهم عملية الاختتان بشجاعة (٢٥) . ونقلت هذه الأنباء إلى أنتيوخوس فسير عليهم جيشاً من السوريين اليونان وأمره أن يهدم حصن المكابيين . والتقى بهم بوداس في ممر إيموس Emmaus وانتصر عليهم نصراً مؤزراً (١٦٦) ، مع أن اليونان كانوا من الجنود المرتقة المدربين أحسن تدريب والمسلحين أتم تسليح . بينما كانت فرقة بوداس يعوزها الكثير من السلاح والثياب . وسير أنتيوخوس عليهم قوة أخرى أكبر من القوة السابقة بلغ من ثقة قائدها بالنصر أن جاء معه بالنخاسين ليعتاعوا من كان ينتظر أسرهم من اليهود ، ووضع في المدن لوحات بما يطلب فيهم من الأثمان (٢٦) . وهزم بوداس هذا الجيش في مزراح ، وكانت الهزيمة حاسمة سقطت على إثرها أورشليم في قبضته دون مقاومة ؛ فلما دخلها أخرج ما كان في الهيكل من مذابح وزينات وثنية وطهره ودشنه من جديد . وأعاد الصلوات القديمة إلى سابق عهدها وسبط مظاهر الابتهاج من اليهود العائدين المستمسكين بالدين (***) (١٦٤) .

(*) يفسر هذا اللفظ عادة « بالمطرقة » وإن كان هذا التفسير غير موثوق بصحته .

(**) لا تزال ذكرى هذا المولد الجديد من الأعياد التي يحتفل بها في كل بيت

يهودي تقريباً .

ولما تقدم ليسياس Lysias نائب الملك بجيش جديد ليسترد به العاصمة ،
شاع بين الجند أن أنتيوخوس قد مات - وكانت هذه الشائعة صادقة في هذه
المرّة (١٦٣) . وأراد ليسياس أن يكون حرا في العمل في غير هذا الميدان
فعرض على اليهود أن يترك لهم حريتهم الدينية الكاملة إذا ما ألقوا السلاح ؛
فرضى بذلك «المتقون» ورفضه المكابيون ، وأعلن بوداس أن بلاد اليهود لا تأمن
على نفسها من الاضطهاد إلا إذا نالت استقلالها السياسي والديني جميعا . وسكر
المكابيون بخمرة النصر فلبثوا هم أنفسهم يضطهدون أعداءهم ، وينتقمون
من الحزب المشايخ لليونان في اورشليم وفي المدن المجاورة للحدود (٣٧) ، وفي
عام ١٦١ هزم بوداس نكانور Nicanor عند أداسا Adasa وقوى نفسه بأن عقد
حلفا مع رومة ، ولكنه قتل في تلك السنة نفسها وهو يحارب جيشاً أقوى من
جيشه عند إلّاسا Elasa وواصل أخوه يوناثان الحرب بشجاعة عظيمة ولكنه
قتل هو الآخر عند عكا (١٤٣) . ولم يبق بعدئذ من الإخوة الخمسة إلا
سيمون ، وقد استطاع بمعونة رومة أن ينال من دميريوس الثاني في عام ١٤٢
اعترافا باستقلال بلاد اليهود . وعين سيمون بمرسوم شعبي حاخاما أكبر وقائدا
عسكريا ، وإذا كان هذان المنصبان قد أصبحا وراثيين في هذه الأسرة فقد
أضحى هو مؤسس الأسرة المالكة الهزمونية Hasmonean ، وعدت أول سني
حكمه بداية التاريخ الجديد ، وصدرت عملة تعلن مولد الدولة اليهودية الجديدة

الباب الخامس والعشرون

مصر والغرب

الفصل الأول

سجل الملوك

كانت أصغر أجزاء تركة الإسكندر وأغناها من نصيب أقدر قواده وأعظمهم حكمة . وقد برهن بطليموس بن لاجوس على ولائه العظيم للملك المتوفى - ولعله أراد أن يدعم سلطانه بهذا الولاء - بأن نقل جثته إلى منفيس وأمر أن تودع تابوتاً من الذهب (*) وجاء معه أيضاً بتايس Thais التي كانت عشيقة الإسكندر في بعض الأوقات ، وتزوجها ورزق منها بولدين . وقد كان بطليموس هذا جندياً بسيطاً ، صريحاً ، خشن الطباع ، قادراً على الإحساس الكريم والتفكير الواقعي . وبينما كان غيره من ورثة ملك الإسكندر يقضون نصف حياتهم في الحروب ، ويحلمون بأن تكون لكل منهم دون غيره السيادة على هذا الملك ، بذل بطليموس جهوده كلها في تدعيم مركزه في البلد الأجنبي الذي كان من نصيبه ، وفي ترقية زراعته وتجارته وصناعته . وأنشأ لذلك أسطولا عظيماً وأمن مصر من الغزو البحري كما أمنتها الطبيعة من الغزو البري ، وجعلتها من هذه الناحية أمتع من عقاب الجو . وساعد رودس وعصب المدن المتحالفة على الاستقلال عن مقدونية ، ومن أجل هذا سمي «سوتر Soter» . ولم يلقب نفسه ملكاً إلا بعد ثمانية عشر عاماً من العمل الشاق دعم في خلالها

(*) وقد أمر بطليموس فلدلفس أن ينقل التابوت إلى الإسكندرية ، وأذاب بطليموس هذا الذهب لينتفع به وعرض جثة الإسكندر في تابوت من الزجاج .

حياة مملكته الجديدة من النواحي السياسية والاقتصادية ، وأقامها على نظام ثابت متين (٣٠٥) . وكانت نتيجة جهود خلفه أن بسطت مصر حكمها على قورينة ، وكريت ، وجزائر سكليز ، وقبرص ، وعلى سوريا ، وفلسطين ، وفيليقية وساموس ، ولسبوس ، وسمثريس ، والهلسنت . وقد وجد في شيخوخته متسعاً من الوقت يكتب فيه شروحاً وتعليقات صادقة صدقاً مدهشاً على حروبه ، وأن ينشئ حوالى عام ٢٩٠ دار العاديات والمكتبة اللتين قامت عليهما شهرة الإسكندرية . ولما بلغ الثانية والثمانين من عمره وأحس بضعف الشيخوخة أجلس ابنه الثانى بطليموس فلدفن مكانه على العرش وأسلمه زمام الحكم ، واتخذ مكانه كأحد الرعايا فى بلاط الملك الشاب . ومات بعد عامين من ذلك الوقت .

وكان وادى النيل الحصيب وبذاله قد ملأ خزائن الملك بالمال . وحسبنا دليلاً على هذا أن بطليموس الأول حين أراد أن يولم وليمة لأصدقائه اضطر إلى أن يقترض آتيهم الفضية وطنافسهم ، أما بطليموس الثانى فقد أنفق فى آخر حفلات تنويجه ما قيمته ٢,٥٠٠,٠٠٠ ريال أمريكى (٢) . واعتنى الملك المصرى الحديد فلسفة قورينة واعزم أن يستمتع بكل ما تتيحه له الساعة التى هو فيها من لذة . فكان يتخيم معدته بشهى الطعام ، وجرب كثيراً من العشيقات ، وأقصى عنه زوجته ، وترزج آخر الأمر بأخته أرسينوى (٣) Arsinoë . وحكمت الملكة الجديدة الإمبراطورية وصرفت شئونها الحربية بينما كان بطليموس الثانى يحكم بين طهاته وعلماء بلاطه . وحلوا حوائيه وزاد عليه بأن استقدم إلى الإسكندرية مشهورى الشعراء ، والعلماء ، والنقاد ، والمتبحرين فى العلوم الطبيعية والفلسفة ، والفنانين ، واستضافهم عنده ؛ وزين عاصمته بالمباني الفخمة على الطراز اليونانى حتى صارت الإسكندرية فى أثناء حكمه الطويل عاصمة بلاد البحر الأبيض المتوسط الأدبية والعلمية ، وازدهرت آدابها ازدهاراً لم تر مثله مرة (٦ - قصة الحضارة - ج ٣ ، ملة ٢)

أخرى . لكن فلذلفس لم يكن مع هذا كله سعيداً في شيخوخته . فقد اشتد عليه داء النقرس ، وزادت متاعبه بازدياد ثروته وسلطانه . وأطل مرة من نافذة قصره فأبصر متسولاً يرقد مستريحاً في الشمس على كتيبان الميناء الرملية ، فحسد الرجل على نعمته ، وقال متحسراً : « وا أسفاه ! ليتني ولدت واحداً من هؤلاء » (١) . وساوره خوف الموت ، فطلب إلى الكهنة المصريين أن يدلوه على إكسير الخلود السحري (٢) .

ووسع المتحف والمكتبة وأنفق عليهما من المال ما يجعل المؤرخين الذين جاءوا بعده يقولون إنه هو الذي أنشأهما . وكان دمتريوس فليرم قد بدأ إلى مصر في عام ٣٠٧ بعد أن طرد من أثينة ، فلإذا نحن نجده بعد عشر سنين من ذلك الوقت في بلاط بطليموس الأول ، ويلوح أنه هو الذي أوحى إلى بطليموس سوتر أن عاصمة ملكه وأسرته تليح شهرتهما إذا أنشأ متحفاً (أى بيتاً لزبات الفنون والعلوم Muses) (٣) يضارع جامعات أثينة . وأكبر الظن أن دمتريوس قد ألهم نشاط أرسطو في جمع الكتب ، وضروب المعرفة ، وأنواع الحيوان ، والنبات ، ودساتير الحكيم ، وتصنيف ما جمعه منها ، فأشار على ما يظهر بأن تقام طائفة من المباني لا تتسع لإيواء مجموعة عظيمة من الكتب فحسب ، بل تتسع فوق ذلك لإيواء العلماء الذين يقضون حياتهم في البحث العلمي . واقنع بطليموس الأول والثاني بهذه الفكرة ، فأمداه بالمال ، وقامت الجامعة الجديدة على مهل بالقرب من القصور الملكية . وكانت تحتوى على ردهة عامة يلوح أن العلماء كانوا يتناولون فيها الطعام ، وقاعة للمحاضرات ، و بهواً ، ورواقاً ، وحديقة ، ومرصداً فلكياً ، والمكتبة الكبرى . وكان رئيس هذا المعهد كله من الناحية الرسمية كاهناً دينياً ، لأنه كان مخصصاً لإلهات الفن بوصفها

(*) هذا هو المعنى الحرفي لكلمة Museum . (المترجم)

معبودات بحق . وكان يعيش في المتحف أربع طوائف من العلماء : فلكيين ،
وكتاب ، وعلماء في الطبيعة ، وأطباء . وكان هؤلاء كلهم من اليونان ، وكانوا
جميعاً يتقاضون مرتبات من الخزانة الملكية . ولم تكن مهمتهم أن يعلموا
الطلاب ، بل أن يتوفروا على البحوث والدراسات وإجراء التجارب . ولما
تضاعف عدد الطلاب في المتحف في العقود التالية ، قام أعضاؤه بإلقاء
المحاضرات ، ولكنه بقي إلى آخر أيامه معهداً للدراسات الراقية أكثر مما كان
جامعة للطلاب . ومبلغ علمنا أنه كان أول مؤسسة أقامتها دولة للعمل على تقدم
الآداب والعلوم ، وكانت أهم ما أفاده تاريخ الحضارة من البطالة ومن
الإسكندرية .

ومات بطليموس قبلدلفس عام ٢٤٦ بعد حكم طويل قام فيه بكثير من
جلائل الأعمال . وكان بطليموس الثالث أورجيتيس *Euergetes* (المحسن) ،
ملكاً من طراز تحتمس الثالث ينبغي فتح بلاد الشرق الأدنى . فبدأ بالاستيلاء
على سرديس وبابل ، ثم واصل زحفه حتى بلغ بلاد الهند ، وزرع كيان
الإمبراطورية السلوقية حتى انهارت حين مستها جيوش رومة . ولسنا نريد أن
نتتبع حوادث حروبه ، لأنها ، وإن كانت في تفاصيلها أشبه الأشياء بالرواية
التمثيلية ، كانت في أسبابها ونتائجها مروحة لاحتد لوحشتها ؛ وإن تاريخ الحروب
إذا قص أصبح تابعاً ذليلاً لتقلبات القوة والسلطان تلغى فيها الانتصارات
والهزائم بعضها بعضاً فتجعله تاريخاً أجوف لا قيمة له . وحسبنا أن نقول إن
برنيس *Berenice* زوجة أورجيتيس الشابة عبرت عن شكرها لانتصاراته بأن
وهبت خصلة من شعرها للآلهة ، وتغنى الشعراء بهذه القصة ، ورفع الفلكيون
عقيرتهم بها إلى السماء فسموا إحدى المجموعات النجمية باسم كوما برنيسيز
Coma Berenices أي شعر برنيس .

وكان بطليموس الرابع فلوطاثر يحب أباه حباً حمله على أن يحذو حذوه في

- حروبه وانتصاراته . ولكنه أحرز النصر على أنتيوخوس الثالث في رافيا (٢١٧) باستخدام جيوش مصرية ، وكانت هذه أول مرة استخدم فيها البطالة هؤلاء الجنود ، فلما أن تسلم المصريون على هذا النحو وشعروا بقوتهم بدأوا يقوضون سلطان اليونان في وادي النيل . وانغمس قلوپاتر في اللهو ، وقضى كثيراً من الوقت في قارب نزهته ، وأدخل عيد البكاناليا في مصر ، وكاد يقنع نفسه بأنه من نسل ديونيشس . وقد حدث في عام ٢٠٥ أن قتلت عشيقته زوجته ، ولم يلبث قلوپاتر نفسه أن اختفى هو الآخر من التاريخ . وأعقبت موته فترة من الفوضى أوشك فيها فليب الخامس المقدوني وأنتيوخوس . الثالث السلوق أن يمزقا أوصال مصر ويضاهيا إلى بلادهما ، ولكن رومة التي عقد معها بطليموس الثاني معاهدة صداقة - تدخلت في الأمر وهزمت فليب ، وأرغمت أنتيوخوس على أن يعجل بالعودة إلى بلاده وبسطت حمايتها على مصر (٢٠٥) .

الفصل الثاني

الاشتراكية في عهد البطالة

إن أهم ما يعيننا في مصر البطالة هو تجربتها الواسعة في الاشتراكية الدولية . لقد كانت ملكية الأرض من زمن بعيد عادة مقدسة في مصر ، وكان لفرعون ، بوصفه ملكا ولها ، حق كامل على الأرض وعلى كل ما تنتجه . ولم يكن الفلاح عبدا ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يترك مكانه إلا بإذن الحكومة ، وكان يطلب إليه أن يورد الجزء الأكبر من محصوله إلى الدولة (١) . وأبني البطالة على هذا النظام ووسعوا نطاقه باستيلائهم على الأراضي الواسعة التي كانت في عهد الأسر الحاكمة السابقة ملكا للأعيان المصريين أو للكهنة . وكانت هيئة بروتوقراطية كبيرة من الموظفين الحكوميين ، يؤيدها حراس مسلحون ، تدبر شئون أرض مصر كلها كأنها مزرعة حكومية ضخمة (٢) . وكان هؤلاء الموظفون يعينون لكل زارع تقريبا قطعة الأرض التي ينبغي له أن يزرعها ، والمحصولات التي يجب أن ينتجها ، وكان في وسع الدولة أن تجنده هو ودوابه للعمل في المناجم ، وإقامة المباني العامة ، والصيد ، وشق قنوات الري ، وإنشاء الطرق . وكانت محصولاته تكال بمكاييل حكومية ، ويدون الكتبة مقدارها ، وتدرس في أجزان الملك ، ويحملها الفلاحون أنفسهم إلى مخازن الملك (٣) . وكان يستثنى من هذا النظام بعض حالات : فقد كان البطالة يجيزون للفلاح أن يمتلك بيته وحديقته ، ويجيزون الملكية الخاصة في الحواضر ، ويؤجرون قطعاً من الأرض للجنود يكافئونهم بها على ما قدموا للدولة من خدمات . ولكن هذه الأراضي المستأجرة كانت مقصورة في العادة على المساحات التي يوافق صاحبها على أن ينحصرها للكروم ، أو البساتين ، أو أشجار الزيتون ، ولم يكن

يسمح له أن يورثها أبناءه أو أن يوصي بها لمن يشاء ، وكان للملك أن يلغى حق الإيجار متى أراد . ولما تحسنت حال هذه الأرض التي يشترك في ملكيتها الفرد والدولة بفضل جهود اليونان ومهارتهم ، بدأ أصحابها يطالبون بأن يكون لهم حق توريثها أبناءهم . وكان العرف لا القانون يجيز هذا التوريث في القرن الثاني ، ثم اعترف به القانون في القرن الأول قبل الميلاد^(٩) ، وتم بذلك التطور المألوف من الملكية العامة إلى الملكية الخاصة .

وما من شك في أن تطور هذا النظام الاشتراكي الحكومي، قد حدث لأن أحوال الزراعة في مصر كانت تتطلب من التعاون ووحدة العمل في الزمان والمكان أكثر مما تستطيع أن تهيئه الملكية الفردية ، وأن مقدار ما يزرع من الغلات ونوعها يقفان على مقدار الفيضان السنوي . وكفاية نظام الري والصرف ، وهذه كلها مسائل تتطلب أن تشرف عليها هيئة مركزية . وقد عمل المهندسون اليونان الذين استخدمتهم الحكومة على تحسين الأساليب القديمة ، واستخدموا في زراعة الأرض وسائل أكثر انطباقا على العلم وعلى الإنتاج الضيق الوثير ، فاستبدل بالشادوف « الناعورة » أو « الساقية » ، وهي عجلة كبيرة يبلغ طول قطرها أحيانا أربعين قدما تعلق عليها دلاء غير مشدودة على حافتها الخارجية^(*) . فإذا وصل الدلو إلى أعلى مكان في العجلة أثناء دورتها مال على قضيب وأفرغ ما فيه من الماء في حوض . وخير من هذه الآلة « لولب أركيديز^(**) » ومضخة تسبيوس⁽⁺⁾ وهما يرفعان الماء بسرعة لم تكن معروفة قبل عصر البطالة ، ويفضل تركيز الإدارة الاقتصادية في يد الحكومة ونظام السخرة أمكن إقامة المنشآت العامة للتجكم في فيضان النيل ، وإنشاء الطرق ،

(*) في الأصل الإنجليزي الداخلية ولكن ما أثبتناه هنا هو الصحيح ولا تزال هذه الآلة مستعملة في ريف مصر إلى الآن . (المترجم)

(**) هذا هو المعروف عندنا بالطنبور .

(+) انظر الباب السابع والعشرين .

وشق قنوات الري ، وتشيد المباني ، وتمهيد السبيل للأعمال الهندسية الكبرى التى تمت فى أيام الحكم الرومانى . وقد جفف بطليموس الثانى بحيرة موديس وحول قاعها إلى مساحة واسعة من الأرض الحصبة وزعها على جنوده ، وشرع فى عام ٢٥٨ يعيد فتح القناة التى تصل النيل بالقرب من عين شمس بالبحر الأحمر قرب السويس (١١) . وكان نحاو ودارا قد حفرا هذه القناة من قبل ، ولكن الرمال فى كلتا الحالين طمرتها ، كما طمرت قناة بطليموس بعد مائة عام من شقها .

وسارت الصناعة وسط ظروف مماثلة لهذه الظروف ، فلم تكن الحكومة تمتلك المناجم فحسب ، بل كانت تديرها بنفسها أو تستولى على ما يخرج من المعادن (١٢) . واستغل البطالمة رواسب الذهب الغنية فى بلاد النوبة ، وكانت لهم عملة ذهبية مستقرة ، وكانوا يسيطرون على مناجم النحاس فى قبرص وطور سيناء ، ويحتكرون صناعة الزيت -- ولم يكونوا يستخرجونه من الأرض ، بل كانوا يعصرونه من النبات كبذور الكتان وحب الملوك (الكروتون) ، والسمسم ، وكانت الحكومة تحدد فى كل عام مقدار ما يزرع من الأرض بهذه النباتات ، وتستولى على المحصول بالثمن الذى تحدده له ، وتعصر الزيت فى مصانع تمتلكها الدولة بعصارات من كتل الخشب الضخمة يحركها أقنان الأرض ، ثم تبيع الزيت إلى تجار التجزئة بالثمن الذى تريده هى ، وتمنع المنافسة الأجنبية بالضرائب الجمركية العالية ، وكانت أرباحها من هذه العملية تراوح بين سبعين وثلثمائة فى المائة (١٣) . ويأوح أن الحكومة كانت تجنى أرباحاً مماثلة لهذه الربح من الملح ، والنظرون (كربونات الصودا المستخدمة فى صنع الصابون) ، والبخور ، والبردى ، والمنسوجات . وكانت فى البلاد مصانع للنسيج تمتلكها الأفراد ، ولكنها كانت تضطر إلى بيع كل ما تنتجه إلى الحكومة (١٤) . أما الصناعات الصغرى فقد تركت للأفراد ، وكانت الدولة تكتفى بالتصريح بها

ومراقبتها ، وابتياح جزء كبير من منتجاتها بالثمن الذى تحدده لها ، وفرض ضريبة طيبة على أرباحها تجبى لخزائنها . وكانت الصناعات اليدوية تقوم بها هيئات من العمال يتوارث أعضاؤها صناعاتهم بحكم التقاليد المرعية ، وكانوا يحكم هذه التقاليد نفسها مرتبطين بقراهم وبمنازلهم أيضاً^(١٥) . وكانت الصناعة متقدمة ، فكانت العربات ، وقطع الأثاث ، والفخار ، والأبسطة ، ومواد التجميل تصنع بكليات كبيرة ؛ وكان صنع الزجاج ونسج التيل من الصناعات التى اقتصت بها الإسكندرية . وكانت الاختراعات أكثر تقدماً فى مصر فى عصر البطالة منها فى أى عصر آخر قبل رومة الإمبراطورية . وكانت الأصوات اللولبية والتروس ، وطارات السيور ، والضباغطات اللولبية ، كانت بهذه كلها معروفة مستعملة^(١٦) ؛ وتقدمت كيمياء الصباغة إلى حد استطاعوا معه أن يعالجوا الأقمشة بالقواعد الكيميائية المختلفة بحيث إذا غمر القماش فى صبغة واحدة نتج عن ذلك عدد من الألوان الثابتة^(١٧) . وكانت مصانع الإسكندرية يديرها العبيد عادة ، وكانت نفقاتهم القليلة تمكن البطالة من أن يبيعوا منتجاتها فى الأسواق الأجنبية بأقل مما تباع به المصنوعات اليدوية اليونانية^(١٨) .

وكانت الحكومة تشرف على التجارة بأجمعها وتنظم شئونها . فكان بائعو الأشتات عادة وكلاء معينين من قبل الدولة لتوزيع بضائع الدولة^(١٩) ، وكانت الدولة تمتلك جميع طرق القوافل والطرق المائية . وقد أدخل بطليموس الثانى الحمل فى مصر وأقام مخفراً من راكبي الجبال فى جنوب القطر ؛ يتولى نقل المخابرات الحكومية دون غيرها ؛ ولكن هذه المخابرات كانت تشمل الرسائل التجارية كلها تقريباً . وكان نهر النيل غاصاً بسفن الركاب والبضائع ، ويبدو أن هذه السفن كانت ملكاً للأفراد وخاضعة لأنظمة الدولة^(٢٠) . وقد أنشأ البطالة لتجارة البحر الأبيض المتوسط أعظم أسطول تجارى فى ذلك الوقت ، وكانت حمولة السفينة الواحدة من سفنه تبلغ ثلثمائة طن^(٢١) . وكانت مخازن

الإسكندرية تستهوى التجارة العالمية ، وكان مرفأها المزدوج مما تحسدها عليه سائر المدن ، كما كانت منارتها من عجائب الدنيا السبع (*) . وكانت حقول مصر ومصانعها كبيرة وصغيرة تنتج قدرًا كبيراً من الغلات الزائدة على حاجة البلاد تباع في الأسواق النائية التي تصل إلى الصين شرقاً ، وإلى أواسط إفريقيا جنوباً ، وإلى روسيا والجزائر البريطانية شمالاً . وقد سار الرواداء لمصريون جنوباً حتى بلغوا زنجبار وبلاد السودان ونقلوا إلى العالم أخبار سكان الكهوف الذين يعيشون على سواحل إفريقيا الشرقية ويقتاتون بالأطعمة البحرية ، والنعام ، والجزر ، وجذور النبات (٢١) . واستطاعت السفن المصرية أن تقضى على سيطرة العرب على تجارة الهند مع بلاد الشرق الأدنى بسببها من النيل إلى الهند مباشرة .، وأضحى الإسكندرية بتشجيع البطالة وحكمتهم أهم الثغور التي يعاد منها شحن البضائع المرسلة إلى أسواق بلاد البحر الأبيض المتوسط .

وكان مما زاد في سرعة نماء التجارة والصناعة وازدهارها ما قدمته المصارف المالية من تسهيلات عظيمة . لقد بقي في مصر حتى ذلك الوقت قدر من المقايضة ورثته البلاد من العهود القديمة : وكانت الحبوب المحفوظة في المخازن الملكية بمثابة رصيد احتياطي للمصارف ؛ ولكن إيداع الحبوب وبهجها ، وتحويلها من يد إلى يد كان في الاستطالة لإتمامها على الورق بدل إجراء هذه العمليات

(*) ويقول ستراتس النيدى *Sostratus of Cnidus* إن الذي أقامها هو بطليموس الثاني وإنه أنفق في تشييدها ثمانمائة وزنة (نحو : ٢٤٠٠٠٠٠ ريال أمريكي (٢٢)) . وكانت تعلق بدرجة متراجعة إلى ارتفاع أربعمائة قدم ، ويغطيها الرخام الأبيض وازينها تماثيل من الرخام والبرنز . وقد وضع فوق القبة المقامة على الأعمدة والتي كانت تحمل الضوء تماثيل ليهيدن يبلغ ارتفاعه إحدى وعشرين قدماً . وكان هذا الضوء ينبعث من نار وقودها خشب راتنجي ؛ والراجع أن مرابا محبة كانت تمكسه بحيث يرى على بعد ثمانية وثلاثين ميلاً (٢٣) . وقد تم بناء المنارة في عام ٢٧٩ ق . م وهضمت في القرن الثالث عشر الميلادي . وعمل جزيرة فاروس التي كانت مقامة عليها هو الآن حي رأس التين بالإسكندرية . أما موضع المنارة نفسه فقد غمره ماء البحر .

بالفعل (٢٥) . وقد قام إلى جانب هذه المقايضة المعدلة نظام اقتصادى نقدى معقد . وكانت الحكومة تحتكر لنفسها إنشاء المصارف ، ولكن كان فى وسعها أن تنيب عنها فى أعمالها شركات خاصة (٢٦) . وكانت الحسابات تدفع بتحويل مما لأصحابها فى المصارف من أرصدة ؛ وكانت المصارف تقرض المال بالربا ، وتسدد حسابات الخزائن الملكية . وقصارى القول أننا لانعرف فى التاريخ كله عهداً بلغت فيه الزراعة ، والصناعة والتجارة ، والمالية ، ما بلغته كلها فى هذا العهد من ثراء ، ووحدرة ، ونماء خال من العاطفة الإنسانية .

وكان المشرفون على هذا النظام ومنفلوه هم اليونان الأحرار المقيمون فى العاصمة . وكان على رأسهم كلهم فرعون - الملك - الإله . وكان بطليموس فى نظر سكان بلاد اليونان متقلداً Soter ، أو محسناً Euergetes بحق ، فقد وهبهم مائة ألف منصب حكومى وأتاح لهم فرصا اقتصادية لا حد لها ، ويسر لهم سبل الحياة العقلية تيسيراً لا عهد لهم به من قبل ، وأوجد لهم بلاطاً كان مصدر الحياة الاجتماعية المترفة ومركزها . ولم يكن الملك نفسه ملكاً مستبدّاً لا يسأل عما يفعل ؛ فقد اجتمعت التقاليد المصرية والشرائع اليونانية على إقامة نظام تشريعى أخذت بعضه عن القانون الأثينى وحسنت فيه من جميع نواحيه ما عدا ناحية الحرية . وكان لأوامر الملك قوة القانون بأكملها ؛ ولكن المدن كانت تستمتع بقسط كبير من الحكم الذاتى . وكانت الجماعات المصرية . واليونانية . واليهودية . تخضع كل منها لشرائعها الخاصة : وتختار قضاتها . وتحاكم أمام محاكمها (٢٧) . وفى تورين بريدية سجلت فيها إحدى قضايا الإسكندرية . وقد حدد فيها موضوع النزاع تحديداً دقيقاً ، وعرضت فيها الأدلة بعناية فائقة . وخلصت السوابق ، ثم صدر الحكم بالنزاهة المطلوبة من القضاة . وثمة برديات أخرى سجلت فيها وصايا أهل الإسكندرية ، وهى تزيج الستار عن قدم الصبيغ

والعبارات القانونية : « هذه هي وصية بيزياس Peisias اللوشيانى ابن س .
الكامل العقل ، الحر الاختيار (٢٨) » .

وكانت حكومة البطالمة أقدر الحكومات وأحسنها نظاما فى العالم الهلنستى .
وقد أخذت شكلها القومى المركزى عن مصر وفارس ، واستقلال مدنها بشئونها
الخاصة عن بلاد اليونان ، ثم أخذتها عنها رومة . وقد قسمت البلاد إلى أقاليم ،
يدير كلًّا منها موظفون يعينهم الملك ، وكانوا كلهم تقريباً من اليونان . وقد أغفل
البطالمة ما كان يعتزمه الإسكندر من جعل اليونان والشرقيين أو المصريين
يعيشون ويختلطون على قدم المساواة بعد أن تبين لهم أن هذه الفكرة غير
اقتصادية ، وأصبح وادى النيل فى ظاهر الأمر وباطنه يحكم كما تحكم
البلاد المفتوحة ، فقد أدخل المشرفون اليونان على حياة مصر الاقتصادية
كثيراً من الرقى فى النواحي الفنية والإدارية ، وزادوا ثروة البلاد من الناحية
الاقتصادية ، ولكنهم استولوا على ما زاد من هذه الثروة . ورفعت الدولة
أثمان الغلات التى كانت تسيطر عليها ، ومنعت المنافسة الأجنبية بفرض
الضرائب الجمركية العالية ، فكان ما يباع من زيت الزيتون بإحدى وعشرين
درخمة فى ديلوس يباع بائنتين وخمسين فى الإسكندرية . وكانت الحكومة فى
كل مكان فى البلاد تجبى الضرائب وإيجار الأرض ، والرسوم الجمركية ،
وعوائد المرور على الطرق ، وتستولى من الناس أحياناً على جهودهم وحياتهم
نفسها . وكان الفلاح يؤدى للدولة أجراً على امتلاك الماشية ، وعلى ما يقدمه
لها من علف ، وعلى الإذن له برعيها فى أرض الكلاً العامة . وكان ملاك
الحدائق ، والكروم ، والبساتين ، من الأفراد يؤدون للدولة سدس منتجاتها
(وفى أيام بطليموس الثانى نصف هذه المنتجات) (٢٩) . وكان الأهليون كلهم ،
ما عدا الجنود ، ورجال الدين ، وموظفى الحكومة ، يؤدون فريضة الرؤوس .
وكانت الضرائب مفروضة على الملىح ، والمحدرات الرسمية ، والموارث . وكانت
تفرض على الإيجارات ضريبة قدرها خمسة فى المائة منها ، وعلى المبيعات عشرة

فى المائة من أثمانها ، وخمسة وعشرون فى المائة على الأسماك المصيدة فى المياه المصرية ، وعوائد على البضائع التى تنقل من القرى أو المدن أو تنقل بطريق النيل . وكانت رسوم عالية تفرض فى الثغور المصرية على جميع الصادرات والواردات ؛ وكانت ضرائب خاصة تفرض للإتفاق على الأسطول والمنارة البحرية ، ولترفيه عن أطباء البلديات ورجال الشرطة ، ولشراء تاج من الذهب لكل ملك جديد (٢٠) . وقصارى القول أن الدولة لم تكن تترك شيئاً يسمنها إلا فرضت عليه ضريبة . وقد احتفظت الدولة بجيش من الكتبة ، وبنظام واسع من التسجيل للأشخاص والأموال ، لتستطيع بهما إحصاء جميع الحاصلات والإيرادات والعمليات المالية والتجارية التى يصح فرض الضرائب عليها . أما جباية هذه الضرائب فقد كانت تعهد إلى جماعة من الإخصائيين ، تراقب هى أعمالهم ، وتجعل أملاكهم ضماناً تحت يدها حتى يؤدوا لها حقها . والراجع أن مجموع إيرادات البطالة نقداً وعينا كان أكبر ما جمعه دولة من الدول فى الفترة المحصورة بين سقوط دولة الفرس وعظمة رومة .

الفصل الثالث

الإسكندرية

وكان الجزء الأكبر من هذه الثروة يرد إلى الإسكندرية ، وكانت عواصم الأقاليم وقلة من المدن الأخرى تستمتع أيضا بالرخاء ، فكانت أرضها مرصوفة وشوارعها مضاعة ، وكانت لها شرطة تحمي أهلها ، وكانت تمتد بالماء النقي ؛ ولكن الإسكندرية بنوع خاص كانت تستمتع بنظام « حديث » لم يعهد له مثيل من قبل ، ويصفها استرابون في القرن الأول بعد الميلاد فيقول إنها كانت تبلغ أكثر من ثلاثة أميال في الطول وميلا في العرض ؛ ويقدر بليني طول أسوارها بخمسة عشر ميلا (٢١). وقد اختط المدينة ديمقراطيس المهندس الرومسي ، وسترانس التيلدي على شكل مستطيل في وسطه شارع رئيسي يبلغ عرضه مائة قدم يمتد من الشرق إلى الغرب ، ويقطعه شارع آخر في مثل عرضه من الجنوب إلى الشمال . وكان هذان الشارعان الرئيسيان ، وأكبر الظن أن شوارع غيرهما ، يضاهيان ليلا وتظللها أثناء النهار أميال من العمد . وكان الشريانان الرئيسيان السابق ذكرهما يقسمان المدينة أربعة أحياء ، أبعدا نحو الغرب حتى ركوتس Rhacotis وكانت كثرة سكانه من المصريين ؛ وكان الحي الشمالي الشرقي حتى اليهود ، والجنوبي الشرقي أو البركيوم Bruchium يحتوي على القصر الملكي ، والمتحف والمكتبة ، ومقابر البطالمة ، وضريح الإسكندر ، ودار الصنعة البحرية ، وأهم الهياكل اليونانية . وكثير من الحدائق الفسيحة . وكان لإحدى هذه الحدائق مدخل تبلغ مساحته ستمائة ق. م. وكانت حديقة أخرى تحتوي على مجموعة الحيوانات الملكية . وكان في وسط المدينة مباني الإدارات والمخازن الحكومية ، والمحكمة ، ومدرسة الألعاب الرياضية ، وألف حانوت وسوق .

وكان في خارج الأبواب الكبرى ملعب رياضي ، وميدان للسباق ، ومدرج ، ومقبرة عظيمة تعرف بمدينة الموتى (Necropolis) (٢٣) . وكانت تمتد على طول شاطئ البحر مقاصير للاستحمام والاصطياف . وكان يصل المدينة بجزيرة فاروس جسر أو حاجز يسمى الهپتستاديوم Heptastadium لأن طوله كان يبلغ سبعة استديومات (*) ، وكان المرفأ مرفأين . وكانت تقع خلف المدينة بحيرة مريوط ، وتستخدم مرفأين وخارج السفن النيلية . وفي هذه البحيرة كان البطالة يحفظون بقوارب التنزه ، ويقضون ساعات الراحة من عناء الأعمال (**).

وكان سكان الإسكندرية في عام ٢٠٠ ق . م خايطا من أجناس مختلفة كما هي حال سكان العواصم في هذه الأيام . وكانت عدتهم تتراوح بين أربعمائة ألف وخمسمائة ألف من المقلونيين ، واليونان ، والمصريين ، واليهود ، والفرس ، وأهل الأناضول ، والعرب ، والزنوج (+) (٢٤) . وزاد انتشار التجارة عدد أفراد الطبقة الوسطى — الدنيا وملاأ العاصمة المختلطة السكان بطائفة نشيطة ، وثرثرة ، متشاحنة من أصحاب الحوانيت والتجار ، لا تغفل لهم عين عن اقتناص أية فرصة لعقد الصفقات التجارية غير مراعين في ذلك شرفا أو أمانة . وكان على رأس هذه الطوائف السالفة الذكر المقدونيون واليونان ، يعيشون عيشة بلغت من الترف حدا أدهش السفراء الرومان الذين عينوا في بلاط ملوك مصر عام ٢٧٣ . ويذكر أثنيوس أصناف الأطعمة الشبيهة التي كانت تثقل مواثد هؤلاء السادة ومعداتهم (٢٥) ،

(*) الاستديوم مقياس يوناني يبلغ طوله ٦٠٠ قدم يونانية أو ٨٢ قدم إنجليزية .
 (**) ولا يكاد يوجد الآن من الإسكندرية القديمة إلا عدد قليل من سراديب الموق الأعمدة . وإذا كانت آثار هذه المدينة تحت الإسكندرية الحالية مباشرة ، فإن أعمال الحفر لكشف عنها تكون عظمة النفقة . وأكبر الظن أن هذه الآثار قد هبطت إلى ما تحت مستوى ماء البحر ، ولا شك أن البحر الأبيض المتوسط قد غمر أجزاء من المدينة القديمة .
 (+) وكان عدد سكان الإسكندرية في عام ١٩٢٧ هو ٥٧٠.٠٠٠ .

ويقول عنهم هروداس Herodas إن الإسكندرية هي بيت أفردتي ، وإن الإنسان ليجد فيها كل شيء - ثروة ، وملاعب ، وجيشا كبيرا ، وسماء صافية ، ومعارض عامة ، وفلاسفة ، ومعادن ثمينة ، وشبانا ظرفاء ، وبيتا ملكيا طيبا ، ومجمعا للعلوم ، وخمرا لذيدة ، ونساء حسانا (٣٥) . وكان شعراء الإسكندرية قد أخلوا يكشفون ما للعذارى من قيمة أدبية ، وسرعان ما جعلهن كتابها القصصيون موضوعا لكثير من قصصهم ، كما جعلوا سقوطهن خاتمة تنتهي بها هذه القصص . غير أن المدينة قد اشتهرت في ذلك الوقت بسباحة نسائها وبكثرة ما فيها من فتيات المتعة ، حتى لقد شكى بوليوس من أن أجل البيوت الخاصة في الإسكندرية تمتلكها العاهرات (٣٦) . وكانت النساء من مختلف الطبقات يسرن بكامل حريتهن في الشوارع ، ويبتن حوائجهن من الحوانيت ، ويختلطن بالرجال . وكان منهن أدبيات وعالمات مشهورات (٣٧) . وكانت الملكات المقدونيات وسيدات بلاطهن من أرسينوثى زوجة بطليموس الثاني إلى كليوباترة يقمن بدور هام في الشؤون السياسية ، ويقترفن جرائمهن خدمة للأغراض السياسية لا للحب ، ولكنهن قد احتفظن بما يكنى من الجمال والفتنة لإثارة الرجال لأعمال من الشهامة والبطولة لامثيل لها من قبل ، في عالم الشعر والنثر على الأقل إن لم يكن في واقع الأمر ، وقد أدخلن في مجتمعات الإسكندرية عنصرا من الظرف والرشاقة النسوية لم يكن معروفا في بلاد اليونان أيام مجدها .

والراجع أن نحو خمس سكان الإسكندرية كان وقتله من اليهود . ولقد كان في مصر منذ القرن السابع قبل الميلاد مواطن للبرانيين ، ثم قدم إليها كثيرون من تجار اليهود في أعقاب الفتح الفارسي ؛ وكان الإسكندر قد حثهم على الهجرة إليها وعرض عليهم ، كما يقول يوسفوس ، أن يكون لهم ما ليونان من حقوق سياسية واقتصادية (٣٨) . وجاء بطليموس الأول بعد استيلائه على أورشليم بألاف من الأسرى اليهود الذين أطلق خائفهم سراهم (٣٩) ، ثم دعا (٤٠ - قصة الحضارة ، ج ٤ ، مجلد ٢)

فى الوقت نفسه كمثيراً من أثرىاء العبرانيين إلى الإقامة فيها ومزاولة الأعمال التجارية والمالية^(٤٠) . ولم يكد يستهل القرن الأول الميلادى حتى بلغ عدد اليهود فى مصر مليوناً من الأنفس^(٤١) ، يعيش عدد كبير منهم فى الحى اليهودى من العاصمة . لكنهم لم يكونوا مرغبين على الإقامة فى هذا الحى ، بل كان لهم مطلق الحرية فى الإقامة فى أى حى من أحيائها علما البروكيوم Bruchem الذى كان مقصوراً على أسر الموظفين ومن يخدمهم . وكانوا يختارون لأنفسهم مجالس كبرائهم ، ويمارسون شعائر دينهم ، وقد أقام أنياس Anias حاخامهم الأكبر فى عام ١٦٩ هيكلا عظيما فى لبونتوبوليس Leontopolis إحدى ضواحي الإسكندرية ، وخصص صديقه بطليموس السادس إيراد عين شمس للإنفاق على هذا الهيكل . وكان هذا الهيكل وأمثاله مدارس وأمكنة اجتماع كما كانت معابد دينية ، ومن ثم أطلق عليهما من يتكلمون اللغة اليونانية من اليهود اسم سيناجوجاى أى أمكنة الاجتماع . ولذا لم يكن فى مصر من بين اليهود المصريين بعد الحيل الثانى أو الثالث إلا أقلية ضئيلة تعرف اللغة العبرية ، فإن قراءة الشريعة كان يتلوها شرح لها باللغة اليونانية ، ومن هذه الشروح والتطبيقات نشأت عادة قراءة المواعظ من نصوص مكتوبة ، كما نشأت من هذه الشعيرة الدينية أولى أشكال القداس الكاثوليكي^(٤٢) .

ونشأت من هذه الفوارق الدينية والعنصرية مضافة إلى المنافسات الاقتصادية حركة مناهضة للسامية فى أواخر ذلك العصر . ذلك أن المصريين واليونان قد اعتادوا جميعا وحدة الدين والدولة ، ولم يكن يرضيهم استقلال اليهود الثقافى عن سائر أهل البلاد . يضاف إلى هذا أن منافسة الصانع ورجل الأعمال اليهودى كانت ثقيلة الوطأة عليهم ، ولم يكونوا يطبقون نشاطه وصبره وحذقه ؛ ولما أن أخذت رومة تستورد الحبوب من مصر كان تجار الإسكندرية اليهود هم الذين يتقلون هذه البضاعة فى أساطيلهم^(٤٣) . وأدرك اليونان عجزهم عن صبغ

اليهود بالصبغة الإغريقية ، فأوجسوا خيفة على مستقبلهم في دولة تستمسك الكثرة الغالبة من أهلها بشرقيتها وتتكاثر بسرعة كبيرة . ونسى اليونان تشريع بركليز ، فأخذوا يشكون من أن الشريعة اليهودية تحرم الزواج بينهم وبين أهل الأديان الأخرى ، ومن أن معظم اليهود لا يختلطون بغيرهم . وكثرت الكتب والرسائل المناهضة للسامية ، ونشر مانيثون المؤرخ المصرى القصة القائلة بأن اليهود قد أخرجوا من مصر من عدة قرون لأنهم أصيبوا بداء الخنازير أو بالجدام (١٢) ، واشتدت الأحقاد من كلا الجانبين حتى أدت في القرن الأول الميلادى إلى أعمال العنف المخزية .

وبذل اليهود غاية جهدهم لتخفيف حدة الغضب من عزلتهم الاجتماعية ونجاحهم في أعمالهم المالية والتجارية ، فأخذوا يتكلمون اللغة اليونانية ، وإن ظلوا متمسكين بدينهم ، كما أخذوا يدرسون الآداب اليونانية ويكتبون فيها ، ويترجمون كتبهم المقدسة وتواريخهم إلى اللغة اليونانية . ثم سعوا إلى تعريف اليونان بالتقاليد الدينية اليهودية وتمكين اليهودى الذى لا يعرف العبرية من قراءة كتبه المقدسة ، فقامت طائفة من علماء اليهود بالإسكندرية في عهد بطليموس الثانى على الأرجح ، تترجم التوراة العبرية إلى اللغة اليونانية . وسر الملوك من ذلك العمل لأنهم كانوا يرجون أن تؤدى هذه الحركة إلى جعل يهود مصر أكثر استقلالاً عن أورشليم مما كانوا حتى ذلك الوقت ، وأن يقل تسرب الأموال اليهودية — المصرية إلى فلسطين . وتقص لإحدى القصص الخرافية كيف دعا بطليموس فلدفنس ، عملاً ممشورة دمتريوس الفاليري ، سبعين عالماً من علماء اليهود إلى الحجىء من بلادهم في فلسطين في سنة ٢٥٠ ، وكلفهم بترجمة كتبهم المقدسة ، وكيف أسكن الملك كل واحد من هؤلاء العلماء في حجرة خاصة بجيزة فاروس ، ولم يسمح له بالاتصال بأحد من الناس حتى فرغ كل منهم من ترجمة أسفار موسى الخمسة ؛ فلما فرغ السبعون من ترجماتهم وجدها تتفق

بعضها مع بعض في كل كلمة ، فدل ذلك على أن هذه النصوص موحى بها من عند الله ، وأن المترجمين أنفسهم قد أوحيت الترجمة إليهم ، وكيف نفح الملك هؤلاء العلماء بغطايا قيمة من الذهب . وتروى القصة في نهايتها أن الترجمة اليونانية للتوراة العبرية قد عرفت لهذا السبب باسم — الشروح عن السبعين *hermeneia keata tous hebdomebkonta* وباللاتينية (*seniorum*) *Septuagint* أو في كلمة واحدة *Interpretatio Septuaginta* (*) ، (١٤) وأياً كانت طريقة الترجمة فيبدو أن أسفار موسى الخمسة قد ظهرت باللغة اليونانية قبل نهاية القرن الثالث ، وأن كتب الأنبياء قد ظهرت بهذه اللغة في القرن الثاني ، وهذا هو الكتاب المقدس الذي استعان به فيلو وبولس الرسول . وأخفقت عملية الأعزقة في مصر إخفاقا تاما مع المصريين واليهود على السواء ، وكان سبب هذا الإخفاق أن المصريين في خارج الإسكندرية عضوا بالتواجذ على دينهم ، وعلى لباسهم وأعراسهم ، وعلى أساليبهم التي ورثوها من أقدم الأزمنة . يضاف إلى هذا أنه اليونان كانوا يرون أنهم فاتحون وليسوا كغفيريهم من الخلق ، ولم يهتموا بإقامة مدن يونانية جنوب الوجه البحري. أو يتعلم لغة المصريين ، كما أن قوانينهم لم تكن تعترف بالزواج بين المصريين واليونان . وقد حاول بطليموس الأول أن يوحد الدينين اليوناني والمصري بقوله إنه سرابس وزهوس إله واحد ، وشجع من جاء بعده من البطالة أهل البلاد على أن يتخلوهم آلهة يعبدونها لكي يقدموا بذلك للأهلين المختلفي الأجناس معبودا مشتركا لا يلقون صعوبة في عبادته . ولكن المصريين الذين لم تكن لهم مطامع في المناصب العامة لم يلقوا بالا لهذه العبادات المصطنعة . وأما الكهنة

(*) وهذه القصة مرجعها خطاب يقال إنه بخط كاتب يدعى أريستياس *Aristeas* عاش في القرن الأول الميلادي . وقد أثبت هودي الأكسفري *Hody of Oxford* في ١٦٨٤ أن هذا الخطاب مزور (١٥) .

المصريون الذين جردوا من ثروتهم وسلطتهم ، والذين كانوا يعيشون من الأموال التي تمنحهم إياها الدولة ، فقد ظلوا صابرين ينتظرون انحسار هذه الموجة اليونانية . ولم تكن الغلبة في الإسكندرية آخر الأمر للصبغة اليونانية ، بل كانت للنزعة الصوفية . ووضعت في ذلك الوقت أسس الأفلاطونية الجديدة وذلك الخليط من الطقوس المليئة بالأمانى ، والتي كانت تتنازع فيما بينها للاستحواذ على نفوس أهل الإسكندرية في القرون التي أحاطت بميلاد المسيح . وأضحى أوزيريس في صورة سزابس الإله المحبب للمصريين في ذلك العهد المتأخر من تاريخهم ، وللكتيرين من اليونان المصريين ، واستعادت إيزيس مكانتها بوصفها إلهة النساء والأمومة ، ولما دخلت المسيحية البلاد لم يجد الكهنة أو الشعب ما يحول بينهم وبين استبدال مريم بإيزيس أو المسيح بسرايس .

افضل الرابع

الفتنة

إن الدرس الذى نستفيد من نظام البطالة الاشتراكية هو أن الحكومة نفسها قد تستغل الناس . نعم إن هذا النظام قد سار مستقيماً إلى حد معقول في أيام بطليموس الأول والثاني ، فقد تمت في عهدهما مشروعات هائلة عظيمة ، وتقدمت الزراعة ، ونظمت عمليات البيع والشراء ، ولم يفرط مفتشوا الحكومة في الظلم والمحاباة ، ومع أن استغلال الحكومة للمواد والرجال كان استغلالاً كاملاً لا هوادة فيه فإن الجزء الأكبر مما عايد عليها من هذا الاستغلال قد استخدم في تزيين البلاد وفي إمداد الحياة الثقافية بما يلزمها من المال . ولكن البطالة شتوا الحروب وأنفقوا مقداراً متزايداً من مكاسب الشعب على الحيوث والأساطيل والوقائع الحربية ، وتدهورت طباع الملوك تدهوراً سريعاً بعد غلذلفس ؛ فقد انهمكوا في ملاذ الأكل والطعام والنساء وتركوا أزمة الحكم في أيدي السفلة الذين ابتزوا كل درهم من الفقراء ، ولم ينس المصريون قط أن هؤلاء المستغلين كانوا من الأجانب ، ولم يغب ذلك عن عقول الكهنة الذين كانوا يحلمون بالحياة المترفة التي كانوا يستمتعون بها قبل سيادة الفرس واليونان .

وكان أهم ما يفهمه البطالة من الاشتراكية أنها نظام للإنتاج الكثير لا للتوزيع الواسع النطاق . فقد كان الفلاح ينال من محصوله ما يكفي لحفظ حياته ، ولكنه لا يكفي لتشجيعه على عمله أو إعانته على تربية أسرته . وزاد مقدار ما تنزعه الحكومة منه جيلاً بعد جيل ، ولم يعد الناس يطيقون سيطرة الدولة على كل صغيرة وكبيرة كما لا يطيق الأبناء متى كبروا الرقابة الدائمة التي يفرضها الأب المستبد عليهم . وكانت الدولة تقرر الفلاح البنور ليزرع بها

أرضه ولكنها كانت تقيد به بالبقاء في الأرض حتى يجني المحصول ، ولم يكن في وسع أى فلاح أن ينتفع بأى قدر من محصوله إلا بعد أن يؤدي ما عليه للدولة من التزامات وديون . ولقد كان هذا الفلاح صبوراً بطبعه . ولكنه رغم طبعه هذا بدأ يتذمر ، فلم يكده يستهل للقرن الثانى حتى بارت مساحات واسعة من الأرض لعدم وجود من يزرعها ، ولم يجد مستأجرو أراضي الملك من يؤجرونها لهم ليزرعوها ، فحاولوا أن يقوموا هم أنفسهم بزرعها ، ولكنهم عجزوا عن ذلك العمل ، فأخذت الصحراء تزحف شيئاً فشيئاً على الحضارة . وكان العبيد يعملون في مناجم الذهب ببلاد النوبة وهم عراة ، في مراديب مظلمة ضيقة ، وأجسامهم ملتوية ، وهم مثقلون بالأغلال ، يسوقهم الملاحظون إلى العمل بالسياط ، طعامهم حقير لا يكاد يسد الرمق ، وقد هلك آلاف منهم من سوء التغذية ومن فرط التعب ، وكانت سلوكهم الوحيدة في هذه الحياة هي الموت (١٧) . وكان العامل العادى في المصانع يتقاضى أجرة واحدة (بـلـبـلـ من الريال الأمريكى) في اليوم ، أما الصانع الماهر فكان يتقاضى أبلتين أو ثلاث أبلات ، ويستريح من العمل يوماً في كل عشرة أيام .

وعم الاستياء ، وازدادت الشكاوى ، وكثر الإضراب : إضراب بين عمال المناجم ، والمحاجر ، ورجال القوارب ، والفلاحين ، والصناع ، والتجار ، ثم تعداهم إلى الملاحطين ورجال الشرطة أنفسهم . ولم يكن الغرض من الإضراب زيادة الأجور ، فإن الكادحين قد يئسوا من هذه الزيادة من زمن بعيد ، بل كان الدافع إليه هو الإعياء واليأس . وتقول بردية تسجل إضراباً من هذا النوع : « لقد خارت قوانا ، وسنفر من العمل » أى أنهم سيعتصمون بأحد الهياكل (١٨) . وكان كل المستغلين تقريباً من اليونان ، وكل الكادحين المستغلين تقريباً من المصريين أو اليهود . وكان الكهنة يشيرون مشاعر الأهليين خفية باسم الدين ، على حين كان اليهود يعارضون في كل عمل تقوم به الحكومة لتخفيف الضغط عليهم أو على المصريين . ولجأت الحكومة في العاصمة إلى العطايا

وأساليب التبعية لترشوها بالجواهر ؛ ولكنها لم تكن تسمح لهم بدخول الأحياء الملكية ، وكانت تسلط عليهم قوة عسكرية كبيرة تراقبهم وتنحس عليهم ، ولم تكن تسمح لهم بتصيب ما في إدارة شئونهم . وما لبثت هذه الجواهر أن أضحت في آخر الأمر جماعات من الغوغاء عنيفة لا تحس بأية تبعية (١٩) . وثار المصريون في عام ٢١٦ ولكن الثورة أخمدت ؛ ثم ثاروا مرة أخرى في عام ١٨٩ ودامت ثورتهم خمس سنين . وسيطر البطالة على الموقف ونحاً ما بقوة جيشهم وزيادة هباتهم للكهنة ، ولكن الموقف كان قد تخرج إلى أقصى حدود التعرج ، لأن موارد البلاد نصبت عن آخرها ، حتى لقد أحس المستغلون أنفسهم أنه لم يبق فيها شيء يستغلونه .

وبدأ الانحلال يدب في كل شيء ، فانتقل البطالة من الرذائل الطيفية إلى الرذائل غير الطيفية ، ومن الذكاء إلى الغباوة ، وانطلقوا يتزوجون بلا قيد وبسرعة أبقتهم احترام الشعب ، وانغمسوا في الترف انغماساً أعجزهم عن إدارة ذمة الحزب أو الحكم ، وأبقتهم آخر الأمر القدرة على التفكير . وضعفت قدرة الأرض على الإنتاج عاماً بعد عام لخروج الناس على القائون ، وقلة أمانتهم وعجزهم ويأسهم ، ولانعدام المنافسة بينهم ، ولضعف المم والدوافع التي تبعها الملكية في النفوس . وذوي غصن الآداب ، وعرضي على الفن المبدع الخلاق ، فلم تكد تضيف الإسكندرية إليهما شيئاً بعد القرن الثالث ، وقعد المصريون احترامهم لليونان ، وفقد اليونان احترامهم لأنفسهم ، إذا صح أن الإنسان قد يفقد احترامه لنفسه ، ففسوا على مر السنين لغتهم ، وأخلوا يتكلمون خطيئاً فاسداً من اللغتين اليونانية والمصرية ، وأزداد عدد من يتزوجون منهم بأخواتهم زيادة مطردة ، كما كان يفعل أهل البلاد ، ومن يتزوجون من أسر مصرية ، فامتصتهم البلاد واندجوا في أهلها ، وعبد الآلاف منهم الآلهة المصرية . وما وافى القرن الثاني حتى لم يعد اليونان هم الشعب المسيطر حتى من الوجهة السياسية ؛ ذلك أن البطالة اعتنقوا دين المصريين

واتبعوا طقوسهم ليحافظوا بهذا على سلطانهم ، وزادوا لهذا السبب عينه من سلطة الكهنة . ولما انغمس الملوك في الترف والملاذ بدأ الكهنة يستعيدون سلطانهم ويثبتون قواعد زعامتهم ، واستعادوا عاما بعد عام الأراضي والمزايا التي سلبها منهم البطالمة الأولون^(٥٠) . ويصف حجر رشيد الذي يرجع إلى عام ١٩٦ ق . م الاحتفال بتتويج بطليموس الخامس وصفا لا يكاد يختلف في شيء عن المراسم المصرية القديمة ؛ وفي عهد بطليموس الخامس (٢٠٣ — ١٨١) وبطليموس السادس (١٨١ — ١٤٥) أنهكت المنازعات القائمة بين أفراد الأسرة المالكة قوة البيت المالك ، واضمحلت الزراعة والصناعة غاية الاضمحلال ، ولم يعد الأمن والسلام إلى ربوع البلاد حتى جاء قيصر فاستولى على مصر من غير عناء ، ولم يكن استيلاؤه عليها إلا حادثا عاديا من حوادث حياته ؛ وفي عام ٣٠ ق . م . جعلها قيصر ولاية رومانية .

الفصل الخامس

شمس الحضارة اليونانية تغرب في صقلية

كانت قبله العهد الهلنسى هى الشرق والجنوب وكاد يغفل الغرب إغفالاً تاماً ، وازدهرت قورنى كالعادة وعمها الرخاء لأنها أدركت أن التجارة خير لها من الحرب . ونبغ فيها فى ذلك العهد كلمخوس الشاعر ، ولارتستيز وكزينيدز الفيلسوفان . أما إيطاليا اليونانية فقد أضعفها وأقص مضجعها ازدياد سكانها وقوة رومة الناشئة ، وعاشت صقلية تتوجس خيفة من قوة قرطاجة ، وقام أغنياؤها بثورة بعد ثلاثة وعشرين عاماً من مجيء تمليون Timoleon فقصوا على حكومة سرقوسة الديمقراطية ووضعوا زمام الحكم فى أيدي ستائة من الأسر الأبحرية (٣٢٠) . ولكن هذه الأسر ما لبثت أن تفرقت وكانت شيعاً ، وقضت عليها ثورة من المتطرفين قتل فيها أربعة آلاف نفس ، ونفى من البلاد ستة آلاف آخرون . ونصب أجثكلز Agathocles نفسه طاغية واستعان على ذلك بأن وعد بإلغاء الديون وإعادة توزيع الأراضي (٥١) . وهكذا يصل تركيز الثروة من آن إلى آن إلى أقصى حد ، ولا تصلح الحال إلا بالضرائب أو الثورات .

ودامت الفوضى فى سرقوسة أربعين عاماً غزا فيها القرطاجيون الجزيرة مراراً وتكراراً ، وجاءها پيرس ، وانتصر ، وهُزم ، وخرج منها ، ثم سقطت لحسن حظها التى كانت غير جديرة به فى يد هيرون الثانى Hieron خير الطغاة الكثيرين الذين أنتجهم عواطف أهل صقلية اليونان واضطراب نفوسهم . وحكم هيرون البلاد أربعة وأربعين عاماً « لم يقتل فيها مواطناً واحداً أو ينفيه أو يمسسه بأذى ، وذلك بلا جدال أعجب ما سمع به الإنسان » كما يقول پوليبوس (٥٢) . وكان هيرون يعيش عيشة متواضعة معتدلة رغم ما يحيط به من

أسباب الترف ، وقد عمر حتى بلغ سن التسعين . وأراد في مناسبات عدة أن ينزل عن ساعته ، ولكن الشعب توسل إليه أن يحتفظ بها (٥٣) . وقد هدته حكيمته إلى أن يعقد حلفاً مع رومة ، وبذلك حى البلاد من غزو القرطاجيين نحو تصف قرن من الزمان ، واستمتعت المدينة في أيامه بالسلم والنظام وبقسط كبير من الحرية ، وأقام منشآت عامة عظيمة ، وترك عند موته خزانها عامرة بالمال دون أن يرهق الأهلين بالضرائب . وبفضل حمايته أو مناصرته رفع أركميديز العلم القديم إلى أعلى ذروته ، وتغنى ثاوفريطوس ، باللغة اليونانية الفصيحة في أواخر أيامها ، بجمال صقلية وبعطايا مليكها المرتقبه . وأضحت سر قوسة وقتئذ أكثر بلاد هلاس سكاناً وأعظمها رخاء (٥٤) .

وكان هيرون يسلى نفسه وقت فراغه بمراقبة صناعه وهم يعملون بإشراف أركميديز في بناء سفينة لزمته ، تتمثل فيها جميع فنون بناء السفن وجميع العلوم التى عرفها الأقدمون . وكان طولها يبلغ نصف استديوم (٤٠٧ قدم) ، ولها سطح واسع للألعاب الرياضية ، ومدرسة للتدريب الرياضى ، وحمام من الرخام ، وحديقة مظلة ، جمع فيها كثيراً من أنواع النبات المختلفة . وكان فيها سبائة من الفلاحين يدفعونها بعشرين مجموعة من الحاديف ، وكان في مقدورها أن تحمل فوق هذا العدد سبائة من البحارة أو المسافرين . وكانت تحتوى على مبصورة ، صنعت أرض بعضها من الفسيفساء ، وأبوابها من العاج والأخشاب الثمينة . وكان أثاثها فخماً ظريفاً ، وزينت جدرانها وسقفها بالرسوم الجميلة والتماثيل ، وكان يحمى من الهجوم دروع وأبراج ، وكانت تمتد من أبراجها الثمانية كتل ضخمة من الخشب بكل منها ثقب في نهايتها تسقط منه الحجارة على السفن المغادية . وأنشأ أركميديز بطول هذه السفينة منجنيقا عظيماً يستطيع قذف حجارة زنة الواحد منها ثلاث وزنات (١٧٤ رطلا) أو سهام طول الواحد منها ثمان عشرة قدماً . وكانت هذه السفينة تتسع لحمل ٣٩٠٠ طن

من البضاعة ، وكانت زنتها وحدها ألف طن . وكان هيرون يأمل أن يستخدمها في الأسفار المنتظمة بين سرقسوة والإسكندرية ، ولكنه وجد أن أخواتها لا تنسج لها أنصافاً منها ، وأن نفقاتها كثيرة ، فلأها بالحب والسفك من حقول صقلية وبجارها الغنية ، وأرسلها هي وحولتها هدية منه لمصر ، وكانت وقتئذ تعاذ، تقصاً في الحبوب غير عادي (٥٥).

ومات هيرون في عام ٢١٦ ، وكان يرغب أن يضح قبل موته دستوراً ديمقراطياً للمدينة ، ولكنه استمع في شيخوخته لرأى بناته فأوصى بالملك إلى خفيده (٥٦) . وتبين أن هيرونيوموس Hieronymus هذا نذل ضعيف ، نبذ حلف زومة واستقبل وفوداً من قرطاجة ، وسمح لهم أن يكونوا من الوجهة العملية بحكام سرقسوة ، وكانت رومة لا تجد كفايتها من الحبوب فأخذت تستعد لقتال قرطاجة لتتزع منها ثروة الجزيرة التي لم تتعلم في يوم من الأيام كيف تحكم نفسها . وكان عالم البحر الأبيض المتوسط وقتئذ أشبه بالفاكية العفنة على اعتماد لأن يسقط في يدي فاتح أشد بأساً وأقصى قلباً من كل من عرفهم تاريخ اليونان من الفاتحين .

الباب السادس والعشرون

الكتب

الفصل الاول

دور الكتب والعلماء

في كل ميدان من ميادين الحياة الإنسانية ، عدا ميدان التمثيل ، نجد ظاهرة معينة - نجد الحضارة اليونانية تنتشر ولا تعلم . فقد كانت أثينة مختصر ، وكانت المحلات اليونانية في الغرب ، عدا سرقوسة ، آخذة في الانحيار والزوال ؛ ولكن المدن اليونانية في مصر وفي الشرق كانت في ذروة مجدها المادي والثقافي . وقد كتب يوليوس ، وهو رجل واسع التجارب ، غزير العلم بالتاريخ ، حصيف الرأي ، صادق الحكم ، كتب في عام ١٤٨ ق.م عن هذه الأيام « التي تتقدم فيها العلوم والفنون بخطى سريعة »^(١) ، وهي نعمة ألفنا سماعها من غيره من الكتاب . وبفضل انتشار اللغة اليونانية واتخاذها لغة عامة وجدت وحدة ثقافية دامت في بلاد البحر الأبيض المتوسط ما يقرب من ألف عام . فكان جميع المتعلمين في الإمبراطوريات الجديدة يتعلمون اللغة اليونانية ويتخلونها وسيلة للصلوات الدبلوماسية ، ولنشر الآداب والعلوم ؛ وكان الكتاب المؤلف باليونانية يفهمه كل متعلم تقريبا من غير أبناء اليونان في مصر والشرق الأدنى . وكان الناس إذا تحدثوا عن العالم المعمور (الأيكوميني olkonmene) تحدثوا عنه بوصفه عالما ذا حضارة واحدة . قد أصبحت

له نظرة عالية للحياة أقل بعثا للهمم من النظرة القومية الضيقة المتخترسة التي كانت تسود دول المدن ولكنها قد تكون أكثر منها مطابقة لمقتضيات العقل .

ولهذه الدائرة الواسعة من القراء كتب آلاف الكتاب مئات الآلاف من الكتب ، ولدينا أسماء ألف ومائة مؤلف هلنسى ، وما من شك في أن من لا تعرف أسماءهم يخطئهم الحصر ؛ ونشأ خط سريع دارج لتسهيل الكتابة ، بل إننا لنسمع في واقع الأمر منذ القرن الرابع عن طرق للاختزال يستطيع بها « التغيير عن بعض الحروف والحركات بشروط مختلفة الأوضاع » . وظلت الكتب تكتب على أوراق البردى المصرى حتى حرم بطليموس الرابع تصدير هذه المادة من مصر لعله يمنع بذلك نمو مكتبة برجموم . ورد يومئذ الثاني على هذا العمل بأن شجع صناعة معالجة جلود الضأن والعجول على نطاق واسع ، وكانت هذه الجلود تستعمل للكتابة في بلاد الشرق من زمن بعيد ، وسرعان ما أصبح الرق المصنوع في برجموم والمشتق اسمه الأوربي parchment من اسمها يتنافس الورق بوصفه أداة للتخاطب ونقل الآداب .

وبعد أن تضاعف عدد الكتب إلى هذا الحد أصبح لإنشاء دور الكتب ضرورة محتومة . كانت هذه الدور قد قامت في مصر وبلاد النهرين قبل ذلك الوقت ، غير أنها كانت فيهما من وسائل الترف التي يختص بها الملوك ؛ ولكن يبدو أن مكتبة أرسطو كانت أولى مجموعات الكتب الخاصة الكبيرة . وفي وسعنا أن نقدر حجم هذه المكتبة وقيمتها إذا عرفنا أنه دفع ما قيمته ١٨,٠٠٠ ريال أمريكي ثمنها لحزبها الذى اشتراه من اسبيوسهوس خليفة أفلاطون . وأوصى أرسطو بكتبه إلى ثاوفراسطوس ، ثم أوصى بها هذا (في عام ٢٨٧) إلى نليوس Neleus ، ونقلها هذا إلى اسكيسيس في Scepis في آسية الصغرى ، حيث دفنت في باطن الأرض ، كما تقول بعض الروايات ، لتنجو من شره ملوك برجموم العلمى . وبعد أن ظلت هذه الكتب مدفونة على هذا النحو البالغ

الضرر، بيعت حوالى عام ١٠٠ ق. م. إلى أهلكون Apellicon التيوسى of Teos الفيلسوف الأثينى . ووجد أهلكون أن فقرات كثيرة فى الكتب قد أتلفها رطوبة الأرض ، فكتب منها نسخاً جديدة ، وملأ الثغرات المفقودة بقلر ما هداه إليه تفكيره^(٣) ، وقد يكون هذا هو السبب فى أن أرسطو أكثر الفلاسفة جاذبية فى التاريخ القديم . ولما استولى سلا Sylla على أثينة عام ٨٦ أخذ مكتبة أهلكون ونقلها إلى رومة ، حيث سجل أندرنكوس Andronicus العالم الرودى نصوص مؤلفات أرسطو^(٤) . ونشر هذه النصوص المسجلة - وكان لهذه الحادثة فى تاريخ التفكير الرومانى أثر لا يقل عن أثر يقظة الفلسفة فى العصور الوسطى .

وإن قصة هذه المجموعة وتنقلها من مكان إلى مكان ليدلانا على ما يدين به الأدب للملك البطالمة لإنشائهم مكتبة الإسكندرية العظيمة وجعلها جزءاً من متحفها . لقد بدأ هذه المكتبة بطلميوس الأول وأتمها بطليموس الثانى ، ثم أضاف إليها مكتبة أصغر منها فى معبد صرايبس بإحدى ضواحي المدينة . وقد بلغ عدد ما فيها من الملفات قبل نهاية حكم فلدفلس ٥٣٢,٠٠٠ ملف يتكون منها فى أكبر الظن مائة ألف كتاب بالمعنى الذى يفهم من هذا اللفظ فى هذه الأيام^(٥) . وظل تكبير هذه المجموعة حيناً من الدهر ينافس فى قلوب ملوك مصر حبهم لتقوية سلطانهم . ومن الشواهد الدالة على ذلك أن بطليموس الثالث أمر أن كل كتاب يصل إلى الإسكندرية يجب أن يودع فى المكتبة ، وأن تنسخ منه صور تعطى واحدة منها لصاحبه وتحفظ المكتبة بأصل الكتاب . وطلب هذا الملك صاحب السلطان المطلق إلى أثينة أن تعبره مخطوطات إيسكلس ، وسفكلز ، ويورپديز ، وأودع لديها ما قيمته ٩٠,٠٠٠ ريال أمريكى ضمناً لعودتها سالمة ، فلما أرسلت إليه احتفظ بأصولها ورد إليها نسخاً منها ، وأبلغ الأثينيين أن يحتفظوا بالمال جزاء له على عمله^(٦) . وانتشرت رغبة

(٨ - قصة الحضارة ، ج ٣ ، مجلد ٢)

الناس في اقتناء الكتب انتشاراً بلغ من اتساعه أن نشأت طائفة من الناس تخصصت في صيغ المخطوطات الجديدة وإتلافها ليبيعوها للجامعي النسخ الأولى على أنها كتب قديمة^(٧).

وما لبثت المكتبة أن زادت على المتحف في أهميتها وتعلق الناس بها وأصبح منصب أمين المكتبة أكبر المناصب مرتباً عند الملك ، وصار من اختصاصاته أن يكون المعلم الخاص لولي العهد . وقد بقيت لنا أسماء هؤلاء الأئمة وإن اختلف بعضها عن بعض في المخطوطات المختلفة . ويذكر أحدث ثبت لها أسماء الستة الأئمة الأولين وهم : زودوتس الإفسوسي ، وأبلونيوس الرودسي ، وأرتستيز القوريني ، وأبلونيوس الإسكندري ، وأرسطوفان البيزنطي ، وأرستارخوس السمثراسي ، وإن اختلف أصولهم ليوحى مرة أخرى بوحدة الثقافة الهلينية . ولا يكاد يقل عن هذه الأسماء أهمية كلمخوس الشاعر والعالم الذي صنف هذه المجموعة ونظمها في فهرس عام بلغ عدد ملفاته مائة وعشرين ملفاً . وإنا لتطوف بخيالنا صورة طائفة كبيرة من النساخين ، نفلن أنهم من العبيد ، ينسخون صوراً ثانية من أصول الكتب القيمة ، ومعهم عدد لا يحصى من العلماء يقسمون هذه الكتب مجموعات . وكان بعض هؤلاء الرجال يكتبون تواريخ مختلف الآداب والعلوم ، وبعضهم يخرجون للناس « طبعات » من الروائع القيمة ، ومنهم من كانوا يكتبون تعليقات وشروحاً للنصوص ليستثير بها غير الإخصائيين وقراء الأجيال التالية . وقد أحدث أرسطوفان Aristophanes البيزنطي انقلاباً عظيماً في الأدب بفصل الحمل المستقلة والتبعية في المخطوطات القديمة بعضها عن بعض بالحروف الكبيرة (Capitals) ، وبعلامات الترقيم ، وكان هو الذي اخترع التبرات التي تضايقتنا أشد المضايقة في قراءة الكتابات اليونانية . وقد بدأ زودوتس تهذيب الإلياذة والأوديسة ، وواصل أرسطوفان عمله ، وأتمه أرستارخوس ، وكانت نتيجة عملهم هو النص الحالي لهاتين الملحميتين ، وهم الذين شرحوا ما غمض فيهما شرحاً يدل على غزارة الاطلاع . ولم يتقضى القرن الثالث حتى

حتى أصبحت الإسكندرية بفضل متحفها ومكتبتها وعلماؤها العاصمة الذهنية للعالم اليوناني في كل نوع من فروع العلم والأدب عدا الفلسفة .

وما من شك في أن مدناً هلنستية أخرى كانت بها دور كتب ، يدل على ذلك أن علماء الآثار النمساويين قد كشفوا عن بقايا مكتبة جميلة الشكل تابعة لبلدية إفسوس ، ونسمع أن مكتبة عظيمة قد احترقت حين خرب سيو Scipio مدينة قرطاجة . ولكن المكتبة الوحيدة التي يمكن موازنتها بمكتبة الإسكندرية هي مكتبة برجموم : ذلك أن ملوك هذه الدولة القصيرة الأجل كانوا يحسبون حسد المستيرين ملوك البطالة على جهودهم الثقافية ، وقام يومئذ الثاني بإنشاء مكتبة برجموم ، واستقدم لاجهاها طائفة من أعظم علماء اليونان . وأخذت مجموعة الكتب التي بها تنمو نمواً سريعاً ، حتى بلغ عددها ، حين أهداها أنطونيوس لملكليوطرة ليعوض بها ذلك الجزء من مكتبة الإسكندرية الذي احترق أثناء الثورة على قيصر عام ٤٨ ق . م . مائتي ألف ملف . وبفضل هذه المكتبة ، وما كان الملوك برجموم من ذوق أتيكي حسن أصبحت هذه المدينة في أواخر العصر الهلنستي مركزاً لأنقى مدرسة من مدارس النثر اليوناني ، وهي مدرسة لم تكن ترى أن لفظاً ما يونانياً نقياً إلا إذا كان قد ورد في كتابات العصر القديم . ونحن مدينون إلى حماسة هؤلاء الأدباء بما بقي من روائع النثر الأتيكي .

ولقد كان هذا العصر أولاً وقبل كل شيء عصر النابهين والعلماء ، عصراً أصبحت الكتابة فيه مهنة لا هواية ، ونشأت فيه جماعات وجملقات يتناسب تقدير بعضها مواهب البعض الآخر تناسباً عكسياً مع مربع المسافة بينها . وبدأ الشعراء يكتبون للشعراء ، وأضحت كتاباتهم لذلك متكلفة مصطنعة ، وأخذ العلماء يكتبون للعلماء ، فكانت كتاباتهم خالية من البهجة والروعة ، وشعر المفكرون أن إلهام اليونان المبدع كاد ينضب معينة ، وأن أبقى خلعة يستطيعون أداءها هي أن يجمعوا ، ويحفظوا ، ويلونوا ، ويشرحوا الأعمال الأدبية التي أنشأها

عصر أسمى وأعظم جرأة من عصرهم . لذلك أوجدوا طرق نقد النصوص والآداب بجميع أشكاله تقريباً ، وحاولوا أن يستخرجوا خلاصة المخطوطات الكثيرة التي كانت بين أيديهم ، وأن يرشدوا الناس إلى ما يجب أن يقرؤوه منها ، فوضعوا قوائم « بأحسن الكتب » و « شعراء البطولة الأربعة » والتسعة المؤرخين » و « العشرة الشعراء الغنائيين » و « العشرة الخطباء » وما إلى هذا (٩) .

وَأَلْفَوْا سِيراً لكبار الكتاب والعلماء ، وجمعوا وأنجوا من الدمار المعلوم المشتتة التي لا نعرف الآن غيرها عن هؤلاء الرجال . وكتبوا خلاصات في التاريخ ، والآداب ، والتمثيل ، والعلم والفلسفة (١٠) ، وقد ساعدت بعض هذه الخلاصات التي كانت أشبه « بالطرق المختصرة للمعرفة » على حفظ المؤلفات الأصلية التي لخصتها ، وإن كان بعضها قد حل محلها وقضى بغير علم واضعها على هذه المؤلفات . وأقضى مضاجع العلماء الهلنستيين تدهور اللغة اليونانية الأتكية الفصحى وحلول الرطانة اليونانية الشرقية المنتشرة في ذلك الوقت محلها ، فأدخلوا يضعون المعاجم وكتب النحو ؛ وأصدرت مكتبة الإسكندرية ، كما يفعل المجمع العلمي الفرنسي في هذه الأيام ، قرارات تبين الاستعمال الصحيح للألفاظ والعبارات اليونانية القديمة . ولولا جد هؤلاء العلماء وصبرهم لقضت الحروب ، والثورات ، والكوارث التي توالى على هذا الجزء من العالم مدى ألفي عام ؛ على هذه « الشذرات الثمينة » التي انتقلت إلينا من حطام التراث اليوناني القديم .

الفصل الثاني

كتب اليهود

لقد احتفظ اليهود وسط هذا الجو المضطرب الذى لف ذلك العصر بمحبههم التقليدى للبحث العلمى ، وأخرجوا أكثر من نصيبهم من الأدب الخالد الذى أخرج فى ذلك العصر . وإلى ذلك العصر تنتمى طائفة من أجل أجزاء التوراة فقد ألف شاعر يهودى (أو ألفت شاعرة يهودية) قبيل اختتام القرن الثالث نشيد الإنشاد الجميل : فى هذا النشيد كل ما حواه السفر اليونانى من سافو إلى ثاوفريطوس من روعة فنية ، ولكن فيه فوق هذا ما لا يمكن العثور عليه عند أى مؤلف من مؤلفى ذلك العصر — فيه قوة الخيال ، وعمق فى الشعور ، وإخلاص مثالى ، حوى من القوة ما يكفى للترحيب بجسم الحب وروحه ، وأن يبدل الجسم نفسه روحاً . وقد كتب اليهود الهلنستيون وقتئذ — بالعبرية أو الآرامية أو اليونانية — روائع خالدة كأسفار الجامعة ، ودانيال ، وأجزاء من الأمثال ، والمزامير ، والجزء الأكبر من الأسفار الإيوكريفية ، كتبوا بعضها فى أورشليم ، ومعظمها فى الإسكندرية ، وبعضها الآخر فى غيرها من مدائن شرق البحر الأبيض المتوسط . وكتبوا تواريخ كسفر الأخيار وقصصاً صغيرة كاستر ويهوديت ، وأناشيد للأمر كسفر طوييت . وحول كبار العلماء الكتابة العبرية من النخط الآشورى القديم إلى النخط السورى المربع احتفظت به إلى اليوم (١١) . وإذا كان معظم اليهود فى بلاد الشرق الأدنى يتكلمون وقتئذ الآرامية بدل العبرية ، فقد أخذ علماءهم يفسرون لهم الكتاب المقدس بترجمته إلى الآرامية ، والمتصح المدارس لدراسة أسفار موسى ، والشريعة ، وتفسير القوانين الأخلاقية للشبان الناشئين . وانتقلت هذه الشروح

والتعليقات ، والإيضاحات من المعلم إلى الطالب جيلاً بعد جيل ، فكان منها في العصور التالية معظم المادة التي أجتواها التلمود .

وقبل أن يَخْتَم القرن الثالث كان علماء المجمع العظيم قد فرغوا من نشر الأدب القديم كله وانتهوا من كتب العهد القديم (١٢) . وقد حكموا في ذلك الوقت أن عصر الأنبياء قد انقضى وأن الوحي اللطفي قد انتهى زمنه ، وكانت نتيجة هذا الحكم أن كثيراً مما كتب في ذلك العصر وإن كان مليئاً بالحكمة والحال لم تتج له فرصة السند الإلهي ، فكان نصيبه أن يصبح جزءاً من أسفار الأپكریفا، المنكودة (*) . ولعل بعض أسفارها مدينة بروعتها الأدبية إلى براعة المترجمين في عهد الملك جيمس ، ولكن هؤلاء المترجمين لا يمكن أن يكونوا أصحاب الفضل في تلك العبارات المؤثرة التي تصف سوآلاً للملك أوريل أن يفسر كيف يفلح الخيثنون ويعذب الصالحون ؟ وكيف تكون لإسرائيل أسيرة ذليلة ، فيجيب الملك ، بتشبيهات ومجازات قوية ولكن في عبارات سهلة بسيطة أن ليس من حق الجزء أن يفهم الكل أو يحكم عليه .

وتقول مقدمة سفر الحكمة إن هذا السفر ترجمة يونانية تمت في عام ١٣٢ لأحاديث باللغة العبرية كتبها يسوع بن سيراك جد المترجم قبل ذلك الوقت

(*) أسفار الأپكریفا (ومنها الحرف الخفية) في العهد القديم هي الأسفار التي سبعت من النص اليهودي للعهد القديم الموسى به ، ولكنها اشتملت عليها النسخة الكاثوليكية للكتاب المقدس ، أي الترجمة اللاتينية التي قام بها القديس جيروم للنصوص العبرية واليونانية . وأهم أسفار الأپكریفا في العهد القديم هي سفر الحكمة ، وسفر المكابيين الأول والثاني ، أما أسفار الرؤيا (أي الوحي) فهي التي يقولون إنها تحتوي على الوحي والتنبؤات الإلهية ، وقد بدأ ظهور هذه الكتابات الأخيرة حوالي عام ٢٥٠ ق . م . واستمرت إلى العهد المسيحي . وتعد بعض أسفار الرؤيا كمفر أغنوخ أپكریفة غير معترف بصحتها ، ويعد بعضها الآخر كمف الرؤيا صحيحاً معترفاً بصحته .

ببجليل. وكان يسوع بن سيراك هذا عالماً ورجلاً من رجال الأعمال ، رأى بعض أحوال العالم في خلال أسفاره ثم استقر في بلده واتخذ منزله مدرسة للطلاب ، وألقى عليهم هذه الأحاديث يبين لهم فيها حكمة الحياة (١٣). وهو يندد فيها بأغنياء اليهود الذين خرجوا على دينهم ليكون لهم شأن في عالم الكفار ؛ ويحذر الشباب من العاهرات الواقفات لهم بالمحصاد في كل مكان ، ويعرض عليهم شريعة موسى ويصفها بأنها لا تزال خير هاد لهم وسط شرور العالم ومزاقه . ولكنه ليس بالرجل المتزمت في دينه فلا ينجو نحو « المتقين » بل يجد كلمة طيبة يقولها ليدخل بها السرور البريء على قلب محدثه ، وهو يندد بالمتصوفين الذين يرفضون الدواء بحجة أن المرض مرسل من عند الله ، وأنه لذلك لا يشفيه إلا الله وحده . والكتاب ملئ بالحكم أشهرها كلها الحكمة التي تجمع بين الطفل والعصا . ويقول رينان Renan إن « الشياطين التي يبررها ضاربوها بهذه الحكمة ليخطئها الحصر بلا ريب (١٤) » . والحق أن هذا السفر عظيم وأنه أكثر حكمة ورافة من سفر الجامعة .

وقد ورد في الإصحاح الرابع والعشرين من سفر الحكمة أن « الحكمة أول ما أوجده الله ، فقد خلقها من بداية العالم » . وفي هذا الإصحاح وفي الإصحاح الأول من سفر الأمثال نجد أقدم صورة من صور نظرية « الكلمة » أي الحكمة .. بوصفها خالقاً وسطاً « عهد إليها الله تنظيم العالم . وتشخيص الحكمة بهذه الصورة أي جعلها ذكاء مجسداً يصبح من المبادئ الرئيسية ذات الشأن في الدين اليهودي خلال القرون السابقة لظهور المسيح مباشرة . وإلى جانب هذا ترى فكرة الخلود الشخصي تزداد وضوحاً شيئاً فشيئاً . وفي كتاب أخنوخ الذي كتبه على ما يظهر عدد من الكتاب المختلفين في فلسطين بين عامي ١٧٠ ، ٦٦ قبل الميلاد يصبح الأمل في ملكوت السموات حاجة أساسية ؛ وسبب ذلك أن ما يناله الأشرار من خير وفلاح وما يلقاه الأتقياء والصالحون والأوفياء من سوء المصير لم يعد استطاع تحمله إلا إذا عمرت صدور الناس

بهذا الأمل . وقد بدا للناس أن الحياة والتاريخ إذا تجردا من هذا الأمل كاتا من عمل الشيطان لا من فعل الله . وسينزل مسيح يقيم مملكة السماء في الأرض . ويجزى المتقين بالسعادة السرمدية بعد الموت .

ويجرب سفر دانيال عما كان يسود عهد أنتيوخوس الرابع من هولاء يورعب . فقد حدث حوالي عام ١٦٦ حينما كان المؤمنون يعذبون ويقتلون تمسكهم بدينهم ، وكان الأعداء المزيبلون يهاجون المكابيين ، أن أخذ أحد «المتقين» على الأرجح على نفسه أن يستثير شجاعة الشعب بأن يصف له ما لاقاه دانيال من العذاب ، وما نطق به من النبوءات في بابل أيام نبوخذنصر . وتداولت أيدي اليهود في السر نسخاً من هذا الكتاب ، وقيل عنه إنه من وضع نبي من الأثيناء عاش قبل ذلك العهد بثلاثة وسبعين عاماً ، وأنه لاقى ألواناً من العذاب أشد مما لاقاه أي يهودي في عهد أنتيوخوس ، وأنه خرج منها ظافراً ، وتنبأ بأن شعبه سينال من النصر مثل ما ناله هو ، وقال إنه إذا كان الصالحون والمؤمنون لم يلقوا ما هم خليقون به من السعادة في هذا العالم ، فسوف يتألون جزاءهم الأوفى يوم الحسب ، حين يدخلهم الله في ملكوت السموات ليصنعوا فيها بالسعادة السرمدية ويلقى بمن عذبهم في الجحيم الأبدى .

وجملة القول أن ما نرى من كتابات اليهود في ذلك العهد يمكن وصفه بأنه أدب صوفي خيالي يهدف إلى تعليمهم وتقوية روحهم ومواساتهم . لقد كانت الحياة نفسها كافية لليهود الذين عاشوا قبل ذلك العهد ، ولم يكن الدين وقتئذ طريقاً للفرار من العالم ، بل كان تمثيلاً منسجماً للأخلاق . يشيهر الإيمان ، يصور لهم إلهاً قديراً يحكم كل شيء ويرى كل شيء ، يثيب على الفضيلة ويعاقب على الرذيلة في هذه الحياة الدنيا . ثم زرع «الأسر» هذه العقيدة ، وجددها لإعادة بناء الهيكل ، ثم حطمتها ضربات أنتيوخوس . ووجد التشاؤم الآن الميدان فسيحاً أمامه ، ورأى اليهود في كتابات اليونان أفصح تعبير عن

مظالم الحياة ومآسيتها . وكان اتصال اليهود في هذه الأثناء بأفكار الفرس عن الجنة والنار ، وعن الكفاح بين الخير والشر ، وانتصار الخير في آخر الأمر ، كان هذا كله مما يسر لهم الفرار من فلسفة اليأس ؛ ولعل أفكار الخلود التي انتقلت من مصر إلى الإسكندرية ، والأفكار التي قامت عليها طقوس اليونان الخفية ، اعمل هذه وتلك قد تعاونت على أن تبعث في قلوب اليهود في العصرين اليوناني والروماني ذلك الأمل الذي أبقي على كيانهم خلال الحوادث التي مرت بأشكيل والدولة . ومن هؤلاء اليهود ، ومن المصريين ، والفرس ، واليونان ، سرت فكرة الثواب والعقاب الأبديين إلى دين جديد أقوى من دين اليهود ، وأعانت هذا الدين على أن يضم تحت لوائه عالما كان سائرا في طريق الانحلال .

الفصل الثالث

مناوذر

بلغ التمثيل في ذلك العهد ، كما بلغ غيره من الفنون ، ذروته من حيث كمية الإنتاج ، ولقد كان لكل مدينة بل كاد يكوى لكل بلدة في المرتبة الثالثة دار للتمثيل . وكان الممثلون أحسن تنظيماً مما كانوا في أى عصر سابق ، وكان الطلب عليهم كثيراً ، وكانوا ينالون أجوراً عالية ، ويعيشون من الناحية الخلقية عيشة أرقى من أهل زمانهم . وظل كتاب المسرحيات يكتبون المأسى ، ولكن الدهر أسبل عليهم ثوب النسيان ، سواء كان ذلك من قبيل المصادفات أو كان سببه ارتقاء أذواق الناس . لكن مزاج أثينة الهلنستية ، كمزاج هذه الأيام ، كان يفضل قصص المسلاة الحديثة ، الخفيفة الروح ، الزقة ، العاطفية ، ذات الخاتمة المفرحة . ولم يبق من هذه أيضاً إلا قطع متفرقة ولكن لدينا نماذج منها غير مشجعة في مجتلسات پلوتس Plautus وترنس Terence اللذين ألفا مسرحياتهما بترجمة المسالى الهلنستية ونحويرها . وقد أغفلت في المسالى الجديدة شئون الدولة وشئون الروح العليا التي ألهمت أرسطوفان لأن كتابة هذه المسالى كانت أكثر مما تتحمله طاقة الكتاب الأدبية ؛ وكان موضوعها في العادة مأخوذاً من المنزل أو الحياة الخاصة ، بتعقب الطرق المتلوية التي ترفع بها النساء إلى منزلة الكرامة وتؤدي بالرجال مع ذلك إلى الزواج . وترى فيها الحب يسير في طريق النصر لكنى يصبح أهم شئ على المسرح ؛ وترى مئات الفتيات حائرات بائسات على المسرح ولكنهن ينلن الشرف ويحصلن على لأزواج في آخر المسرحية . ولم يبق وجود للملابس القديمة التي كانت تمثل فيها أعضاء الذكور ، ولا للخلاعة والفجور الأولن ؛ بل كانت تدور القصة في مجال ضيق حول علرة السيدة

المهمة فيها ، ولم يكن للفضيلة فيها شأن كبير كشأنها في الصحف اليومية في هذه الأيام . وإذ كان الممثلون يلبسون أقنعة ، وكان عدد الأقنعة محدوداً ، فإن كاتب المسلاة كان يحيك حبيكته وما فيها من دسائس وخطأ في هوية أشخاص المسرحية حول عدد قليل من الأشخاص البلهاء كان يسر النظارة على اللوام أن يميزوهم بعضهم من بعض . وكانت الشخصيات التي تتكرر باستمرار هي شخصية الأب القاسى ، والشيخ الهرم ، الخير ، والابن المتلاف ، والوارثة التي يخطئ الناس فيظنونها فقيرة ، والجندى الصخاب ، والعبد الخاذق ، والمتملق ، والطفيل ، والطبيب ، والقس ، والفيلسوف ، والطاهى ، والعشيق ، والقواد .

وكان رافعا علم هذه المسلاة الأخلاقية في أثينة في القرن الثالث هما فلمون Philemon و Menander . فأما فلمون فلا يكاد يبق لنا من آثاره شيء سوى صدى شهرته ، وكان الأثينيون يحبونه أكثر مما يحبون مناندر ، وقد منحوا أولهما من الجوائز أكثر مما منحوا الآخر ، ولكن فلمون ارتفع بفن تنظيم المصنفين المأجورين في دار التمثيل إلى ذروته ، وإذ كانت الأجيال المقبلة قد أغفل أمرها ولم يحسب لها حساب في تلك الأجور ، فلما لم تأخذ بحكم هؤلاء المصنفين وقلبته ظهراً لبطن ، ووضعت التاج على عظام مناندر . وكان هذا المؤلف المسرحى الذى يماثل كجريف Cogreve في العصر الحديث ابن أخ كاتب مسرحى آخر غزير الإنتاج هو ألكسيس الثوريانى Alexis of Thuri . تلميذ ثاوفراسطوس وصديق أبيقور . وقد تعلم من أستاذه وصديقه أسرار المسرحيات ، والفلسفة ، وهدوء النفس ، وكاد أن يحقق مثل أرسطو الأعلى ، فقد كان جليلاً ، ثرياً ، يفكر في الحياة في هدوء وحسن إدراك ، ويستمتع بملاذها استمتاع الرجل المهذب . وكان عاشقاً متقلباً ، قنع بأن يجزى جلسراً Glycera على حبها وإخلاصها له بأن يمس اسمها بعضاً الخلود السحرية . ولما عاه بطليموس الأول إلى الإسكندرية بعث فلمون بدلا منه وقال : « إن فلمون

ليست له جلسرا . وصرت جلسرا بذلك أيما سرور ، وكانت قد قاست كثيراً بانتصارها على ملك من الملوك (١٥) . ويؤكد لنا رولة أخباره أنه عاش معها بعد ذلك الوقت وأخلص لها حتى مات في الثانية والخمسين من عمره باعتقال العضلات بينما كان يستحم في بيرية (٢٩٢) (١٦) .

وظهرت مسرحيته الأولى في السنة التي أعقبت وفاة الإسكندر ، كأنها يظهرها في تلك السنة تعلن بداية عهد جديد . وكتب بعد ذلك العام مائة مسلاة وأربعاً ، نالت ثمان منها الجائزة الأولى . وقد بقي من هذه المسرحيات نحو أربعة آلاف سطر كلها قطع منها قصيرة متفرقة ماعدا بردية عثر عليها في مصر عام ١٩٠٥ . وتحتوي هذه البردية على نصف مسلاة المحكمين Epitrepontes وقد هبطت بسمعة مناندر . ولو أننا شكونا من أن موضوعات هذه المسالى مشبعة كموضوعات فنون النحت ، والعمارة ، والحرف اليونانية ، للمهبت شكوانا هذه مع الربيع ، بل ينبغي لنا أن نذكر أن اليونان لم يكونوا يحكمون على المسرحية بالقصة التي تقصها - وهو معيار خليق بالأطفال - بل بالطريقة التي تقصها بها . ومن أجل هذا كان ما يعجب به العقل اليوناني في مناندر هو أسلوبه الأنثيق المصقول ، والفلسفة المركزة في فكاهته ، وتصوير المناظر العادية تصويراً بلغ من واقعيته أن صاح أرسطوفان البيزنطي متسائلاً: أي مناندر ، وأنت أيها الحياة ، ترى أيكما يقلد الآخر ، (١٧) وكان مناندر يرى أنه لم يبق للإنسان شيء في هذا العالم الذي ضاع تحت أقدام الجنود إلا أن يفكر في شئون البشر تفكير الناظر إليها وهو خارج عنها ، يعطف عليها من غير أن يتورط فيها . وهو يلاحظ غرور النساء وتقلهن ، ولكنه يسلم بأن الزوجة العادية نعمة من أجل النعم . وتلور فكرة المحكمين في بعض أجزائها على رفض المعيار المزدوج (١٨) ، ويدور موضوع إحدى المسرحيات بطبيعة الحال حول عاهر مخلص ترفض كما ترفض ذات الكيليا دومباس ، الرجل الذي تحبه ، لكي تتمكن من أن يتزوج زوجاً محترماً بسيدة ينجى من وراء

زواجه بها نفعا^(٢٩) . وفي بعض القطع الباقية من المسرحيات سطور جرت
بجري الأمثال ، منها قوله : « إن أخبار السوء تفسد الخلق الطيب » (وقد نقلها
القدّيس بولس)^(٣٠) ، و « الضمير الحر يخلق من الجبناء رجالا بواسل »^(٣١) .
ومن الناس من يعزو إلى مناندر أصل قول ترنس الشهير : « إني رجل ،
ولا أرى شيئا من مستلزمات الرجولة غريبا عني » . وتعر في كتاباته أحيانا
على لآلئ من الفطنة والفراسة كقوله : « كل شيء يموت إنما يموت
بما يعتربه من فساد ، وكل ما يفسد يفسد من الداخل » وكهذه الآيات التي
تعد أنموذجا صادقا لشعر مناندر ، والتي يتنبأ فيها بموته المبكر :

إن الذين تحبهم الآلهة يموتون صغارا ، طوي للرجل

الذي يرى في اطمئنان هذا الموكب الرهيب

موكب الشمس ، والنجوم ، والبحر ، والنار ، ثم يعود بعد ذلك

مسرعاً إلى بيته وقلبه مطمئن لم يمسسه سوء .

وسواء كانت الحياة قصيرة أو طويلة فإنك بلا ريب

يا هرمينو لن ترى شيئا أحسن

من هذه الأشياء ، إذن فاتخذ مقامك هنا كما

لو كنت ممن يرددون على دور التمثيل أو الأعراس .

كلما أسرعت كان ذلك أضمن لراحتك .

سوف تعود مزوداً بأحسن زاد ، لا عدوك ، قوياً عند الحاجة ،

أما من يبطئ فسيفضي في الطريق منهوك القوى ، تثقله السنون ،

ويلاحقه الأعداء الذين تؤلبهم عليه مناصب الحياة النكدية ،

وهكذا يموت أسوأ ميتة من يبطئ عليه الموت .

الفصل الرابع

ثاوقريطوس

ماتت المسلاة اليونانية ، ومات الأدب الأثيني إلى حد كبير ، بموت فليمون عام ٢٦٢ . نعم إن المسرح قد ازدهر ولكنه لم ينتج من الروائع ما رأى الزمان . أو العلماء أنه خليق بالبقاء ، وأخذ تكرر المسالى القديمة — وخاصة مسالى فليمون ومناندر — يطرد من هذه المسارح التمثيليات المبتكرة . ولما انقضى القرن الثالث خفنت معه روح المجتمع المرح التي أوجدت المسلاة الجديدة وحلت محلها في أثينة النزعة الجدية التي كانت من خصائص المدرسة الفلسفية . وحاولت مدن أخرى وخاصة مدينة الإسكندرية أن تنقل إليها غروس فن التمثيل ولكنها لم توفق .

وجدت المكتبة الكبرى والعلماء الذين اجتذبهم إليها نفحة الأدب الإسكندري . فكان لأبد للكتب أن تتفق مع أذواق القراء المتعلمين الناقدين التي « سفسطها » العلم والتاريخ . وحتى الشعر نفسه أضحى شعرا علميا وحاول أن يستر ما فيه من ضعف الخيال بالإشارات الغامضة والتلاعب الدقيق بالألفاظ . وأخذ كلمكس يكتب تراويل ميته لآلهة ميته ، ونكات شعرية طريفة تلتهم يوما واحدا ، ومدائح تتم عن فطنة وروية مثل خصلة برنيس The Lock of Bernice وقصيدة إرشادية عن الأسباب (Aitia) وهي قصيدة تحتوي على كثير من المعارف العلمية في الجغرافية ، والأساطير ، والتاريخ ، وعلى قصة من أقدم قصص الحب في الأدب . ومضمون هذه القصة أن بطلها أكنتيوس Acontius فتي بارع الجمال إلى درجة لا يصدقها العقل ، وأن سيدى Cydippe ذات جمال مفرط ، ويلتقى الفتى والفتاة فيتحابان من أول نظرة ، ويقف في سبيل هذا الحب أبواهما الشرهان المحبان للمال ، فيهددانهما .

تلك هي القصة التي رواها ملايين من الشعراء والقصاصين منذ ذلك العهد ،
والتي سيظل يرونها ملايين آخرون من هؤلاء وأولئك في مستقبل الأيام .
غير أننا نجد بنا أن نضيف إلى هذا أن كلمكس يعود في إحدى مقطوعاته
إلى الأخواق اليونانية المألوفة :

اشرب الآن وأحب يا ديمقراطيس Democrates ؛ لأننا
لن نجد بعد خمرأ أو غلمانا إلى أبد الآبدين (٢٤) .

وكان منافسه الوحيد في القرن الذي عاش فيه هو تلميذه أبلونيوس
الروديسي . ولما أن سطا هذا التلميذ على أشعار أستاذه ونافسه عند البطالمة ،
أخذ الرجلان يتنازعا بالعمل وبالكتابة تنازعا أدى إلى عودة أبلونيوس إلى
رودس ، حيث برهن على شجاعته بأن كتب في عصر يفضل الإيجاز على
الإطناب ملحمة متوسطة البقينة هي ملحمة الأرجو نوتكا Argonautica .
ولم تزل هذه الملحمة من عناية كلمكس أكثر من نكتة شعرية قصيرة هي قوله :
« إن الكتاب الكبير شر مستطير » - وهو قول يستطيع القارئ أن يجد شاهدا
عليه في الكتاب الذي بين يديه . وكوفي أبلونيوس على عمله في آخر الأمر
فنال المنصب الذي كان يطمح فيه وهو منصب أمين مكتبة الإسكندرية ،
وأقبح فوق هذا في إقناع بعض معاصريه أن يقرؤوا ملحمة . ولا تزال هذه
الملحمة باقية إلى الآن ، وفيها دراسة فلسفية ممتازة لحب ميديا ، ولكنها ليست
من الملاحم التي لا غنى عنها لطالب العلم الحديث (٢٥) .

وتتم نشأة شعر الرعاة عن قيام حضارة مدنية غير ريفية، ويكاد هذا الشعر
أن يجاري تلك الحضارة خطوة فخطوة . ذلك أن لليونان في القرون الأولى من
تاريخهم لم يقولوا إلا النزر اليسير عن جمال الريف لأن معظمهم كانوا يعيشون
من قبل إما في الضياع نفسها أو قريبين منها ، وكانوا يعرفون ما في الحياة

(٢٤) وقد نسج فرجيل في الإلياذة حل منوالها في شكلها ، وفي مادتها أحيانا ، وحاكاها
أحيانا سطرأ سطرأ .

الريفية وعزلتها من صعب ، كما يعرفون ما فيها من هدوء وجمال . وما من شك في أن الإسكندرية البطالمة كانت حارة متربة كإسكندرية هذه الأيام ، ولهذا فإن من كان يقيم فيها من اليونان كانوا يعودون بذكرياتهم إلى تلال بلادهم الأصلية وحقوقها ، ويتخيلون هذه التلال والحقول المثل الأعلى في جمال المنظر ؛ فكانت المدينة العظيمة والحالة هذه هي المكان الموحى بالشعر الرعوى . وأقبل عليها حوالي عام ٢٧٦ شاب جرىء يحمل ذلك الاسم الطريف وهو ثاوقريطوس . وكان قد بدأ حياته في صقلية ، وقضى بعدئذ جزءاً منها في كوس ، ثم عاد إلى برقوقسة يسعى إلى رفد هيرودس الثاني ، ولكنه لم يوفق ؛ غير أنه لم ينس قط جمال صقلية ، وجبالها وأزهارها ، وسواحلها وخلجاتها ، فلما انتقل بعدئذ إلى الإسكندرية أنشأ قصيدة في مدح بطليموس الثاني نال عليها رضاء البلاط وهو رضاء قصير الأجل . ويبدو أنه ظل بضع سنين يعيش بين رجال البلاط والعلماء ، بينما كانت الصور الجميلة التي يرسمها لحياة الجبال تحببه إلى سوفسطائي العاصمة . وتصف قصيدته بركسنوا Praxinoa ما يلقاه الإنسان في شوارع الإسكندرية المزدهجة من هول وفزع :

رباه : ما أكثر أولئك الغوغاء ! ليس في وسعي أن أنصور
كيف نستطيع أن نشق طريقنا ، أو كم من الزمن يلزمنا لكي نشقه فيها ؛
إن عش النمل لا يعد شيئاً إلى جانب هذا المهرج والمرج . . .
أي جرجون Gorgon ، يا عزيزي ، أنظر ! — ماذا في مقدورنا أن نفعل ؟
أولئك هم فرسان الملك ! لا تطوئونا بسنابك خيولكم !

أونوا Eunoa ، تنحى عن طريقهم (٣) !

وكيف يستطيع رجل له نفس شاعر وذكريات صقلية أن يكون سعيداً في هذه البيئة ؟ لقد كان يمدح الملك لكي يستطيع العيش ، ولكنه كان يغذى رومة بما في مخيلته من صور جزيرته الأصلية ، ولعله كان يغذيها أيضاً بصور جزيرة كوس ؛ وكان يحسد الراعي على حياته البسيطة ويتخيله وهو يخطو وراء قطعائه

المادثة الوديعه فوق منحدرات التلال المعشوشبة المطلة على البحار المشمسة . وقد آثم وهو في هذه الحالة نشيد الرعاة — الإيدليون *eidyllion* أو الصورة الصغيرة — ووصفه ذلك الوصف الذي لا يزال مخففاً به إلى الآن ، وهو نقش رينى أو قصة شعرية . وليس في الاثنين والثلاثين مقطوعة التي وصلت إلينا من أشعار ثاقريطوس إلا عشرة أناشيد رعوية ، ولكن هذه الأناشيد العشرة قد طبعت ذلك الاسم الذى يشملها جميعاً بطابع نصف رينى . وبهذه الأناشيد يدخل وصف الطبيعة آخر الأمر في الأدب اليونانى ، وهو لا يدخله دخول الإلهة فحسب ، بل يدخله كذلك دخول معالم الأرض الحية المحيية إلى النفوس . ولم ينقل الأدب اليونانى قبل ذلك العهد ، يمثل هذا الشعور الحى ، الإحساس الخلقى بالصلة التى تربط في النفس حب الصخور والحداول ، والماء والأرض والسماء ، والاعتراف بفضلها على بنى الإنسان .

يبد أن موضوعاً آخر يتقد في قلب ثاقريطوس إلى أعماق أبعد من التى يتقد إليها الشعر الرعوى — ذلك هو موضوع الحب . ولكنه وهو لا يزال يونانياً رغم بعده عن بلاد اليونان ، ينشئ أغنيتين شعريتين (الثانية عشرة والتاسعة والعشرين) في الصداقة الجنسية بين الغلمان ، ويقص قصصاً واضحة جياشاً بالعاطفة قصة هرقل وهيلاس *Hylas* (الأغنية الثالثة عشرة) ، وكيف « قاوم الجبار وحشية الأسد ، وأحب شاباً ، وعلمه ، كما يعلم الأب ابنه ، كل ما يستطيع به أنه يكون رجلاً طيباً ذائع الصيت ، ولم يكن يفارق الغلام في مطلع الفجر ، أم وقت الظهيرة أو في المساء ، ولكنه كان يعمل دائماً على أن يشكله بالصورة التى يحب من صميم قلبه أن يكون عليها ، وأن يجعله رفيقه الحقيقى ، يماثله في أعماله العظيمة » . وثمة أناشود أشهر من الأناشود السابقة (الأناشود رقم ١) وهى التى تعيد على مسامعنا قصة دفتيس *Daphnis* لاسنكسورس الراعى الصقلى الذى زمر وغنى زميراً وأغانى بلغ من جماله أن جعلته الأفاصيص

الخرافية مخترع شعر رعاة البقر . وخلاصة القصة أن دفينس ظل وقتاً ما يراقب قطعانه ، ويحسدها على مرحها وحبا ، حتى إذا ما نبتت الشعرة الأولى على شفته هامت بحبه لإحدى جوار الغاب المقدسات . وتزوجت به . ولكنها تقاضت منه ثمن حبا بأن جعلته يقسم ألا يحب قط امرأة غيرها . وحاول جهده أن يبر بقسمه وأفلح في هذا إلى أن افتتنت ابنة أحد الملوك بشبابه وأسلمت نفسها له في الحقول . وأبصرت هذا أفرديتي ، وانتقمت لزميلتها الإلهة بأن جعلت دفينس يذوب قلبه وجسمه من الحب غير المستجاب . فلما مات أوصى بمزمارة إلى بان pan في أغنية يضيف إليها صاحب القصة قراراً موسيقياً يردده بعد كل مقطوعة في الأغنية :

« أقبل يا سيدي ، وخذ هذا المزمارة الجميل
المغمور في الشمع الذي لا تزال تفوح منه رائحة الشهيد
والمربوط عند الشفتين بالخيط . ذلك أن حبي قد أقبل
ليناديني إلى بيت الأموات » .
يا ربات الشعر أقلعي ، أقلعي عن نشيد الرعاة
« والآن فليخرج العوسج والحسك . أزهار ،
البنفسج ، وليزهر الارجس ،
فوق العرعر ، ولتتكب كل الأشياء طريقها سوى .
وليثمر الصنوبر الكثير ، لأن دفينس سوف يموت .
ولتطارد الوعول كلاب الصيد ، وليطرد البوم الناعق
العندليب من التلال »

يا ربات الشعر أقلعي ، أقلعي عن نشيد الرعاة
« قال هذا - ثم لم يقل شيئاً . وكان يود أفرديتي
أن ترفعه ، ولكن ربات الأقدار
قطعت حبل حياته ، فهوى دفينس

في نهر الموت وجرفه التيار ، وانقلل الدحور على رأسه
رأس من كانت تحبه ربات الشعر بأجمعها
رأس من لم تغضب منه حور الغاب «
يا ربات الشعر ، ألقى ، ألقى عن نشيد الرعاة (٢٧) .

وتواصل الأنشودة الثانية موضوع الحب ، ولكنها تواصله في نغمة أعنف
من هذه النغمة . وتقص كيف أغوى دلفيس Delphis سميثا Simaetha علماء
سرقوسة ثم هجرها فأخذت تستثير حبه بالتعاويد ، ورحيق العشاق ، وتقول إنها
اعتزمت أن تتجرع السم إذا عجزت عن كسب حبه . وتقف تحت النجوم
وتصف لسيليني Selene إلهة القمر ما دب في قلبها من الغيرة حين رأت دلفيس
يسير مع رفيقته :

وماكدنا نصل إلى منتصف الطريق عند مسكن ليكون Lycon
حتى شاهدت دلفيس مقبلا مع أودانوبوس Eudanippus
وكانت وجنات الفنى والفتاة وذقناهما
أنصع بياضا من القسوس حين يكمل نماؤه
نعم ، وصدرهما أكثر تلالوا منك يا سيليني ،
يدلان على أنهما قد أقبلتا من كدح المصارعين الثليل .
فكرى في حبي ، وفكرى من أين جاء ، أنت ياسيدة سيليني .
فلما رأيتهما ، استشعلت غضبا ، واتقدت نار الغيرة في صدرى
فاكتوى بنار الحب الضائع قلبي . وذبل جمالي ولم أعد
أرقب المراكب حين تمر ، ولم أدر كيف عدت إلى دارى
لأن آفة كريهة ، أو مرضاً لافحا ، قد قضى على ،
وظللت أربعة أيام مسجى على فراشى وعشر ليل قضيتها في ألم ممض .
فكرى في حبي ، وفكرى من أين جاء ، أنت ياسيدة سيليني

وكثيراً ما جفت نضرة جسمي واصفرت كالهشيم الخاف ،
أجل وتساقط شعر رأسي ، وكل ما كنته قبلاً
لم يبق منه إلا جلد وعظم ، وما من إنسان إلا لحأت إليه ،
وما من طريق قامت فيه عجوز شمطاء تتلو فيه رقية حب إلا سلكته .
لكنني لم أجد عزاء ، ومرت الأيام سراعاً .
فكرى في حبي ، وفكرى من أين جاء ، أنت ياسيدة سيليني
والأنشودة الثانية تصل بنا إلى الخورية أمرلس Amaryllis ومفاتها البعيدة
المنال ، وتصل بنا الزابعة إلى الراعي كريدون Corydon والسابعة إلى لسداس
Lycidas راعي المعز الشعري- وتلك كلها أسماء قد تغنى بها آلاف الشعراء من
فرجيل إلى تينسن Tennyson . ولقد أصبح أولئك الشعراء الريفيون مثلاً علياً
ينطقون بأجمل الأشعار اليونانية ، وفي وسع كل منهم أن يقرض أبياتاً سداسية
الأوتاد أجمل من أبيات هومر ؛ ولكننا قد علمنا أن تراثهم ، الذي لا يكا ديدرك
العقل بحاله كأنه تقليد مألوف ، متوسط القدر حين نستسلم إلى ما في أغانيهم من
نغمة حزينة . بيد أن ثاو قريطوس بعيدهم إلينا أشخاصاً واقعيين يحدثنا عن
ثيابهم التي تفوح منها رائحة أجسامهم ، وحين يذكر لنا فحش أفكارهم ؛
ذلك أن في فكاهاتهم من الفجور ما يحيط بعض الشيء من رقيق عواطفهم
فيجعلهم أناساً حقيقيين . وجملة القول أن هذا الشعر أكمل شعر يوناني كتب
بعد يورپديز ، وهو دون غيره من الشعر الهلنستي الباقي إلى يومنا هذا الشعر
الذي تسرى فيه أنفاس الحياة .

الفصل الخامس

بولبيوس

إذا كان العصر الهلنسى لم يلهم إلا شاعراً واحداً ، فإنه قد أخرج مقداراً من الثمر مختلف الأنواع لم يخرج مثله عصر آخر قبله . فليه ابتدغ التحدث الخيالى وابتدعت المقالة ، وذاترة المعارف ، وواصل فيه الكتاب لإخراج التراجم القصيرة الواضحة ، وأضاف الأدب اليونانى فى العهد الرومانى الذى تلا هذا العهد الذى تتحدث عنه الموعظة والرواية القصصية . أما الخطابة فكانت فى دور الاحتضار لأنها كانت تعتمد على النزاع السياسى ، والتقاضى أمام المحاكم الشعبية ، وعلى حق الناصر الديمقراطى فى أن يتكلموا ، وأصبحت الرسالة الأداة المحبوبة لنقل الأفكار سواء فى التخاطب أو فى الأدب ، وفى هذا العصر تقرررت صور الرسائل وعباراتها التى نجدتها فى أقوال شيشرون ، بل تقرررت أيضاً الديباجة الشهيرة التى كان يستمسك بها أجدادنا ويجلوونها : « أرجو أن يضللك هذا و أنت بخير كما تركنى » (٢٨) .

وازدهرت كتابة التاريخ ، فقد كتب بطليموس الأول ، وأراتوس الآخى وپيرس الإپروسى مذكرات عن حروبهم ، فوضعوا بذلك تقليداً بلغ غايته فى قيصر . وكتب مانيتون الكاهن المضرى الأكبر باللغة اليونانية حوليات مصر Aigyptaka التى جمعت الفراعنة بطريقة تعسفية إلى حد ما فى أسر مالكة لاتزال هى التقسيم المتبع حتى اليوم . وأهدى بروسس كبير الكهنة الكلدان إلى أنتيوخوس الأول تاريخاً لآبال معتمداً على السجلات المشاورية . وأدهش مجسثينز Megasthenes سفير سلوقس الأول لدى شنندراجوبتا موريا Chandragupta Mourya العالم اليونانى بكتاب عن الهند أخرجه حوالى عام ٣٠٠ . وجاء فى فقرة موحية من هذا الكتاب : « إن بين البراهمة طائفة من الفلاسفة ... »

تعتقد أن الله هو الكلمة ، وهم لا يقصدون بها الكلام المنطوق بل يقصدون حديث العقل (٣٩) . وهنا أيضاً نجد عقيدة الكلمة التي قدر لها أن تكون ذات أثر عميق في الدين المسيحي . وقام تيموس الترومنيوس *Timoeus of Tauromenium* بعد أن نفاه أجثكلز *Agathocles* من صقلية (٣١٧) برحلات واسعة في أسبانيا وغالة ، ثم ألتي عصا التسيار في أثينة وكتب فيها كتاباً عن صقلية وعن الغرب . وكان طالباً مجداً ، بلغ من حرصه على أن يدون في كتابه هذا كل شيء أن لقبه بعض منافسيه « جامع الأسماك العجوز » (٣٠) . وقد بذل غاية جهده في أن يصل إلى تواريخ صحيحة للحوادث التي رواها ، حتى عثر على طريقة تأريخ هذه الحوادث بلورات الألعاب الأولمبية . وكان شديد النقد لمن سبقه من المؤرخين ، وكان من حسن حظّه أن مات قبل أن يشهد هجوم بوليبيوس الوحشي على كتابه (٣١) .

وأعظم المؤرخين في العصر الهلنستي واليوناني ، والمؤرخ الوحيد الخالق بأن يوضع إلى جانب هيرودوت وتوكيديدس ، هو بوليبيوس . وكان مولده في أركاديا عام ٢٠٨ . وكان والده ليكورتاس *Lycortas* أحد زعماء العصبة الآخية ، لقد اختير في مهمة سياسية في رومة عام ١٨٩ ، وعين اسرتيموس في عام ١٨٤ . ونشأ ابنه في الجو السياسي ، ودرب للجنسية بإشراف فيلوبيمين ، واشترك في حروب الرومان ضد الغالين في آسية الصغرى ، وسافر مع والده في بعثة سياسية إلى مصر (٢٨٠) ، واختير ليكون قائداً لفرسان العصبة الآخية (هباركوس *Hipparchos*) في عام ١٦٩ (٣٢) ، لكن تفوقه هذا قد نجر عليه كثيراً من المتاعب : ذلك أنه حين أراد الرومان أن يعاقبوا العصبة الآخية لتأييدها برسوس ضدهم أخذوا ألفاً من زعماء الآخيين رهائن إلى رومة ، وكان منهم بوليبيوس (١٦٧) . وظل في المنفى ستة عشر عاماً يعاني فيها آلام النفي ، ومنها كما يقول هو نفسه « ضياع الروح المعنوية والشلل العقلي الذي بلغ أقصى حد » (٣٣) . ولكن سبيرو الأصغر بذل له مودته ، وضمه إلى الدائرة السيونية التي كانت تشمل الرومان المتعلمين ، وأقنع مجلس الشيوخ :

حين كان يشقت غيره من المنفيين في أنحاء إيطاليا ، أن يسمح بأن يعيش
بوليوس معه في رومة . ورافق سيبو في كثير من الوقائع الحربية ، وأسدى
إليه نصائح عسكرية قيمة ، وارتاد له سواحل أسبانيا وأفريقية ، ووقف إلى
جانبه حين أحرق رومة (١٤٦) . وكان قبل ذلك قد نال حريته في عام ١٥١ ،
واختير في عام ١٤٩ ليمثل رومة في تنظيم الوفاق الذي تم بين المدن اليونانية
وبين مجلس الشيوخ الروماني ، سيدها البعيد عنها ، وما من شك في أنه قد قام
بهذا الواجب البغيض على خير وجه ، لأن كثيراً من المدن قد كرهته بإقامة
أنصاب تذكارية له ، وإن لم يكن في وسع الإنسان أن يعرف متى يشعر الناس
بفضل أحد عليهم . وبعد أن عاش بوليوس ستين عاماً في جد متواصل اعتزل
هذا النوع من العمل ليكتب كتبه الثلاثة : رسالة في الفنون العسكرية ، وحياة
فيلوديمين ، وكتاب التواريخ الضخم . ومات كما يموت السادة الأشراف ،
فقد سقط عن ظهر جواده وهو عائد من رحلة صيد ، بعد أن بلغ الثانية
والثمانين من العمر .

ولسنا نعرف قط رجلاً كتب التاريخ مستنداً إلى أوسع مما استند إليه
بوليوس من علم ، وأسفار ، وتجارب . وكانت الخطة التي وضعها لكتابه
خطة واسعة النطاق ، فلم يكن يقصد أن يكتب تاريخ بلاد اليونان فحسب ، بل
كان يبغي كتابة تاريخ « العالم كله » (أى أمم البحر الأبيض المتوسط) من عام
٢٢١ إلى ١٤٦ ق . م . « تلك هي الخطة التي وضعها ، ولكن كل شيء يتوقف على
ما تحبوني به الأقدار من حياة تطول حتى أخرجها إلى حيز الوجود » (٣٤) . وكان
يشعر بحق أن رومة هي مركز دائرة التاريخ السياسي في الفترة التي يريد أن
يوثقها ، ولهذا أسبغ على كتابه وحدة جامعة إذ جعل رومة محور حوادثه ،
ودرس بتشوف الرجل الدبلوماسي الوسائل التي استخدمتها رومة ، والتي
تدعى كما يدعى البريطانيون أن الظروف هي التي ساقها لها على غير قصد
منها ، للسيطرة على عالم البحر الأبيض المتوسط (٣٥) . وكان شديد الإعجاب

بالرومان ، لأنه شاهدتهم في عصر مجدهم ، ولأن أكثر من عرفهم منهم هم خيرهم في جماعة سيبو . وكان يشعر أنهم يتصفون بتلك الصفات التي لا توجد في الخلق ولا في الحكم اليوناني ، والتي كان عدم وجودها في اليونان سبباً في القضاء عليهم . وإذا كان هو من أبناء الأشراف وكان صديقاً للأشراف ، فإنه لم يكن يعطف قط على المراحل المتأخرة من الديمقراطية اليونانية التي لم تكن في رأيه غير حكم الفوضى . وكان التاريخ السياسي يبدو له دورة متكررة من الملكية المطلقة (أو الدكتاتورية) ، والأرستقراطية ، والأجركية ، والديمقراطية ؛ ثم الملكية المطلقة مرة أخرى . وكانت خير طريقة في رأيه للنجاة من هذه الدورة هي طريق « الدستور المختلط » الشبيه بدستور ليقورغ أو دستور رومة — وهو الذي يقضى بوجود مواطنين يستمتعون بحقوق سياسية ولكنها حقوق محدودة ، ويختارون كبار الموظفين ، ولكن سلطانهم يحدد سلطان مجلس الشيوخ الأرستقراطي الدائم (٣٧) . وكانت هذه النظرة هي التي اهتمت بها في كتابة تاريخ عصره .

ويوليوس هو « مؤرخ المؤرخين » لأنه يهتم بطريقة كما يهتم بموضوعه . وهو يميل إلى التحدث عن الخطة التي يسير عليها ، ويعتمد إلى التفلسف في كل فرصة متاح له . وهو يصور مؤهلاته على أنها خير المؤهلات ومثلها الأعلى ، ويصر على أن التاريخ ينبغي أن يكتبه أولئك الذين رأوا بأعينهم — أو استشاروا غيرهم ممن رأوا بأعينهم — ما يصفونه من الحوادث . يندد بتياوس لأنه اعتمد على أذنيه بدل اعتماده على عينيه ، ويتحدث بفخر وإعجاب عن أسفاره في البحث عن المعلومات ، والوثائق ، والحقائق الجغرافية ، ويذكر لنا كيف اخترق جبال الألب وهو عائد من أسبانيا إلى إيطاليا من نفس الممر الذي اخترقه هنيبال ، وكيف نزل إلى نهاية إصبع قدم إيطاليا ليحل رموز نقش تركه هنيبال في بروتيوم (٣٨) . ويقول إنه يعتزم أن يجعل تاريخه دقيقاً بقدر ما تسمح به « ضخامة عمله ، والطريقة الشاملة التي عالج بها » (٣٩) . وهو في تاريخه رجل عقل الزعة واقعي ، ينفذ فكره في ألفاظ الدبلوماسيين

الأخلاقية ليعرف ما تهدف إليه خططهم من اعتراضات حقيقية ، ويسره أن يدرك كيف يخدع الناس بسهولة أفرادا كانوا أو جماعات ، ويخدعون أكثر من مرة ، بنفس الحيل والأساليب التي خدعوا بها من قبل^(٤٠) . ويقول في عبارة شائقة استبق بها مبادئ مكيفلي : « قلما يتفق العمل الخير مع العمل النافع ، وما أقل من يستطيعون الجمع بين العاملين والتوفيق بينهما »^(٤١) . وهو يقبل عقيدة الرواقين الدينية التي تقول بوجود قوة إلهية مدبرة ولكنه يختلف مجرد عطف على العلقوس الدينية السائدة في عصره ، ويسخر فداحكا من عقيدة تدخل القوى غير الطبيعية في شئون العالم^(٤٢) . ويعترف بما للصادقات من شأن في التاريخ ، وما لعظماء الرجال من أثر فعال في بعض الأحيان ، ولكنه لا يتردد في أن يكشف عن تسلسل العلل والمعلولات تسلسلا حقيقيا خارجا في كثير من الأحيان عن إرادة الآدميين ، وبذلك يكون التاريخ مصباحا مضيئا للعقول في الحاضر والماضي^(٤٣) . « ليس شيء أسرع تصحيحا لسلوك الناس من معرفة الماضي » و « خير تعليم وإعداد للحياة السياسية الشيطة هو دراسة التاريخ »^(٤٤) ، « والتاريخ ، والتاريخ وحده ، هو الذي ينضج عقولنا ، ويهيئنا للنظر إلى الأشياء نظرة صحيحة مهما تكن الأزمات أو سير الحوادث »^(٤٥) . وهو يرى أن خير طريقة لفهم التاريخ هي أن ينظر إلى حياة الأمة على أنها وحدة عضوية ، ثم تضم قصة كل جزء من أجزائها إلى تاريخ حياة الأمة بأجمعه . والذي يعتقد أنه إذا درس التواريخ منفصلة بعضها عن بعض يستطيع أن ينظر نظرة صحيحة إلى التاريخ بأجمعه ليشبه في رأيه ذلك الرجل الذي نظر إلى أطراف حيوان كان من قبل حيا وجميلا ، ثم يتصور أنه كان شاهد بعينه الحيوان نفسه في جميع حركاته وأدرك ما فيها من رشاقة وجمال »^(٤٦) .

وقد أبى الدهر على خمسة من الكتب التي قسم إليها پوليبوس تواريقه ، وأنجب المختصرون قطعاً متفرقة قيمة من الكتب الباقية . ومما يؤسف له أشد

الأسف أن إخراج هذه الفكرة العظيمة إلى حيز الوجود قد أفسدته لغة ذلك الوقت اليونانية الفاسدة ، ونقده المرلغيره من المؤرخين ، واقتصاره تقريباً على شئون الحرب والسياسة ، وتقسيمه قصته تقسيماً سخيفاً إلى دورات أولمبية ، وكتابة تاريخ جميع أمم البحر الأبيض المتوسط في كل دورة . مقدارها أربع سنوات ، وما أدى إليه ذلك من استطرادات مملة ومن انعدام التسلسل إلى حد يحير القارئ ويضله . ويسمو پوليبوس في قصته أحياناً إلى البلاغة المسرحية ، ولكنه يتجنب بشدة الأسلوب الخطابي المزخرف الذي كان شائعاً بين من سبقوه مباشرة من الكتاب ، حتى أنه ليفخر بثقل أسلوبه وخلوه من الهجة^(١٨) . وفي ذلك يقول أحد النقاد الأقدمين . « لا أعرف قط رجلاً قرأ كتابه من أوله إلى آخره »^(١٩) . ولقد كاد العالم أن ينساه ، ولكن المؤرخين سيظلون دهرأ طويلاً بدرسون كتابه لأنه كان من أعظم أصحاب النظريات في كتابة التاريخ وأعظم من طبقوها في كتاباتهم ، ولأنه جروؤ على أن يكون واسع الأفق في كتابه ، وأن يكتب « تاريخاً عاماً » ، ولأنه فوق هذا وذاك أدرك أن الحقائق وحدها لا قيمة لها إلا مع شرحها وتفسيرها ، وأن الماضي لا قيمة له إلا من حيث هو جذورنا المتأصلة والضوء الذي ينير لنا حاضرنا ومستقبلنا .

الباب السابع والعشرون

الفن في عهد التشت

الفصل الأول

موضوعات أشتات

لقد تأخر اضمحلال الحضارة اليونانية من ناحية الفن زمنا طويلا . ففي هذه الناحية لا يقل ازدهار العصر الهلنستي ، في خصوبة الإنتاج وفي الابتكار ، عن ازدهار أى عصر آخر في التاريخ . وما من شك في أن الفنون الصغرى لم يطرأ عليها شيء من الاضمحلال ، وأن مهرة الصناعات في الخشب والعاج والفضة والذهب انتشروا في جميع أنحاء العالم اليوناني الذي اتسعت رقعته . وفيه بلغ الحفر على الجواهر والنقود أعلى درجاته ، وكان الملوك الهلنستيون في البلاد الممتدة إلى بكتريا يحلون نقودهم بالكثير من النقوش ، ولسنا نبالي إذا قلنا إن القطعة ذات العشر الدرختات من نقود هيرون الثاني كانت أجمل ما رآته العين في فن المسكوكات الذي سجله التاريخ . واشتهرت الإسكندرية بمن فيها من صائغي الذهب والفضة ، الذين لم يكن فنههم يقل جمالا عن أسلوب شعرائها الذين لا تشوبه قط شائبة ، كما اشتهرت بأحجارها الثمينة وأصدافها ذات النقوش البارزة الملونة ، وبخزفها الأخضر والأزرق ، وبفخارها المغطى بطبقة زجاجية بديعة ، وبزجاجها الكثير الألوان ذي النقش الدقيق الجميل . ويتجلى هذا الفن بأجلى مظاهره في مزهرية بورتلاند portland وهي في أغلب الظن من صنع الإسكندرية ، فقد نُقشت عليها صور رشيقة محفورة في طبقة زجاجية ناصعة البياض في لون اللبن الصافي فوق جسم من الزجاج الأزرق . وما أشبه هذه

الصحفة في الزمن القديم بتحف جوسيا ودجود في الزمن الحديث (*) .

وظلت الموسيقى شائعة بين جميع طبقات السكان ، وتبدلت فيها السلام والأنغام في اتجاه الرقة والحدة^(١) ؛ وأدخلت الأنغام الناشئة القصيرة في النغمات المتوافقة ؛ وازدادت الآلات والتأليف الموسيقية تعقيداً^(٢) . وكبرت « زمارات بان » القديمة حوالى عام ٤٢٠ في الإسكندرية حتى صارت مجموعة من الزمارات البرنزية ، وحسن تسيبوس حوالى عام ١٧٥ هذه الآلة فجعلها أرغناً يدار بالماء والهواء مجتمعين ويجعل في مقدور العازف أن يحدث به نغمات من الصوت جد طويلة . ولسنا نعرف عن تركيب هذه الآلة أكثر مما ذكرنا ، ولكننا نرى كيف تطورت تطوراً سريعاً في أيام الرومان حتى صارت هي أرغن المسيحية وأرغن هذه الأيام^(٣) . وكانت الآلات تجتمع فيكون منها جوقة العازفين ؛ وكانت ألحان من الموسيقى الآلية الخالصة مكونة في بعض الأحيان من خمس حركات تغزف في ملاهى الإسكندرية وأثينة وسرقوسة^(٤) . ونال عدد من مهرة الموسيقيين شهرة واسعة وأصبحت لهم مكانة اجتماعية تتناسب مع أجورهم العالية . وفي عام ٣١٨ كتب أرسطكسنوس Aristoxenus التاراسى ، تلميذ أرسطو ، رسالة صغيرة تدعى قواعد الألحان صارت هي النص القديم الذى يرجع إليه في النظريات الموسيقية . وكان أرسطكسنوس هذا رجلاً جاداً ، لم يستغ كما لم يستغ معظم الفلاسفة موسيقى زمانه . ويروى عنه أثينيوس قوله في عبارات سمعها أجيال كثيرة من بعده : « بعد أن طغت البربرية على دور التمثيل ، وبعد أن فسدت الموسيقى وقضى عليها القضاء الأخير ، وأصبحنا نحن أقلية صغرى في هذا الزمان ، نستعيد في عقولنا ، ونحن جالسون بمفردنا ، ما كانت عليه الموسيقى في الأيام الخالية »^(٥) .

أما عمارة العصر الهلنستى فليس لها وقع في نفوسنا لأن الدهر قد عدا عليها

(*) وقد سميت كذلك نسبة إلى دوق پورتلاند الذى جاء بها إلى رومة . وهى الآن في المتحف البريطانى .

فسواها بالأرض وناصبها العداء بلا تفريق بين بعضها والبعض الآخر . غير أننا نستدل من الأدب ومن آثارها ، على أن فن العمارة اليوناني انتشر في هذا العصر من يكتريا إلى أسبانيا . ولقد نشأ من التأثير المتبادل بين بلاد اليونان والشرق خليط من الأنماط : فغزت الأروقة المعمدة والعارضة الراكزة داخل آسية ، ودخلت الأقواس والعقود والقباء بلاد الغرب . ففي ديلوس نفسها ، وهي المركز اليوناني القديم ، قامت تيجان العمدة المصرية والفارسية . وقد بدا الطراز الدوري جامداً كثيباً في عصر أولع بالركة والزينة ، ولهذا أخذ يختن من مدينة لآثر مدينة ، في الوقت الذي أخذ فيه الطراز الكورنثي المزخرف يرقى حتى بلغ ذروته . وكانت الزعقة الدنيوية في الفن تجارى في سرعة تقدمها الزعة الدنيوية في نظام الحكم ، وفي الشرائع والأخلاق ، والآداب ، والفلسفة ؛ وأخذت العمدة المقامة حول البيوت ، والمداخل الواسعة ، والأسواق ، ودور القضاء ، وقاعات الجمعيات الوطنية ، ودور الكتب والمثيل ، ومدارس التدريب الرياضي ، والحمائم ، أخذت هذه العمدة تحمل محل المعابد ؛ وكانت قصور الملوك أو الأفراد ميدانا جديداً ظهر فيه فن التخطيط والزخرف اليوناني . وصارت مداخل البيوت تزدان بالرسوم ، والتماثيل ، والنقوش على الجدران ، كما أخذت الحدائق الخاصة تحيط بالبيوت الواسعة الفخمة . وأنشئت للملوك بساكن وحدائق ، وبحيرات ، ومرادقات في حواضر البلاد ، وكانت تفتح عادة للجاهل . وتطور فن تخطيط المدن ليجارى فن العمارة ، فخططت الشوارع على طراز هبودامس Hippodamus الرباعى ، وكان منها شوارع رئيسية لا يقل عرضها عن ثلاثين قدما — وهو عرض يتناسب مع الخيل والمركبات الهى كانت وسائل النقل في تلك الأيام . وكانت مدينة أزمير تزدهر بشوارعها المرصوفة^(٦) ، ولكن أكبر الظن أن معظم شوارع المدن الهلنستية كانت أرضا معبدة تعرف مساوى التراب والطين .

وكررت المباني الحميلة كثرة لم يكن لها مثيل من قبل ؛ ففي أثينة شيدت في

القرن الثانى العدد الكورنثية المقامة فى الأولمپيوم ووضع المهندس الرومانى كوسوتىوس Cossotius الخطة العامة للصرح الرجب العظيم الذى كان أفخم بناء فى أثينة - وكان قيام كوسوتىوس بهذا العمل زلقباً للوضع المألوف وهو اعتماد رومة على الفنانين اليونان . ويصف ليفى هيكل زيوس الأولمپى بأنه لم ير بناء غيره يلىق لأن يكون مسكناً لإله الآلهة (١٧) . ولا تزال ستة عشر عموداً من أعمدته قائمة وهى أجل النماذج الباقية من الطراز الكورنثى . وفى إلويسيس أتم صلاح أثينة فى دور احتضاره ، وأتمت عبقرية فيلون ، هيكل الطقوس الخفية الفخم الذى بدأه بركليز فى موضع كان مكاناً مقدساً منذ العصور الميسينية . ولم يبق من هذا الهيكل إلا قطع متفرقة ، ولكن بعضها يدل على أن التخطيط والنحت اليونانيين كانا لا يزالان وقتئذ فى أوجهما . وقد كشف الفرنسيون فى ديلوس عن قواعد هيكل أبولو كما كشفوا عن مدينة كانت فى أيامها مزدحمة بالمباني الفخمة المخصصة للأعمال التجارية أو لإيواء مائة من الآلهة اليونانية أو الأجنبية . وأقام هيرون الثانى فى سرقوسة كثيراً من المباني الضخمة ذات الروعة والحلال ، وجدد دار التمثيل التابعة للبلدية وزاد فى مساحتها ، ولا تزال فى هذه الأيام نقرأ اسمه منقوشاً على حجارتها . وزين البطالمة مدينة الإسكندرية بالمباني الشاهقة التى أذاعت شهرتها بالجمال ، ولكن شيئاً من هذه المباني لم يبق حتى الآن . وشاد بطليموس الثالث عند إدفو معبداً هو أفخم ما بقى من العماثر من عصر الاحتلال اليونانى ، وشاد خلفاؤه معبد أيزيس فى جزيرة فيلى وجددوا بناءه . وفى أبونيا أقيمت بيوت جديدة للآلهة فى ميليطس ، وهرينى Priene ، ومجنيزيا ، وغيرها من المدن ؛ وتم فى عام ٣٠٠ ق . م بناء المعبد الثالث لأرتميس فى إفسوس ، وشاد المهندسان بيونيوس Paeonius ، ودفنيس فى ديليا بالقرب من ميليطس معبداً أوسع من هذا تكريماً لأبولو (٣٣٢ ق . م . - ٤١ م) ؛ ولا تزال صفحات الأعمدة الأيونية الفخمة التى كانت قائمة فى هذا المعبد باقية إلى اليوم . وفى برجموم أذاع

أومينز الثاني شهرة عاصمته في طول بلاد اليونان وعرضها بما أنشاه فيها من المباني وخاصة مذبح زيوس الذائع الصيت الذي كشفه الألمان في عام ١٨٧٨ ، وأعادوا بناءه بحديق عظيم في متحف برجموم القائم في برلين . وكانت مجموعتان فخمتان من الدرج حول بابين عظيمين لهذا المذبح تؤديان إلى بهو رحب ذو عمدة ؛ وكان حول مائة وثلاثين قلما من القاعدة إفريز يبلغ في أيامه من الفخامة ما بلغه ضريح الإسكندر في القرن الرابع أو البارثون في القرن الخامس . وقصارى القول أن بلاد اليونان لم تزدن في وقت من الأوقات بمثل ما ازدانت به في تلك الأيام ، وأن حماسة مواطنيها ومهارة فنانها لم تفعلوا مثل ما فعلته في ذلك الوقت من تحويل الكثير من مساكن أهلها إلى قصور فخمة ذات روعة وجمال .



الفصل الثانى

التصوير

التصوير فى العادة آخر فن عظيم ينضج فى الحضارة ؛ فهو فى المراحل الأولى من مراحل الثقافة يخضع للعامة الدينية ولعمل التماثيل الدينية ، ولا يصبح فناً مستقلاً إلا حين تدعوه الحياة والثروة الخاصة إلى زجرفة المنازل أو لتخليد ذكرى اسم من الأسماء . ولما أن أضعف موت الديمقراطية من معنى الدولة فى عقول الناس ، عاد الفرد إلى طلب السلوى فى منزله ، فشاد الأغنياء قصوراً يسكنون فيها ، وأدوا أجوراً عالية للفنانين الذين يستطيعون أن يزينوا فسقية أو يجمّلوا جداراً . فكانت الإسكندرية تتخذ التصوير على الزجاج وسيلة من الوسائل التى تزين بها الجدران ، وكانت جميع المدن الهلنستية تستخدم لهذا الغرض إطارات متحركة من الخشب ؛ وكان الأمراء والكبراء يفضلون عن هذه الإطارات الصور الضخمة المرسومة على ألواح من الرخام يمكن فصلها ووضعها فى أى مكان شاءوا . ويصف بوسنياس عدداً لا يحصى من الصور رآه فى تجواله ببلاد اليونان ، ولكن الدهر لم يبق منها إلا على رسوم حائلة من الخشب أو الحجارة ، ولهذا لا نجد سيلاً لمعرفة حقيقة هذه الصور إلا الحدس والتخمين والاعتماد على الصور الحائلة المتوسطة القدر المنقولة عنها والتى عثر عليها فى بيمباى ، وهركولانيوم Hercolaneum ورومة .

وظلت بلاد اليونان تضع مصوريها فى المستوى العالى الذى تضع فيه مثالها ومهندسيها ، بل لعلها كانت تضع الأولين فى مستوى أعلى من مستوى الآخرين . وكانت تؤدى إليهم من الأجور مثل ما يؤديه الأمريكيون للمصورين فى هذه الأيام ، وتروى عن حياتهم قصصاً تدل على حبها وتكريمها لهم . منها أن تسكليز الإفسوسى ، حين لم ينل من الملكة استر تينيس Stratonice ما كان يرجو من

عطاء صورها وهى تعبت مع صائد سمك ، وعرض الصورة على الجماهير .
ثم ركب البحر لينجو من القتل . ورأت استر تنيس « أن الصورتين قد عبرتا
عن ملاحها وملاح الصياد تعبيراً يدعو إلى الإعجاب » فغفت عنه وسمحت
له بالعودة (٨) . ولما استولى أراتس على سكيون أمر بإتلاف جميع صور
طغاتها السابقين . وكان ملانثوس *Milanthus* (وهو مصور من رجال القرن
الرابع) قد صور أحدهم لواء الطغاة واسمه أركستراتوس *Archestratus* إلى جانب
مركبته الحربية تصويراً حياً واضحاً تأثر به الفنان نيكليز *Neacles* فتوصل إلى
أراتس أن يبقى على الصورة ، وقبل أراتس رجاءه على شريطة أن يستبدل
بصورة أراتس صورة أخرى لا تثير من البغض ما تثيره صورة هذا الرجل (٩) .
ويقول استرابون إن پروتجينز *Protagenes* صور ساتير *Satyr* (*) ، وإلى جانبها
صورة حجل وقد بلغت صورة الحجل من الإتقان درجة جعلت أخواته الحية
تناديه ، ثم محا المصور بعدئذ صورة الطائر حتى يقدر الناس جمال صورة
الساتير (١٠) . ويقول بلني إن هذا المصور نفسه وضع أربع طبقات من اللون
على صورته الذائعة الصيت صورة ياليسوس *Ialysus* (الذى يزعم اناس أنه
مؤسس المدينة المسماة بهذا الاسم فى رودس) ، حتى تبقى الألوان ناضرة زاهية
إذا ما أزال الدهر الطبقة العليا منها . ويقال إن پروتجينز قد غضب من عجزه
عن أن يصور الزبد الذى يتساقط من فم كلب ياليسوس تصويراً صادقا ، فلم
يمالك نفسه ورمى الصورة بإسفنجة يريد أن يتلفها . ووقعت الإسفنجة
بطبيعة الحال على المكان المطلوب ، وتركت فى ذلك المكان بقعة من اللون
شبيهة كل الشبه بالزبد الخارج من فم كلب يلهث . ولما أن حاصر دمتريوس
پليورستيز جزيرة رودس أبى أن يشعل النار فى تلك المدينة لتلا تلتف هذه
الصورة . ولم ينقطع پروتجينز عن العمل أثناء الحصار فى مرجمه ، وكان هذا
المرسم أمام خط زحف المقدونيين مباشرة . واستدعاه دمتريوس إليه وسأله :

(٩) حيوان غرائى نصفه الأمل آدمى ونصفه الأسفل ماعز . (المترجم)

لِمَ لَمْ يَحْتَمِ داخل أسوار المدينة كما فعل غيره من المقلونين ؟ فأجابه بروتجينز بقوله : « ذلك بأنى أعرف أنك إنما تشن الحرب على أهل رودس لا على الفن » . فإكان من الملك إلا أن عين له حرساً يحميه ، وترك الحصار لي شاهد أعمال الفنان العظيم (١١) :

وكان المصورون الهلنستيون يعرفون خداع المنظور ، وتمثيل الأشخاص بارزين في عين الناظر ، وسقوط الضوء ، وتجمع الأشكال . ومع أنهم لم يستخدموا المناظر الطبيعية إلا لتكون مؤخرة للصورة لتجميلها ، وأنهم صوروها حين استخدموها بطريقة خالية من الحياة جارية على العرف (إذا حكمنا عليها مما نقل عنها من الصور في بمبى) ، فإنهم أدركوا على الأقل أن الطبيعة موجودة ، وجعلوا لها مكاناً في الفن في الوقت الذي كان ثيوقريطس يجعل لها مكاناً في الشعر . ولكنهم كانوا شديدي الولع بالإنسان وبأعماله كلها إلى حد غفلوا معه عن الأشجار والأزهار . لقد اقتصر أسلافهم على رسم الآلهة والأغنياء من الآدميين أما الفنانون الهلنستيون فقد افتتوا بكل ما هو آدمي وتبينوا أن الموضوع القبيح المنظر قد يصور تصويراً جميلاً أو على الأقل يأتي بأجر كبير ، فانقلبوا يصورون الحياة البشرية بحماسة كحماسة الهولنديين ، وسرهم أن يصوروا الخلائق والأساكفة والعاهرات ، والحياطات ، والحمر ، والرجال المشوهين ، والحيوانات الغريبة . ثم أضافوا إلى هذه الصور المأخوذة من الحياة المألوفة أو الريفية ، صوراً من الحياة الساكنة الحامدة - كالكلعك ، والببص ، والفاكهة ، والخضر ، والسملك ، والطير ، والحيوان المصيد ، والخمر ، وكل ما يتصل بها من الطقوس القديمة . وكان سوسوس Sosus البرجموى يسلى معاصريه بأن يمثل لهم أرضاً من الفسيفساء الخادعة لاتزال منتشرة عليها بقايا ولعة (١٢) . لكن المصورين المحافظين قد ساءهم هذا فأخذوا ينددون بهؤلاء الذين يرفعون من شأن الأشياء العادية ويصفونهم بأنهم

يصورون الفحش والأفذار Pornographoi and rharographoi وحرم القانون في طيبة تصوير الأشياء القبيحة (١٣) .

وقد أنتقدت حمم بركان فيزوف بعض روائع ذلك العصر الكبيرة من النسيان وإن لم تحفظ لنا هذه اللحم أسماء أصحابها . وقد وجد في أستيا مظلم يبدو أنه صورة ضعيفة منقولة عن أصل هلنستي ، وهي معروفة لدينا باسم عرس الألدوربرنديني The Aldorbrandini Wedding نسبة إلى الأسرة الإيطالية التي كانت تمتلكها قبل أن تجد لها مكاناً في متحف الفانيكان . وفي هذه الصورة تظهر أفرديتي ممثلة الجسم شبيهة بصور الرسام الهولندي روبنز Rubens تبعث الشجاعة في قلب العروس الخائفة ، على حين ينتظر العريس ، وهو في غير حاجة إلى من يستحقه ، على أحر من الجمر إلى جانب الفراش . وأجل هاتين الشخصيتين الرئيسيتين صورة امرأة رشيقة توقع نشيدا على مزهر حائل اللون . وثمة صورة جدار من ميمياي يقول بعض الخبراء ، وإن لم يرق قولهم إلى مرتبة اليقين ، إنها منقولة عن أصل يوناني رسم في القرن الثالث . وهي تصور أنجيل وإلى جانبه بتركلوس ، يسلم ، وهو غاضب ، بريسيس لعجوز أجمنون . ويبدو لأذواقنا وهألوف عاداتنا أن في صور الأدميين في هذا الرسم من اللحم أكثر مما فيها من الجمال ، ذلك أننا قد ألفنا أن نرى أجساماً أقل من هذه الأجسام وسيقاناً أطول من تلك السيقان ، ولكننا يجب أن نسلم أن الفنانين الأقدمين كانوا يعرفون الرجال اليونانيين والنساء اليونانيات ، أحسن مما نعرفهم نحن أو يعرفهم من سيأتون بعدنا . وقد ذهب الزمان بنصرة هذه الصور ، وما من شيء يستطيع أن يعيد لها ما كان لها من بهاء ونفاسة ، كانا بلاريب موضع إعجاب جمهرة الشعب وملوكه ، إلا الخيال القوي القادر على تصوير ما كانت عليه في الأيام الخوالي . وأوقع من هذه في النفس قطع من الفسيفساء (*) الرومانية منقولة على

(*) وهذه الفسيفساء وصورة أنجيل وبريسيس محفوظتان في متحف نابل .

ما يظهر عن رسوم هلنستية . لقد كانت الفسيفساء من الفنون القديمة في مصر وأرض الجزيرة ، ثم أخذها عنهما اليونان وضموا بها إلى أعلى الدرجات ، فكانت الصورة تقسم بالخطوط إلى مربعات صغيرة ، وكانت المكعبات الرخامية الدقيقة تلون بحيث إذا وضع بعضها إلى جانب البعض الآخر مثلت الصورة تمثيلاً لايبلية الزمان ؛ ولا تزال قطع من الفسيفساء محتفظة بألوانها تقص علينا القصة القديمة وإن كانت قد وطأتها أرجل لأحصى عديدها . وقد عثر في ممبى على صورة تمثل واقعة إسوس ، يرى بعضهم أنها ذات صلة بصورة يونانية من تصوير فلكسينوس (وإن كان هذا مشكوكاً فيه) . وتتكون هذه الصورة من نحو ١,٥٠٠,٠٠٠ حجر ، لا تزيد مساحة كل منها على مليمترين مربعين أو ثلاثة مليمترات ، ويبلغ طول هذه الفسيفساء كلها ست عشرة قدماً ، ويبلغ عرضها ثمانى أقدام . وقد ألحق بها الزلزال وثوران البركان اللذان نكبت بهما ممبى في عام ٧٩ م . ضرراً بليغاً ، ولكن ما بقي منها يكفي للدلالة على ما كانت تمتاز به هذه الصورة من براعة وقوة . ففيها يرى الإسكندر وقد اسود جسمه وانتفش شعره من وهج الشمس وقذارة الماء ، يوجه الهجوم وهو على ظهر جواده بوسفلسوس Bucephalus ، ولا يبعد إلا بضع أقدام عن مركبة دارا الحربية . وقد ألقى عظيم من عطاء الفرس نفسه بين الملكين ، وتلقى في جسمه طعنة من رمح الإسكندر . وينحنى دارا من مركبته نحو صديقه المجندل ، غير عابئ بما يتعرض له من الخطر (لأن الإسكندر يوجه إليه طعنته الثانية) ووجهه ملىء بالقلق والحزن . ويهجم فرسان الفرس لينقلوا ملكهم ، ويظل رمح الإسكندر متزناً في الهواء . وأهم ما في هذه الصورة وأبدعه هو تمثيل العواطف الكثيرة المعقدة في وجه الإسكندر ، ولكن أجمل رأس في هذه المجموعة كلها هو رأس جواده . وليس في الفسيفساء كلها ما هو أعظم من هذه القطعة .

الفصل الثالث

النحت

لم تبلغ التماثيل من الكثرة في عصر من العصور مثل ما بلغت في العصر الهلنستي ، فقد كانت الهياكل والقصور ، والدور والشوارع ، والحدائق والبساتين كلها غاصة بالتماثيل التي تصور كل ناحية من نواحي الحياة البشرية وكثيراً من مظاهر العالم النباتي والحيواني . وكانت تماثيل نصفية تمحلد إلى وقت ما الموتى من الأبطال والمشهورين من الأحياء ، وانتهى الأمر بأن نحتت من الحجارة تماثيل للمعاني المجردة كالخز ، والسلام ، والنعمة ، والفرحة السانحة .

وقد صنع يوتكيديز السكيوني Eutychides of Sicyon تلميذ ليسبوس Lysippus لمدينة أنطاكية أنموذجاً ذائع الصيت لتمثال الخنزير في روح المدينة وأماها . وواصل تماخوس Timachus وسفسودوتس Cephisodotus ابنا بركستليز تقاليد النحت الأثيني الظرفية . وفي الهلويونيز طبقت شهرة ديمفون الميسيني Damphon of Messene الخافقين حين نحت مجموعته الضخمة المكونة من ديمتر ، وهرسفوني ، وأرتميس . غير أن الكثرة الغالبة من المثاليين الجدد كانت تتبع أقرب طريق ينقلها من الموت جوعاً ألا وهو تزوين قصور الملوك والعظماء اليونان الشرقيين .

ونشأت في جزيرة رودس في القرن الثالث مدرسة في النحت ذات طابع خاص لا مثيل له في غيرها من المدارس . فلقد كان في الجزيرة مائة تمثال ضخمة يكتفي الواحد منها على حد قول بليني ، لأن ينشر في الآفاق شهرة مدينة . وكان أعظمها كلها تمثال ضخمة من البرنز لهليوس Helios إله الشمس صنعه كاريز

اللدوسى Chares of Lindus حوالي عام ٢٨٠ . وتقول رواية ضعيفة إن كاريز هذا قد انتحر حين رأى أن نفقة التمثال قد زادت كثيراً على ما كان مقدراً لها ، وإن لا كيز اللدوسى Laches of Lindus أتم التمثال . ولم يكن هذا التمثال مقاماً فوق المرفأ بل كان مقاماً إلى جانبه ويعلو إلى ارتفاع مائة قدم وخمس أقدام ؛ ويوحى هذا الحجم بأن ذوق أهل رودس كان يتجه نحو المظاهر الفخخة والضحامة ، ولكن لعل الرودسين كانوا يستخدمونه منارة للسفن ورمزاً للجزيرة . وإذا جاز لنا أن نصدق ما جاء في قصيدة في ديوان الشعر اليوناني (١٥) فإن هذا التمثال كان يرفع بيده ضوءاً وأنه كان يرمز إلى الحرية التي تستمتع بها رودس — وتلك سابقة عجيبة لتمثال شهير في أحد الثغور الحديثة(*) . وكان هذا التمثال بلا ريب يعد إحدى عجائب الدنيا للسير ؛ ويقول بلني لأنه :

« قد ألقاه على الأرض زلزال بعد ست وخمسين عاماً من إقامته : وإنه قلما يوجد من الرجال من يستطيع تطويق إبهامه بذراعيه ، وإن أصابع يديه أكبر من أجسام معظم التماثيل ، وإنه إذا ما كسرت أطرافه شوهدت في داخل الجسم كهوف واسعة مفتوحة . ويرى في داخله أيضاً صخور ضخمة أراد المثال أن يثبت بها التمثال في موضعه أثناء اشتغاله بإقامته . ويقال إنه قضى في نحته اثنتي عشرة سنة ، وإن نفقاته بلغت ثلثمائة وزنة — وقد حصلت الجزيرة على هذا المبلغ من آلات الحرب التي تركها دمتريوس وراءه بعد حصاره الفاشل للجزيرة(**)(١٦) » .

وكان يضارع هذا التمثال في شهرته التاريخية مجموعة أخرى من صنع الملوسة الرودية تعرف باسم اللاوكون Laocoön . وقد شاهد بلني هذه المجموعة في قصر الإمبراطور تيتس ، وغر عليها عام ١٥٠٦ م في حمامات هذا

(*) يبلغ ارتفاع تمثال الحرية مائة وإحدى وخمسين قدماً من القاعدة إلى طرف الشعلة .
 (**) وقد بقى في المكان الذي سقط فيه حتى بيعت مواده في عام ١٥٣ . وقد استخدمت في نقلها تمهالة بغير (١٧) .

الإمبراطور ؛ ولا يكاد يخامرنا أدنى شك في أنها هي المجموعة الأصلية التي نحها أجسندر Agesandar ، وپلبدوروس Polydorus ، وأثينودوروس Athenodorus من قطعتين كبيرتين من الرخام في القرن الثاني أو الثالث قبل الميلاد (١٨) . وقد هز كشفها مشاعر إيطاليا في عهد النهضة وكان لها أعمق الأثر في ميكل أنجلو الذي حاول عبثاً أن يعيد إلى التمثال الأوسط فيها ذراعه اليمنى الضائعة (*) . وكان لاؤكوون الذي تسمى المجموعة باسمه كاهنا طرواديا نصيح الطرواديين بألا يقبلوا الحصان الخشبي حين بعث به اليونان إليهم وقال لهم ، كما يروى فرجيل ، « إني أخشى اليونان حتى وهم يحملون إلينا الهدايا Timeo Danaos et dona ferentes » (١٩) ، وأرادت أثينا التي تحب اليونان أن تعاقبه على حكمته فأرسلت إليه حيتين لتقتلاه . فقبضتا أولاً على ولديه ، وأبصرهما لاؤكوون فهجم عليهما ليقتلهما ، فوقع بين طيات الحيتين ، وانتهى الأمر بأن طحنت أجسامهم جميعاً وماتوا من سم أنياب الحيتين . ولقد أجاز المثلون لأنفسهم ما أجازته فرجيل لنفسه (وما أجازة لنفسه سفكليز في فلكيتيس) فعبروا عن الألم بقوة ، ولكن النتيجة لا تتفق وما في طبيعة الحجر من دوام . إن الألم في الأدب وفي الحياة عادة لا يدوم ؛ إما في اللاؤكوون فإن صرخة الألم قد دامت دواما غير طبيعي ، والناظر إليها لا يتأثر كما يتأثر بحزن دمر الصامت (**). على أن الذي يثير إعجابنا هو براعة الفكرة وإتقان التنفيذ . نعم إن العضلات قد بولغ فيها ، ولكن أطراف الكاهن الشيخ ، وجسمي ولديه قد صيغا صياغة مثلث في كثير من الهيبة والتحفظ . ولعلنا لو عرفنا

(*) والذراع المعادة التي في الفاتيكان من صنع برنيني Bernini وهي متقنة الصنع في تفاصيلها ، غير أنها تفسد على المجموعة وحدتها المركزية . لكن وتلكان رغم هذا قد أعجب بالمجموعة إعجاباً حل لسنج Lessing حين قرأ وصفه ليها على أن يؤلف كتاباً في نقد حاسة البهائم ، يشير إليها تارة من طرف خفي وينور حولها تارة أخرى في صراحة واضحة . (***) البادى في تمثال دمر المحفوظ بالمتحف البريطاني .

القصة قبل أن نشاهد المجموعة لتأثرنا بها كما تأثر بليني ، الذى ظنّها أعظم عمل من أعمال الفن اللدن (٢٠) .

وقامت فى مراكز يونانية أخرى مدارس زاهرة للنحت فى هذا العصر الذى لم يقلده الناس حتى قلده ؛ غير أن الإسكندرية قد انقلبت أرضها وتبدلت مبانيها مراراً كثيرة فى أثناء تاريخها الطويل ، فلم تحتفظ بما أقامه الفنانون اليونان للبطالة من أعمال ؛ وكل ما بقى من الأعمال الجليّة الشان هو تمثال النيل الوقور المحفوظ فى متحف الفاتيكان والذى يسنده ستة عشر طفلاً .

ترمز إلى ستة عشر قيراطا التى يعلنها النهر فى فيضانه . وقد نحت مثال يوناني من صيدا عدداً من التوابيت لطائفة غير معروفة من الكبراء أحسها كلها التابوت المسمى خطأ بتابوت الإسكندر والمحفوظ فى متحف اسطنبول .

ويضارع ما فيه من الحفر ما فى إفريز البارثنون وإن قل عنه فى الكم ؛ فالصور جميلة متقنة التناسب ، والنحت قوى ولكنه واضح ، والألوان الهادئة التى لاتزال عالقة بالحجارة تدل على العون الذى كان يلقاه النحت اليونانى من فن التصوير . وصبأبلونيوس وتورسكس فى ترالس Trallas من أعمال كاريا Caria حوالى ١٥٠ ق. م. مجموعة ضخمة من البرنز لرودى تعرف الآن باسم ثورفانيز . وتتألف هذه المجموعة من غلامين وسيمين يسيطان درسى Dirce الجميلة ويدفعانها إلى قرنئ ثور وحشى ، لأنها أساءت معاملة أمهما أنتيوى Antiope التى تنظر إليهما راضية مطمئنة اطمئناناً تعافه النفس (*) . وفى برجوم صب المثلون اليونان من البرنز عدة مجموعات حربية أقامها أتلس أول الأمر فى عاصمة ملكه ليخلد بها ذكرى صد غازات الغالين . وأراد أتلس أن يعبر عما تشعر به الثقافة اليونانية بأجمعها من فضل أئينة عليها ، ولعله أراد أيضاً أن

(*) وأصل هذه المجموعة ضائع . وقد عثر فى القرن السادس عشر وفى حمامات كركلا Caracalla على نسخة رخامية منقولة عنها فى القرن الثالث الميلادى ، وأصلها ميكلا أنجلو ، واحفظ بها وقتاً ما فى قصر فارنيز وهى الآن فى متحف نابلى .

يذبح شهرته ، فأهدى صوراً من هذه المجموعة لتقام على الأكبر پوليس بأثينة .
وقد بقيت قطع صغيرة منها في صورة الغالى المختصر المحفوظة في متحف
الكبتولين ، وفي الصورة المسماة خطأ بيتس وأرياً(*) - وهي صورة غالى
يوثر الموت على الأسر فيقتل زوجته أولاً ثم يثني بنفسه - وفي قطع أخرى
أصغر منها منتشرة الآن في مصر وأوربا . ولعل من هذه المجموعة أيضاً صورة
الأمزونة الميتة(**) التى لا عيب في تفاصيلها كلها . عدا ثديها اللذين بلغا من
الكمال حداً لا يتصوره العقل . وتكشف هذه الصور عن تحفظ في التعبير عن
الانفعالات شبيه بما كان في عصر اليونان الزاهر . فالرجال المغلوبون يقاسون
الآلام والأحزان المبرحة ، ولكنهم يموتون وهم صابرون ، وقد أجاز
المنتصرون للفنانين أن يمثلوا فضائل أعدائهم كما يمثلون هزيمتهم . ولسنا نبين
هنا أى دليل على نقص القدرة على التفكير أو دقة ملاحظة أجزاء الجسم ،
أو مهارة التنفيذ أو الصبر عليه . ولا يكاد يقل عن هذه المجموعة كمالاً النقش
العظيم الذى كان يمتد على طول قاعدة مذبح زيوس وأكرپوليس برجوم ،
والذى يقص مرة أخرى قصة الحرب التى نشبت بين الآلهة والجبابرة - ويبدو
أن هذا النقش تمثيل متواضع للحرب بين أهل برجوم والغالين . والنقش هنا
شديد الازدحام ، ويبدو أحياناً عنيفاً عنفاً مسرحياً ، ولكن بعض رسومه
تضارع خير ما أنتجه الفن اليونانى . فصورة زيوس التى لا رأس لها منحوتة
بقوة لا تقل عن قوة اسكوپاس Scopas ، والإلهة هكتى Hecate مثال في
الرشاقة والجمال بين أهوال الحرب وفظائعها .

وكان هذا العصر غنياً بما فيه من روائع الفن التى لا يعرف أصحابها وبألى
تكاد تشمل صوراً لجميع الآلهة الكبار ، ونذكر منها رأس زيوس القمخ الذى

(*) في متحف ترى Museo delle Terme في رومة .

(**) في متحف لاهل .

عثر عليه في أتركولي Atricoli وتمثال لودوفيزي هرا Lodovisi Hera المحفوظ في متحف ترمي ، وقد أعجب بهما جيته في شبابه إعجاباً حمله على أن ينقل معه قائلين لها إلى ألمانيا كأنهما تذكاران حقيقتان أهداهما إليه جوف ويونو . أما أبلو بلقدير الذي كان من قبل موضع الإعجاب فهو فائز متكلف خال من دلائل الحياة ، ولكنه مع ذلك أذكى نار الحاسة في قلب ونكلمان منذ قرنين من الزمان (٢١) . ويختلف أشد الاختلاف عن هذا التمثال الأملس الضعيف تمثال هرقل الفارنيزي الذي نقله جليكون Glycon الأثيني عن أصل له يعزى إلى ليسبوس - وجسمه الضخم كله عضلات ، وكله ملل ، وكله حنو ، ووجهه كله عجب ودهشة - كأن القوة كانت تسأل نفسها ذلك السؤال الذي لم يجب عنه أحد قط : ماذا يجب أن يكون هدفها ؟ أما أفرديتي فقد أخرج لها ذلك العصر تماثيل لا يقل عنها في عددها إلا عبادها وحدهم ، وقد بقي عدد من هذه التماثيل معظمها بما نقله الرومان عن أصولها اليونانية . غير أن تمثال أفرديتي ميلوس المحفوظ في متحف اللوفر والمعروف فيه باسم زهرة ميلويديو أنه تمثال يوناني أصيل نحت في القرن الثاني قبل الميلاد . وقد عثر على هذا التمثال في ميلوس عام ١٨٢٠ بالقرب من قطعة من القاعدة نقش عليها الحروف ساندوس Sandos ، وربما كان أجستدر الأنطاكي واسمه مأخوذ من سرادق الفاتيكان الذي وضع فيه التمثال أولاً ، هو الذي نحت هذا التمثال العادي المتواضع .

وليس لوجه التمثال ذلك الجمال الرقيق الذي يزدان به وجه التمثال الموضوعة صبورته في الصفحة الأولى من هذا التحلد ، ولكن الجسم نفسه ممثلي بالصحة التي يكون الجمال ثمرتها الطبيعية . ولسنا نرى فيه ذلك الخصر النحيل الذي لا يتفق مع الجسم الملي والوركين المكتنزتين . ولم يبلغ هذا الكمال كله تمثالاً فينوس الكبتولينية ، وفينوس الميديشية (*) . وتمثال فينوس كليبيجي

(*) والتمثال الأول محفوظ في متحف الكبتولين في رومة والثاني في متحف أفيزي .
بفلورنس .

Veuns Callpyge أوفينوس ذات الإليتين الجميلتين(*) يثير الغريزة الجنسية قوية ، وقد غطيت فيه مفاتها لكي تكشف عنها ، وتلفت لتبدي إعجابها بردفها في البحيرة . وأوقع من هذه التماثيل كلها في النفس تمثال نيسكي Nike أو نصر سموثريس الذي وجد في ذلك المكان عام ١٨٦٣ ، وهو الآن أروع آيات النحت في متحف اللوفر(**) . وقد مثلت إلهة النصر كأنها تحط وهي طائرة بأقصى سرعتها على مقدم سفينة مسرعة ، وتقودها إلى الهجوم . ويغفل إلى الرائي أن جناحيها العظيمين يجلبان السفينة ضد النسيم الذي يعث بأثوابها . وهنا أيضاً تسيطر على التمثال فكرة اليونان عن المرأة ، وهي أنها ليست متعة حلوة فحسب ، بل إنها فوق ذلك أم قوية . فليس جمالها هو حال الشباب الضعيف الزائل بل هو نداء المرأة الذي يدوم طول الحياة للرجل لكي يسمو بنفسه إلى الأعمال الجليلة ، وكأنما أراد الفنان أن يمثل هنا السطور الأخيرة من فوست Faust للشاعر جيته . لعمرى إن حضارة تستطيع أن تفكر في هذا التمثال وأن تنحته لحضارة أبعد ماتكون عن الموت .

ولم تكن الآلة أهم ما يعنى به المثالون الذين ازدان بهم خريف الفن اليوناني ، لقد كان هؤلاء الفنانون ينظرون إلى أوليس نظرتهم إلى معين من الموضوعات لا أقل من ذلك ولا أكثر . ولما أن نصب هذا المعين من كثرة ما أخذ منه انتقلوا إلى الأرض نفسها وسرهم أن يمثلوا ما في الحياة البشرية من حكمة وجمال ، وغرابة وحنافات . ففتحوا أو صبوا رؤوساً ذات.

(٥) في متحف نابل .

(٥٥) وكان يعتقد أولاً أن دمتريوس بليوكريتيز قد أقامه في عام ٣٠٥ ليخلد به ذكرى انتصاره البحري على بطليموس الأول قرب سلاميس القبرصية عام ٣٠٦ ق م . ولكن الجدل الحديث يميل إلى جعل هذا التمثال ذا صلة بموقعة كوس (٢٥٨ أو معركة أخرى من نوعها) وهي المعركة التي انتصرت فيها أساطيل مقدونية ، وسلونيا ، ورودس على بطليموس الثاني .

روعة لمور ، وبوربديز ، وسقراط . وصنعوا عدداً من التماثيل المساء الرقيقة
لمفرديتي Hermaphrodite يستلفت العين جمالها الغامض ، وهي قائمة
في متحف العاديات باسطنبول ، أو في معرض بورجا في رومة ، أو في
متحف اللوفر . وكان الأطفال في هذه التماثيل يقفون وقفات طبيعية منشطة ،
كوقفة الغلام الذي يخرج شوكة من قدمه ؛ والغلام الآخر الذي يقاتل
إوزة(*) . وأجمل ما في هذا الصنف من التماثيل تمثال الشاب القائم للصلاة
والذي يتجلى الإيمان في وجهه ، ويعزى هذا التمثال إلى بوثيس Boëthus
تلميذ لپسپوس(**) . وكان المثالون يلذهبون إلى الغابات ويصورون جن
الغاب كجنينة بربريني المحفوظ تماثلاً في ميونخ Munich أو الساترات الفرحة
كتمثال سيلينس السكرى المحفوظ في متحف نابلي . وكانوا يضعون في
واضع متفرقة بين صورههم الوجنتين المتوردتين والحيل الخادعة الماكرة التي
يعزوها الأقدمون إلى إله الحب .

(*) وكلاهما في متحف الفاتيكان .

(**) في متحف النولة ببرلين .

الفصل الرابع

تعليق

إن إقحام الفكاهة الفجائية على النحو الذى وصفناه فى الفصل السابق فى موضوعات التحت اليونانى التى كانت من قبل موضوعات مقدسة الطابع ، لمن الخصائص التى يمتاز بها الفن الهلنستى . ولقد احتفظ كل متحف من المتاحف بين ما احتفظ به من آثار ذلك العصر بتمثال لإله الحقول يضحك ، أو إله الرعاة يغنى ، أو إله الشراب يصخب ، أو غلام يستخدم فوارة يخرج منها الماء بطريقة يأبأها الذوق والأدب . ولعل عودة الفن انيونانى إلى آسية قد أرجعت له ما كاد يفقده فى عهد اليونان القديم ، حين كان خاضعاً للدين والدولة ، من اختلاف فى الشكل ، ومن شعور وتحمس قوين . اقم بدأ الفنانون وقتئذ يستمتعون بالطبيعة بعد أن كانوا من قبل يعبدونها . ولم يكن هذا لأن الاعتدال القديم قد زال : فها هو ذا تمثال شاب سيباكو Subiaco فى متحف ترمى ، وتمثال أدريدنى النائمة (Adriadne) ، فى متحف الفاتيكان ، والفنأة الخالسة فى قصر الكنسر فتورى كلها تواصل تقاليد پرکستيليز وما فيها من رقة ، وظل كثيرون من المثاليين فى أثينة طوال ذلك العصر يقاومون النزعات « الاعتدالية » التى فشت فى أيامهم بعودتهم متعمدين إلى أنماط القرن الرابع والقرن الخامس ، بل إنهم كانوا من حين إلى حين يعودون إلى الوقار القديم وقار القرن السادس . لكن روح العصر كانت روح التجارب ، والفردية ، والنزعة الطبيعية ، والواقعية ، مع وجود تيار قوى نحى نحو الخيال ، والمثالية ، والعاطفية ، والتأثير المسرحى . وأخذ الفنانون يعنون بالإفادة من تقدم التشريح ، ويكثرون من استخدام النماذج الحية فى متاحفهم ومراسمهم ، فكان المثاليون ينحتون تماثيل لا ينظر إليها الإنسان من الأمام فحسب ، بل ينظر إليها من جميع النواحي (١١ - قصة الحضارة ، ج ٣ ، مجلد ٢)

وأخلوا يستعملون مواد جديدة - كالبلور ، والعقيق الأبيض ، والياقوت والزجاج ، والبازلت القائم اللون ، والرخام الأسود ، والرخام السماق ليقلدوا لون الزنوج ، أو وجوده الساترات المتوردة التي تزيد الخمر بريقها .

وكان خصب اختراعهم يضارع سيطرتهم الفنية ؛ ذلك أنهم قد ملوا تكرار الأنماط القديمة ، وكأنهم عرفوا مقدماً ما يعيبه رسكن على الفنانين (*) ، فاعتزموا أن يظهرُوا في صورهم ما للأشخاص والأشياء من وجود حقيق ومن خواص فردية . ولم يعودوا يقتصرون على تمثيل ما هو كامل وجميل ، كالرياضيين والأبطال ، والآلهة ، بل أخلوا يخرجون صوراً من الحياة الريفية المألوفة ، أو تماثيل من الآجر للصناع ، وصائدي السمك ، والموسيقين ، والبائعين والمشتريين في الأسواق ومدربي الخيول والخصيان وبحثوا عن موضوعات غير مطروقة في الأطفال والفلاحين ، وفي شخصيات ممتازة كسقراط ، وفي رجال شيوخ حاقدين كدمستين ، وفي وجوه قوية تكاد تكون وحشية كوجه يوثدموس Euthydemus الملك البكتري اليوناني ، وفي أماكن مهجورة منبوذة كتمثال امرأة السوق العجوز المحفوظ في متحف نيويورك . وقد أدركوا وأحبوا تنوع مظاهر الحياة وتعقدها . ولم يترددوا في أن يكونوا في تماثيلهم وتصويرهم شوانيين ؛ فلم يكونوا آباء يحرصون على عفة بناتهم ، أو فلاسفة تقض مضاجعهم ما تؤدي إليه النزعة الفردية الأبيقورية من عواقب اجتماعية خطيرة ؛ بل كانوا يشاهدون مقائن الجسم ، وينحتونها ، ويبرزون الجمال الذي يستطيع أن يسخر إلى حين من الزمن وما يحدثه فيه من آثار . ولقد تحرر

(*) « ليست هناك صفة شخصية في الفن اليوناني - بل فيه آراء مجردة من الشباب ، والشينوخة ، والقوة ، والسرعة ، والفضيلة ، والرياسة - ؛ ولكنه خال أيضا من الفردية (٣٣) » . إن رسكن لم يكن يفكر إلا في الفن اليوناني في القرنين الخامس والرابع ؛ كما أن وكلمان ولسنج كانا يعرفان بنوع خاص فن العصر الهلنستي .

هؤلاء المثالون من قيود العرف التي كانت تسود العصر الزاهر القديم ، فانهمكروا في إبراز العواطف الرقيقة ، وصوروا بإحساس قوى وإخلاص عظيم رعاية يموتون بعد أن تكشف لبصائرهم حقيقة الحب وآلامه ، وروئساً جميلة ساجدة في أحلام اليقظة ، وأمهات يفكرن ببحان في أبنائهن : لقد بدت لهم هذه الموضوعات أيضاً جزءاً من الحقيقة الخليقة بالتسجيل ، ثم واجهوا في آخر الأمر حقائق الألم والحزن ، والقوا جع الحزن ، والموت في شرح الشباب ، وعقلوا النية على أن يجلوا لها مكاناً فيما يمثلونه من نواحي الحياة البشرية .

وليس ثمة دارس مستقل في تفكيره يطاوعه عقله على أن يصدر حكماً عاماً . شاملاً على اضمحلال العصر الهلنستي ، فما أسهل أن يتخذ حكم عام كهذا حجة يتبرع بها لاختتام قصة بلاد اليونان قبل أن يكشف عما كان لها من شأن في الحضارة العالمية . نعم إننا نشعر في ذلك العصر ببطء في قوة الابتكار ، ولكن هذا يعوضه كثرة منتجات الفن بعد أن أصبحت له السيطرة التامة على أدواته . وإذا كان الشباب لا يدوم أبداً ، وإذا لم يكن لمقاتته أعلى مقام في الحياة ؛ فقد كان لابد أن يحل الخمود الطبيعي بحياة بلاد اليونان كما يحل الخمود بكل حياة ، وأن تتقبل عهد الشيخوخة والنضوج . لقد دب ديب اضمحلال في البلاد ، وأخذت عوامل الضعف تعمل عملها في الدين والأخلاق والآداب ووسمت بميسمها أعمالاً فردية في أماكن متفرقة في البلاد ؛ ولكن قوة العبقرية اليونانية الدافقة أبقت الفن اليوناني ، كما أبقت العلوم والفلسفة اليونانية ، قرب ذروته إلى آخر أيام ذلك العصر ، ولم يبلغ هيام اليونان بالجمال ولا قدرتهم وصبرهم على تجسيده في أيام شبابهم وعزتهم مثل ما بلغه هيامهم وقدرتهم وصبرهم في العصر الهلنستي ، أو كان لهذه الصفات قوة دافعة وآثار عظيمة في مدن الشرق الغافلة في العهد الأول مثل ما كان لها في هذا العصر الذي نتحدث عنه . وفي هذه المدن وجنتها رومة ونقلتها إلى سائر بلاد العالم .

الباب الثامن والعشرون

ذروة مجد العلم اليوناني

الفصل الأول

إقليدس وأبولونيوس

شهد القرن الخامس ذروة مجد الآداب ، وشهد القرن الرابع ازدهار الفلسفة ، وشهد القرن الثالث ذروة مجد العلوم الطبيعية . ذلك أن الملوك كانوا أكثر من الديمقراطية تسامحاً في البحث العلمي وأكثر منها تشجيعاً له . من ذلك أن الإسكندر أرسل إلى المدن اليونانية القائمة على ساحل آسية جمالا محملة بألواح الفلك البابلية لم تلبث أن ترجمت إلى اللغة اليونانية ، وأنشأ البطلمة المتحف الذي كان معهداً للدراسات الراقية ، وجمعوا علوم بلاد البحر الأبيض المتوسط وثقافتها في المكتبة ، وأهدى أبولونيوس كتابه «الخروطات» إلى أتلس الأول ، ورسم أركميديز ، برعاية هيرون الثاني دوائره . وقد كان لزوال الحلود السياسية بين الأقطار ، ووجود لغة واحدة مشتركة ، وسهولة تبادل الكتب والأفكار ، والقضاء على علم الميتافيزيقا ، وضعف الدين القديم ، وقيام طبقة من التجار ذات عقلية دنيوية لا دينية في الإسبكتلزية ، ورودرس ، وأنطاكية ، وبرجموم ، وسرقوسة ، وازدياد عدد المدارس ، والجامعات ، والمراسند الفلكية ، ودور الكتب ، كان لهذه كلها مختمعة مع ازدياد الثروة وتقدم الصناعة ، ومناصرة الملوك ، أكبر الأثر في تحرير العالم من الفلسفة ، وتشجيعه في العمل على تنوير الأذهان ، وازدياد الثراء وتهليك العالم بأكثر الأخطار .

وحدث حوالي مسهل القرن الثالث - أولعله حدث قبله بزمان طويل - أن أصبحت علماء الرياضة اليونان أجود وأدق مما كانت باختراع طريقة للعد والحساب أبسط من الطريقة التي كانت متبعة حتى ذلك الوقت . ذلك أن التسعة الحروف الأولى من حروف الهجاء قد استخدمت للدلالة على الأرقام التسعة البسيطة ، ثم استخدم الحرف الذي يليها للدلالة على الرقم ١٠ ، والتسعة التي تليه للدلالة على ٢٠ ، و ٣٠ الخ ، والذي يليها للدلالة على ١٠٠ ، والتسعة التي تلي هذا للدلالة على ٢٠٠ ، ٣٠٠ ، وهكذا . وعبر عن الكسور والأعداد الترتيبية بوضع شرطة صغيرة مائلة من اليمين إلى اليسار بعد الحرف ، فهذه العلامة $\frac{1}{2}$ مثلا تدل إما على عشر أو العاشر حسب السياق ، وحرف $\frac{1}{3}$ الصغير إذا وضع تحت الحرف دل على ألف . فكانت هذه الطريقة الحسابية المختصرة وسيلة سهلة للعد والحساب ، ومن البرديات اليونانية الباقية إلى الآن ما يجمع عمليات حسابية معقدة ، تختلف ما بين الكسور العشرية والملايين ، في فراغ أقل مما تشغله أمثال هذه العمليات في طريقتنا الحسابية في هذه الأيام (*) .

لكن أعظم ما أحرزته العلوم من انتصار في العصر الهلنستي كان في الهندسة النظرية ، فمن علماء ذلك العصر إقليدس الذي ظل اسمه مدى ألي عام مرادفاً لاسم هذه الهندسة . وكل مانعزفه من سيرته أنه أنشأ مدرسة في الإسكندرية ، وأن تلاميذه بزواكل من عداهم من التلاميذ في هذا الفرع من العلوم ؛ وأنه لم يكن يعنى قط بالمال ، وأنه حين سأله أحد تلاميذه « ماذا يفيدني تعلم الهندسة ؟ » أمر أحد العبيد أن يعطيه أبله « لأنه يريد أن يربح المال مما يتعلم (١) » ، وأنه

(*) ليست هذه البرديات أقدم من مدينة الإسكندرية ذاتها ، ولكنها وهي تستخدم حرف الديجما Digamma اليوناني البني المجهور للدلالة على الرقم ٦ ، فإن أكبر الظن أن استخدام الحروف الهجائية للدلالة على الأرقام قد حدث قبل العصر الهلنستي .

كان شديد التواضع والرفقة ، وأنه حين كتب كتابه الشهير المسمى « العناصر » (*) Elements» حوالى عام ٣٠٠ لم يخطر بباله قط أن يعزومابه من مختلف النظريات إلى واضعها لأن كل ما ادعاه لنفسه أنه جمع فى نظام منطقي معلومات اليونان الهندسية . وقد بدأ الكتاب ، دون تقديم أو اعتذار ، بالتعاريف البسيطة ، ثم ثنى بالفروض الضرورية ، وجاء بعدها بـ « الأفكار العامة » أو البدائات . وقد سار على ما أوصى به أفلاطون فاقصر على الأشكال والبراهين التى لا تحتاج من الآلات إلى غير المسطرة والفرجار . واتبع طريقة فى العرض والإثبات معروفة لمن سبقه من العلماء ولكنه وصل بها إلى حد الكمال ، وهى الطريقة التى تسير على النظام الآتى : الفرض ، والعمل ، والبرهان والنتيجة . وكانت النتيجة الكلية لجهوده ، رغم ما فيها من عيوب قليلة ، أن أقامت للعالم صرحا رياضيا يتنافس البارثونون فى رمزه للعقل اليونانى . بل الحق أن هذا الصرح العلمى قد عاش كاملا بعد أن تحطم البارثونون ، وذلك لأن « عناصر » إقليدس قد ظل حتى هذا القرن الكتاب المدرسى المعترف به فى كل جامعة أوربية تقريبا . وإذا أردنا أن نجد ما يشبه هذا الكتاب فى أثره الباقى فعلينا أن نذهب إلى الكتاب المقدس نفسه لنجد هذا الشبيه .

وثمة كتاب لإقليدس فى المخروطات قد ضاع فيما ضاع من كتب ؛ وهو يلخص دراسات منيكس ، وأرسطيوس وغيرهما من علماء الهندسة فى المخروط . وقد عمد أبولونيوس البرجائى Apollonius of Perga ، بعد أن ظل يدرس الهندسة فى مدرسة إقليدس عدة سنين ، إلى هذه الرسالة فاتخذها بداية لكتابه هو فى

(*) يلخص الكتاب الأول والثانى أعمال فيثاغورس الهندسية ؛ ويلخص الكتاب الثالث أعمال أبقراط الطشيوزى ، والكتاب الخامس أعمال يودكسوس ؛ والرابع والسادس والحادى عشر والثانى عشر آراء علماء الهندسة الفيثاغوريين والأتينييين المتأخرين ؛ وتبحث الكتب السابع والثامن والتاسع فى الرياضيات العليا .

المخروطات ، ويبحث في ثمانية « كتب » و٣٨٧ نظرية خواص المنحنيات التي تنشأ من تقاطع مخروط مع سطح مستو. وقد أطلق على ثلاثة من هذه المنحنيات (والدائرة هي رابعتها) أسماءها المعروفة بها إلى الآن وهي : القطع المكافئ *parbola* ، والقطع الناقص أو الإهليلجي *ellipse* ، والقطع الزائد *hyperbola* وقد يسرت اكتشافاته وضع نظرية القذائف ، وكانت من أكبر العوامل فيما حدث في الميكانيكا والملاحة والفلك من تقدم عظيم . وكان عرضه لنظرياته طويلاً مجهداً مملاً ، ولكن الطريقة التي اتبعها طريقة عملية خالصة ، ولم يكن مؤلفه أقل من مؤلف إقليدس وضوحاً ودقة ، ولا تزال السبعة الكتب الباقية منه حتى اليوم أعظم كتاب علمي مبتكر في كل ما كتب في الهندسة النظرية .

الفصل الثاني

أركميديز

ولد أعظم العلماء الأقدمين في سرقوسة حوالي عام ٢٨٧ ق م ، وكان والده هو فيدياس Pheidias الفلكي ، ويلوح أنه ابن عم هيرون الثاني أعظم حكام زمانه استنارة . وفعل أركميديز ما فعله كثيرون غيره من اليونان الهلنستيين الذين أولعوا بالعلوم ، وكان لديهم من المال ما يمكنهم من إشباع هذا الولع ، فسافر إلى الإسكندرية ، حيث درس على خلفاء إقليدس ، وشغف بالرياضيات وأقاد من دراستها فائدين - انهما كما فيها وهوتا مفاجئاً بسببها . وعاد من الإسكندرية إلى سرقوسة ، نجث وهب حياته ، كما يهب الرهبان حياتهم ، لكل فرع من فروع العلوم الرياضية . وكثيراً ما كان يهمل كما يهمل نيوتن ، طعامه وشرابه ، والعناية بجسمه ، لكي يتبع نتائج نظرية رياضية جديدة ، أو يرسم بالزيت أشكالاً على جسده ، أو بالرماد على الموقد ، أو الرمل الذي اعتاد علماء الهندسة اليونان أن يفرشوه على أرض منازلهم^(١) . على أنه لم يكن تنقصه الفكاهة : فقد تعمد أن يضع في كتابه « الكرة والوسطويات » ، الذي يرى هو أنه أحسن كتبه ، نظريات خاطئة (كما يؤكد بعضهم) يمزح مع من أرسل إليهم المخطوط من الأصدقاء من جهة ، وليوقع في الشرك لصوص العلم الذين يبيعون أن يغتصبوا لأنفسهم أفكار غيرهم من الناس من جهة أخرى^(٢) . وكان تارة يسلى نفسه بالغاز كادت أن توصله إلى اختراع الجبر كشكلة الماشية الشهيرة التي حيرت لسنج أشد الحيرة^(٣) ، وتارة أخرى يحترع آلات عجيبة ليدرس بها القوانين التي يستخلفها . ولكن الذي كان يعنى به وتلذه دراسته على الدوام هو العلم البحث يتخذ مفتاحاً لفهم الكون لا أداة للمنشآت العملية أوزيادة الثروة . ولم يكن يكتب للطلاب بل للعلماء

المتخصصين ينقل إليهم في عبارات قصيرة جامعة النتائج العويصة التي استخلصها من بحوثه . وقد افتن كل من جاء بعده من الأقدمين بما تمتاز به رسائله العلمية من ابتكار ، وعمق ، ووضوح . وقد وصفها فلوطرخس بقوله : « ليس من المستطاع أن نجد في الهندسة كلها مسائل أصعب وأعوص ، أو شروحا أبسط وأوضح ، مما احتوته هذه الرسائل . ومن الناس من يعزو هذا إلى عبقرية الفطرية ، ومنهم من يظن أن هذه الصحف السهلة الميسرة كانت ثمرة كدح وجهود لا يصدقها العقل (٥) .

وقد أبى الزمان على عشرة من مؤلفات أركميديز التي كتبها بعد رحلات كثيرة في أوروبا وبلاد العرب وهي : (١) الطريقة ويشرح فيه لإراتستيز ، الذي عقد معه صداقة وثيقة في الإسكندرية ، كيف توسع التجارب العملية معلومات الإنسان الهندسية . وقد وضعت هذه المقالة حداً لحكم المسطرة والفرجار الذي أقامه أفلاطون ، وفتحت باب الطرق التجريبية ؛ لكنها مع هذا تكشف عما بين المزاكين العلميين القديم والحديث من اختلاف . فقد كان الأقدمون يميزون التجارب العملية ليتوصلوا بها إلى فهم النظريات ، أما المحدثون فيستخدمون النظريات لما عساه أن تؤدي إليه من نتائج عملية (٢) مجموعة من القضايا المعارضة وفيها يبحث سبعة عشر اختباراً ، أو فرضاً متبادلاً في الهندسة المستوية . (٣) قياس الزوايا ويصل فيه إلى $\frac{3}{4}$ و $\frac{3}{4}$ والنسبة التقريبية أي نسبة محيط الدائرة إلى قطرها ؛ وهو يصل إلى تربيع الدائرة بأن يوضح بطريقة إفناء الفرق أن مساحة الدائرة تساوى مساحة مثلث قائم الزاوية ارتفاعه يساوى نصف قطر الدائرة وطول قاعدته يعادل طول محيطها . (٤) تربيع القطع المكافئ وفيه يدرس بطريقة حساب التكامل المساحة التي يفصلها وترقوس من القطع المكافئ ومساحة القطع الناقص . (٥) في اللولبيات وفيه يعرف اللولبيات بأنها الأشكال التي تحدتها نقطة تتحرك من

نقطة معينة بسرعة منتظمة في خط مستقيم يدور في سطح مستو بسرعة منتظمة حول هذه النقطة المعينة نفسها ؛ ثم يتوصل إلى معرفة المساحة المحصورة بين قوس لولبي ونصفي قطر في قطع ناقص ، مستخدماً في ذلك طرقاً تقرب من حساب التفاضل (٦) الكرة والاسطوانة وفيه يبحث عن قوانين رياضية لإيجاد أحجام الهرم ، والاسطوانة ، والكرة ، ومساحة سطوحها (٧) في أشياء المخروط وأشباه الكرة ويشتمل على دراسة للأجسام الحامدة المتولدة من دوران القطاعات المخروطية حول محاورها . (٨) صاحب الرمال ، وفيه ينتقل من الهندسة إلى الحساب ، بل يكاد ينتقل إلى اللغزات ، وذلك بقوله إن الأعداد الكبيرة يمكن أن تمثل بمضاعفات أو « طبقات » ١٠,٠٠٠ وبهذه الطريقة يحصى أركيديدز نبات الرمل التي يحتاج إليها للماء الكون — على فرض أن للكون حجماً معقولاً ، كما يقول هو بعبارة الفكرة الظرفية . والنتيجة التي يصل إليها ، والتي يستطيع أي إنسان أن يحققها بنفسه ، أن العالم لا يحتوي على أكثر من ثلاث وستين « وحدة كل منها عشرة ملايين من الطبقة الثامنة من الأعداد » أو ٦٣١٠ حسب طريقتنا في هذه الأيام . ويدل ما في هذا الكتاب من إشارات إلى ماضع من مؤلفات أركيديدز على أنه كشف أيضاً طريقة لإيجاد الجذر التربيعي للأعداد غير المربعة (٩) في الموازنات المتويزة وفيه يطبق الهندسة على الميكانيكا ويدرس مركز الحاذبية لعدة أجسام ذات أشكال مختلفة ، ويصوغ ما هو معروف لنا من قوانين علم القوى المتوازنة (١٠) في الأجسام اللطافية وفيه يضع علم توازن الساكنة وضغطها (الهيدروستاتيكا) وذلك حين يصل إلى قوانين رياضية لمعرفة مركز توازن الجسم اللطافي .

ويبدأ الكتاب بالفكرة التي أدهشت الناس في ذلك الوقت وهي أن

سطح أى جنم سائل سماكن فى حالة توازن هو سطح كرى ، وأن مركز الكرة التى هو جزء منها هو مركز الأرض نفسها .

ولعل الذى دعا أركميديز إلى دراسة علم توازن السوائل حادثة تكاد تبلغ من الشهرة ما بلغت جاذبة نيوتن . وخلاصة قصتها أن الملك هيرون أعطى لصانع هرقومى مقداراً من الذهب ليصوغه تاجاً له . فلما أعطاه التاج كان وزنه مساوياً لوزن الذهب ، ولكن الملك ارتاب فى أن يكون الفنان قد استبدل ببعض الذهب مثل وزنه من الفضة ، واحتفظ لنفسه عما أنقصه من الذهب . وأفضى هيرون بريته هذه إلى أركميدز وأعطاه التاج ، ويبدو أنه اشترط عليه أن يبدد ارتبابه دون أن يلحق بالتاج أذى ، وظل أركميدز عدة أسابيع بقلب الأمر فى فكره . حتى إذا خطا يوماً ما فى وعاء كبير بمحام عام ، لاحظ أن ماء قد فاض بقلر العمق الذى وصل إليه فيه ، وخيل إليه أن وزن جسمه - أى ضغطه إلى أسفل - يقل تدريجاً كلما انغمس فى الماء . فما كان منه وهو صاحب العصر الطلعة إلا أن وضع فجأة « قانون أركميدز » ، وهو أن الجسم الطافي يفقد من وزنه ما يساوى وزن الماء الذى يزيغه . وظن أن الجسم المغمور فى الماء يزيغ منه بمقدار حجمه ، وأدرك أن هذا القانون يمكنه من حل مشكلة التاج فخرج عارياً فى الطريق (إذا صدقنا قول فثيوفوس المعروف برزائته وهوول إلى مسكنه وهو يصيح « يوريكا » (لقد وجدتها ! لقد وجدتها !) . وسرعان ما أدرك وهو فى بيته أن قلراً من الفضة ذا وزن معين إذا غمس فى الماء يزيغ منه مقداراً أكثر مما يزيغه ذهب مساو له فى الوزن ، لأن حجم الفضة يزيد على حجم الذهب المساوى له فى الوزن . ولاحظ أيضاً أن التاج المغمور فى الماء يزيغ منه أكثر مما يزيغه مقدار من الذهب مساو له فى الوزن . فاستنتج من هذا أن التاج قد وضع فيه معدن أقل كثافة من الذهب . فأخذ يستبدل فى الذهب الذى كان يستخدمه للمقارنة فضة يذهب حتى أزاغ الخليط قدر ما يزيغه التاج .

من الماء . وبذلك استطاع أركيدينز أن يعرف بالضبط مقدار ما استخدم
في التاج من الفضة ، ومقدار ما اختلس من الذهب .

ولم تكن لتحقيقه رغبة الملك من الأهمية لديه ما يعادل كشفه قانون الأجسام
الطافية وطريقة تقدير الثقل النوعي للأجسام . وصنع أركيدينز آلة مثل فيها
الشمس والأرض والقمر والخمسة الكواكب المعروفة وقتئذ (زحل والمشتري ،
والمرخ ، والزهرة ، وعطارد) ورتبها بحيث إذا أدير ذراع مركب في الآلة
رأى الإنسان هذه الأجرام جميعها تتحرك في اتجاهات وبسرعات مختلفة (٦) ؛
ولكنه في أغلب الظن كان يتفق مع أفلاطون في قوله إن القوانين المسيطرة على
حركات الأجرام السماوية أبجل من النجوم (٧) .

وقد صاغ أركيدينز ، في رسالة مفقودة بقي بعضها في ملاحظات لها ،
قوانين الرافعة والميزان صياغة بلغ من دقتها أن تقدما ما لم يحصل فيها حتى
عام ١٥٨٦ م ، فهو يقول مثلاً في الفرض الرابع : « الأجسام المتناسبة تتوازن
إذا كانت على مسافات تناسب تناسباً عكسياً مع جاذبيتها » (٨) ، وتلك حقيقة
عظيمة النفع تبسط العلاقات المعقدة بين الأجسام تبسيطاً بارعاً يؤثر في نفس
العالم كما يؤثر تمثال هرمس لبركستليز في نفس الفنان . وذهل أركيدينز حين
شاهد ما في الرافعة والبكرة من قوة فاعلن أنه إذا أعطى مرتكراً ثابتاً
استطاع أن يحرك أي شيء يريد تحريكه ، ويروى عنه أنه قال في لهجة سرقوسة
البلورية « Pa po, kai tan gan kino » : أعطني مكاناً أقف عليه ، أحرك
لك الأرض (٩) ، وتحدهاء هيرون أن يفعل ما يقول ، وأشار إلى ما كان يلقاه

(٦) وقد رأى شهبسون هذا الجهاز بعد قرنين من ذلك الوقت ، وعجب من تناسق
حركات الأجرام المثلة فيه في أوقاتها المختلفة رغم تعقيدها الشديد ؛ وكتب في ذلك يقول :
« حين حرك جلوس Gallus الكرة تبين أن القمر كان على الدوام يتم دورات خلف الشمس
على الجهاز البرنزي تتفق في عددها اتفاقاً تاماً مع عدد الأيام التي يختلف فيها وراء الشمس في
السما . وهذا يحدث خسوف الشمس على الجهاز كما يحدث في الحقيقة » (٧) .

رجالہ من المشقة فی رفع سفينة كبيرة من سفن الأسطول الملكي إلى شاطئ البحر . فما كان من أركيديدز إلا أن وضع عدداً من الأضراس والبكر بطريقة أمكنته بمقدوره وهو جالس عند نهاية هذا الجهاز أن يرفع السفينة الكاملة الشحنة من الماء إلى الأرض (١٠) .

وسر الملك من هذا العمل فطلب إلى أركيديدز أن يضع له تصميمات لبعض عدد الحرب ، وكان من غريب صفات الرجلين أن أركيديدز بعد أن وضع هذه التصميمات نسيها ، وأن هيرون لحبه السلم لم يستخدمها . وقد وصف غلوطنرخس أركيديدز فقال :

« إنه بلغ من علو الهمة وعمق التفكير ، وغزارة المادة العلمية ما سما به عن أن يترك وراءه أى شيء مكتوب في هذه الموضوعات ، وإن كانت هذه الاختراعات قد أذاعت في الخافقين ذكاءه العظيم الذى لا نظير له بين الخلائق طراً . فقد نبذ كل فن لا غاية له إلا النفع والكسب المادى وعده فناً ذليلاً حقيراً ، وخص حبه كله وآماله كلها في تلك المباحث العلمية الخاصة التى لاصلة بينها وبين مطالب الحياة الوضيعة - وهى تلك الدراسات التى لا يشك إنسان في سموها على سائر الدراسات ، بل كان ما يشك فيه هو هل جمال الموضوعات التى تبجتها وعظمتها ، أو دقة طرق البرهنة على صحتها وقوة الاقتناع بها ، هى أعظم الأشياء جدارة بإعجابنا » .

ولما أن مات هيرون قام النزاع بين سرقوسة ورومة ، وهاجمها مارسلس الباسل برأً وبحراً . وكان أركيديدز وقتئذ (٢١٢) في السابعة والخمسين من عمره ولكنه مع هذا أشرف على الدفاع في الحربتين ، فأقام خلف الأسوار التى تحمى الميناء منجنيقات تقوى على قلب الحجارة الثقيلة مسافات بعيدة . وكان وابل القذائف التى تلقىها هذه المنجنيقات شديد الوقع فاضطر مارسلس إلى التقهقر حتى يفاجئ المدينة ليلاً . فلما أن أبصر أهلها سفن العدو قرب الشاطئ أهر الرماة بجارتها وابلا من السهام من بين الثقوب التى صنعها أعوان أركيديدز في الأسوار . وفضلاً عن هذا فقد وضع المخترع العظيم في داخل (١٢) - قصة الحضارة ، ج ٣ ، مجلد ٢)

هذه الأسوار رافعات وبكرات ضخمة تلقى بالقرب من السفن كتلا كبيرة من الحجارة والرصاص أغرقت الكثير منها . وكانت رافعة أخرى ، مسلحة بمخاطيف كبيرة تمسك بالسفن ، وترفعها في الهواء ، وتقذفها على الصخور ، أو تلقيها بمقدمها في البحر (*) (١٢) . وابتعد مارسلس بأسطوله ووضع كل أناله في هجومه برأ . ولكن أركيدينز أمطر الجنود حجارة ضخمة من منجنيقات بلغت من القوة والإحكام حداً اضطر معه الرومان إلى الفرار وهم يقولون إن الآلهة نفسها كانت تقاومهم ، وأبوا أن يتقدموا بعدئذ للقتال (١٣) .

وعلق پوليبوس على ذلك بقوله : « وهكذا تبدى في هذا الاختراع العظيم المدهش عبقرية رجل واحد استخدمت الاستخدام الصحيح » . ولم يكن الرومان الأقوياء بحراً وبراً يرتابون في الاستيلاء على المدينة من فورهم إذا أبعد عنها رجل واحد طاعن في السن ؛ وما دام هذا الرجل باقياً فيها فلأنهم لم يجرؤوا قط على مهاجمتها (١٤) .

وتحلى مارسلس عن فكرة الاستيلاء على المدينة عنوة وآثر أن يستولى عليها بالحصار الطويل ، فحُرب عليها حصاراً دام ثمانية أشهر نفدت فيها مؤناتها فاستسلمت له من فرط الجوع . وأعمل فيها الجند القتل والسلب لكن مارسلس أمرهم ألا يمسوا أركيدينز بأذى . والتقى في أثناء النهب جندي روماني بشيخ سرقوسي منهمك في دراسة أشكال رجمها على الرمل . فأمره الجندي الروماني بأن يحضر من فوره لمقابلة مارسلس وأبى أركيدينز أن يذهب إلا بعد أن تحل المسألة التي كان منهمكاً فيها . ويقول فلوطرخس إنه « ألح على الجندي وتوصل إليه أن ينتظره قليلاً ، حتى لا يضطر إلى ترك ما يشغل به ناقصاً لم يصل فيه إلى

(*) لوشيان هو أقدم المراجع التي نستند إليها في قولنا إن أركيدينز أشعل النار في السفن الرومانيه بتسلية . أشعة الشمس عليها من مزايا معقرة (١٣) . وأقوال لوشيان من المراجع التي لا يضح الاعتماد عليها كل الاعتماد .

نتيجة مقنعة ، ولكن الجندى لم يؤثر فيه رجاء الرجل فقتله من فوره (١٦) .
ولما سمع بذلك مارسلس حزن عليه وبذل كل ما في وسعه ليواسى أهل القتل (١٧).
وأقام القائد الرومانى قبراً فخماً تخليداً لذكراه نقش عليه بناء على رغبة العالم
الرياضى كرة داخل اسطوانة . ذلك أن أركيديدز كان يعتقد أن وصوله إلى
القوانين التى أوجد بها مساحتى هذين الشكلين وحجميهما أعظم ما عمله فى
حياته . ولم يكن الرجل فى ظنه هذا بعيداً كل البعد عن الصواب ، فإن إضافة
نظرية هامة إلى نظريات الهندسة أعظم قيمة للإنسانية من حصار مدينة أو الدفاع
عنها . ومن حق أركيديدز علينا أن نضعه فى المستوى الذى نضع فيه نيوتن ،
وأن نقول إنه ترك للعالم « عدداً من الاكتشافات الرياضية الجليلة الشأن
لا يفوقه فيه إنسان بمفرده فى تاريخ العالم كله (١٨) » .

ولولا كثرة الأرقاء وقلة أجورهم لكان أركيديدز زعيم انقلاب صناعى
حقيقى . ذلك أن رسالة فى المسائل الميكانيكية تعزى خطأ إلى أرسطو ، ورسالة
فى الأثقال تعزى خطأ إلى إقليدس ، وقد وضعتا عدة قوانين أولية فى علم القوى
المحركة (الديناميكا) وعلم القوى المتوازنة (الاستاتيكا) قبل أركيديدز بمائة
عام . وأعمال استراتو الميهسكوسى Strato of Lampasacus ، الذى تولى بعد
ثاوفراسطوس رئاسة اللوقيون ، ناديته البحرية إلى علم الطبيعة وصاغ (حوالى
عام ٢٨٠) المبدأ القائل بأن « الطبيعة تكره الفراغ » (١٩) . ولما أن أضاف إلى ذلك
قوله إن « الفراغ يمكن إيجاداه بوسائل اصطناعية » مهد بذلك السبيل إلى ألف
من المخترعات . فدرس تسبيوس الإسكندري Ctesibius طبيعة الممصات
(وكانت مستخدمة فى مصر من عام ١٥٠٠ ق . م) واخترع المضخة الرافعة ،
والأرغن المائى ، والساعة المائية . وأكبر الظن أن أركيديدز قد حسن اللولب
المائى المصرى (الطنبور) الذى أطلق عليه اسمه على غير علم منه ، وهو الآلة

التي جعلت الماء يجرى إلى أعلى^(٢٠) . واخترع فيلون البيزنطى الآلات التي تتحرك بالهواء ، وعدداً من آلات الحرب المختلفة الأنواع^(٢١) . وكانت الآلة البخارية التي اخترعها هيرون الإسكندري Heron of Alex. ، بعد أن فتح الرومان بلاد اليونان آخر مخترعات هذا العصر وأعظمها . وسبب ذلك أن التقاليد الفلسفية كانت أقوى من أن تقضى عليها هذه النزعة العلمية العملية ، وأن الصناعة اليونانية قد اقتصرت بالاعتماد على الأرقاء . لقد كان اليونان على علم بالمغنطيس وبما في الكهرمان من خواص كهربائية ، ولكنهم لم يروا في هذه الظواهر الغريبة ما يمكن أن تفيد منه الصناعة ، وحكم القدم على غير علم منه أن الحداثة غير جديرة بالعناية .

الفصل الثالث

أرستارخوس ، وهبارخوس ، وإراتستينز

تدين علوم اليونان الرياضية بازدهارها والقوة الدافعة لها إلى مصر ، ويدين الفلك اليوناني بازدهاره وقوته الدافعة إلى بابل . ذلك أن استيلاء الإسكندر على بلاد الشرق قد أدى إلى عودة تبادل الأفكار وإلى اتساع ذلك التبادل الذي أعان منذ ثلاثة قرون قبل ذلك الوقت على ميلاد العلم اليوناني في أيونيا . وفي وسعنا أن نعزو إلى هذا الاتصال الجديد بمصر والشرق الأدنى ما نراه من تناقض . فقد بلغ العلم اليوناني ذروته في العصر الهلنستي . ، حين كان الأدب اليوناني والفن اليوناني آخذين في الاضمحلال .

ولمع اسم أرستارخوس الساموسي في الفترة الواقعة بين العهدين اللذين سيطرت فيهما على علم الفلك النظرية القائلة بأن الأرض مركز الكون . وكان هذا العالم شديد التحمس للدراسة الفلك فلم يترك فرعاً منه إلا بحثه ، ونبغ في هذه الفروع جميعها^(٢٢) . ولسنا نجد في رسالته الوحيدة التي بقيت لنا حتى الآن والمسماة « في حجم الشمس والقمر وبعديهما^(*) » أية إشارة إلى أن الشمس مركز العالم ، بل إن هذه الرسالة تفترض عكس هذا ، تفترض أن الشمس والقمر يتحركان في دائرتين حول الأرض . ولكن كتاب أركيديدز « حاسب الرمل »

(*) قدر استارخوس حجم الشمس قدر حجم الأرض ثلثمائة مرة (وهي في الحقيقة أكبر منها بأكثر من مليون مرة) ، وتقديره هذا يبدو صغيراً ، ولكنه تقدير لو عرفه أنكسافورس أو أيقور لدعش منه . وقد قطر القمر بثلث قطر الأرض ، ولا يزيد خطأ هذا التقدير على ثمانية في المائة ، كما قدر بعد الأرض عن الشمس بقدر بعدنا عن القمر عشرين مرة (وهو يكاد يبلغ قدره أربعائة مرة) . ويقول في إحدى نظرياته إنه « حين يحدث كسوف كل الشمس تقع الشمس والقمر وتقتل داخل غروب واحد رأسه عند عيننا^(٢٨) » .

يعزو صراحة إلى أرسطارخوس « الفرض القائل إن النجوم الثابت والشمس تظل ثابتة لا تتحرك ، وإن الأرض تدور حول الشمس في محيط دائرة ، وإن الشمس في وسط هذا المدار » (٢٣) ، ويقول فلوطرخس إن كليثيز الرواقى كان يعتقد أن أرسطارخوس يجب أن يتهم « بتحريكه مسكن الكون » (أى الأرض) (٢٤) . وأيد سلوقس السلوقى Seleucus of Selucia رأى القائل بأن الشمس مركز العالم ، ولكن رأى العلماء فى العالم اليونانى قرر عكس مدا ، وينبؤ أن أرسطارخوس نفسه قد نزل عن هذا الافتراض حين عجز عن التوفيق بينه وبين حركات الأجرام السماوية التى كانوا يظنونها دائرية ، ذلك أن علماء الفلك على بكرة أبيهم كانوا يرون أن من القضايا المسلم بها قطعاً أن هذه الأفلاك دائرية . ولعل كراهية السم هى التى دفعت أرسطارخوس إلى أن يكون جليلو العالم القديم وكوبرنيقه .

وكان من سوء حظ العلم المثلثى أن أعظم الفلكيين اليونان هاجم النظرية القائلة إن الشمس مركز العالم بحجج كانت تبدو للناس أجمعين قبل كوبرنيق أنها حجج لا يمكن دحضها أبداً . وكان هيارخوس النيقى of Nicaea (فى بيشنيا) عالماً من الطراز الأول ، رغم ما وقع فيه من خطأ كان له شأن عظيم فى عصره ؛ فقد كان عظيم الشغف بالمعرفة ، طويل الصبر على البحث ، دقيقاً شديد العناية بالملاحظة ونقل ما يلاحظ إلى غيره ، حتى لقد أطلق عليه الأقدمون لقب « حبيب الحقيقة » (٢٥) . وقد مس وزان كل فرع من فروع الفلك تقريباً ، وظلت النتائج التى وصل إليها فيه ثابتة سبعة عشر قرناً كاملة . غير أننا لم يبق لنا من مؤلفاته الكثيرة إلا كتاب واحد - وهو شرح لكتاب الفينومينا Phainomena (الظواهر الطبيعية) ليوذكسوس ، وأراتوس الصولى ؛ ولكننا نعرفه من كتاب المحسطى تأليف كلوديوس بطليموس Claudius Ptolamy (١٤٠ م . تقريباً) ، لأن هذا الكتاب يعتمد على بحوثه وتقديراته . ومن أجل

هذا كان من الواجب أن يسمى « فلك بطليموس » « فلك هبارخوس » . وأكبر الظن أنه هو الذى حسن الاسطرلابات وآلات قياس الزوايا وهى أهم الآلات الفلكية فى زمانه ، ولعله قد استعان على هذا التحسين بنماذج الآلات البابلية ، واخترع طريقة تعيين الأماكن على سطح الأرض بخطوط الطول والعرض . وحاول أن ينظم الفلكيين فى بلاد البحر الأبيض المتوسط ليقوموا بأعمال الرصد والقياس التى يستطيعون بها تحديد مواضع البلاد الهامة بهذه الطريقة . لكن الاضطرابات السياسية حالت دون تنفيذ هذه الخطة حتى استتب النظام فى عصر بطليموس . واستطاع هبارخوس بفضل دراساته الرياضية للعلاقات الفلكية أن يضع جداول جيوب الزوايا ، وأن يتكرر بذلك حساب المثلثات . ومما لا ريب فيه أنه استعان بالسجلات المسماة التى جئ بها من بابل فحدد أطوال السنين الشمسية ، والقمرية ، والنجمية ، تحديداً لا يكاد يختلف عن أطوالها الصحيحة ؛ فقد قدر السنة الشمسية بثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع يوم إلا أربع دقائق و٤٨ ثانية - وهو يختلف عن تقدير هذه الأيام بست دقائق لا أكثر . وكان تقديره للشهر القمري الوسطى ٢٩ يوماً ، و١٢ ساعة ، و٤٤ دقيقة ، و ٢٦ ثانية . وهو يختلف عن التقدير المعترف به اليوم بأقل من ثانية (٣٧) . وحسب أزمته اقتران الكواكب ، وميل مدار القمر عن فلك الأرض ، وحدد أكبر بعد بين الشمس والأرض ، واختلاف موقع القمر بالنسبة للنجوم باختلاف موضع الراصد على سطح الأرض (٣٨) ، وقدر بعد القمر عن الأرض بمائتى ألف وخمسين ألف ميل فلم يخطئ إلا فى خمسة فى المائة .

واستنتج هبارخوس بالاعتماد على هذه المعلومات كلها أن القول بأن الأرض مركز العالم يفسر هذه الحقائق كلها أحسن مما يفسرها فرض أرستارخوس . ذلك أن النظرية القائلة بأن الشمس مركز العالم لا يمكن أن تثبت على التحليل الرياضى إلا إذا افترضنا أن مدار الأرض قطع ناقص ، وهو فرض لا يؤتم التأكيد

اليوناني ، حتى ليلدو أن أرسطارخوس نفسه لم يعن ببحثه . وأوشك هبارخوس أن يمسح في نظريته عن « الانحرافات » التي فسر بها ما يبدو من شذوذ في مرزعة مسير الشمس والقمر في فلكيهما حين قال إن مركزي فلكي الشمس والقمر مائلان قليلا على أحد جانبي الأرض . وأوشك هبارخوس أن يكون أعظم أصحاب النظريات الفلكية وأعظم الراصدين بين علماء الفلك الأقدمين على بكرة أبيهم .

وبينا كان هبارخوس يرقب السماء ليلة بعد ليلة إذ دهش ذات مساء لظهور نجم في مكان لا ريب عنده في أنه لم يرقب فيه نجما من قبل . ولكي يثبت ما سوف يحدث من اختلاف في مواضع النجوم في مستقبل الأيام صنع حوالى عام ١٢٩ ق . م . فهرسا ، وخريطة ، وكرة حدد فيها مواضع ١٠٨٠ من النجوم الثوابت بالنسبة لخطوط الطول والعرض السماوية . وقد أفاد دارسو السماء من عمله هذا أعظم فائدة . ووازن هبارخوس خريطته بخريطة تموكارس التي صنعها قبل خريطته بمائة وست وستين سنة فتبين أن النجوم قد غيرت مكانها الظاهري نحو درجتين في هذه الفترة الزمنية . على هذا الأساس كشف هبارخوس أدق كشوفه كلها (*) . وهو تقدم الاعتدالين - ويعنى به تقدم اللحظة التي تقع فيها نقطتا الاعتدالين على خط الزوال (**) . وقلد هذا التقدم بست وثلاثين ثانية كل سنة ؛ والتقدير المأخوذ به الآن خمسون ثانية .

ولقد كان بين أرسطارخوس وهبارخوس في الترتيب الزمني عالم آخر واسع

(*) هذا إذا لم يكن قد أخذه عن كدرو Kidānu البابلي الذي عاش قبله .

(**) الاعتدالان ، ومعنى اللفظ الإنجليزي (اليلتان المتساويتان equinoxes) هما اليومان اللذان تعبر فيهما الشمس في حركتها الظاهرية أثناء السنة خط الاستواء شمالا (وهو الاعتدال الربيعي عندنا ، والاعتدال الخريفي في نصف الكرة الجنوبي) أو جنوباً (وهو الاعتدال الخريفي عندنا والربيعي في نصف الكرة الجنوبي) وفي كل منهما يتساوى الليل والنهار يوماً واحداً . ونقطتا الاعتدالين هما النقطتان السماويتان اللتان يتقاطعان فيهما خط الاستواء السماوي بفلك الأرض .

الاطلاع ، في فروع من العلم متعددة ، ويمتاز بوزارة علمه في عدد كبير من الميادين ، وكان ثاني المتفوقين فيها جميعا ، ومن أنجل ذلك لقب بنتاثلوس وبيتا Pentathlos and Beta . وتقول الرواية المأثورة إن اوتستثنز تلقى العلم على معلمين أفذاذ : زينون الرواقى ، وأرسطوس المشكك ، وكللمخوس الشاعر ، ولبسنياس النحوى . وقبل أن يبلغ الأربعين من عمره ذاعت شهرته في كثير من فروع العلم المختلفة حتى جعله بطليموس الثالث أمين مكتبة الإسكندرية . وكتب ديوان شعر وتاريخا . للنسالة ، وحاول في كتاب الكرونوغرافيا Chronography أن يحدد أوقات الحوادث الكبرى في تاريخ بلاد البحر الأبيض المتوسط . وقد كتب أيضا رسائل في الرياضيات وابتدع طريقة آلية لإيجاد نسب وسطى متناسبة تناسباً مطرداً بين خطين مستقيمين . وقاس ميل مستوى الفلك وحدد هذا الميل بـ $23^{\circ}51'$ فلم يخطئ إلا في نصف في المائة . لكن أعظم أعماله هو تقديره طول محيط الأرض بـ $24,662$ ميلاً (٣٠) ، ونحن نقدره الآن بـ $24,847$. فقد لاحظ في ظهر يوم الانقلاب الصيفي أن الشمس عند مدينة سيني (*) تسطع عمودية على سطح جدار ضيق ، ثم عرف أن ظل مسلة في الإسكندرية التي تبعد عن سيني إلى الشمال بنحو خمسمائة ميل يدل على أن الشمس تميل عن سمت الرأس بنحو 7° إذا قيس وقت الزوال على خط الطول الذي يصل بين الببلين ، فاستنتج من هذا أن القوس الذي يبلغ 7° على محيط الأرض يساوى خمسمائة ميل ، وأن محيط الأرض بهذه النسبة $360 : 500,000$ أو $24,000$ ميل . وبعد أن قاس إرتستنز الأرض انتقل إلى وصفها فجمع في كتابه الجغرافيكيا Geographica تقريرات جميع علماء المساحة في الإسكندرية ، والرحالة البرين أمثال Megasthenes والبحريين أمثال نيارخوس ، والرواد أمثال پيثياس المسالياني Pythias of Massilia ، الذي طاف حول اسكتلندة في عام ٣٢٠ ،

(*) وتوقعها قرب موقع مدينة أسران الحالية . (المترجم)

ووصل إلى الترويج ولعله وصل أيضا إلى الدائرة القطبية الشمالية (٣١) . ولم يكتف أرستشيز بوصف تضاريس كل إقليم ومظاهره الطبيعية ، بل حاول أيضا أن يفسرها بفعل المياه الحارية، والنيران والزلازل والثورات البركانية (٣٢) ، وطلب إلى اليونان أن يتخلوا عن تقسيمهم الضيق لبني الإنسان إلى هلنيين وبرابرة ، وأعلن أن الناس يجب أن يقسموا أفراداً لا أقواماً ؛ وقال إنه يرى أن كثيرين من اليونان سفلة أنذال ، وأن كثيرين من الفرس والهنود قوم ظرفاء ؛ وأن الرومان قد أظهروا أنهم أكثر استعداداً من اليونان للنظام الاجتماعي والحكم الصالح القدير (٣٣) . ولم يكن يعرف إلا القليل عن شمالي أوروبا وآسية ، وكان علمه بالهند الممتدة جنوب نهر الكنج أقل من هذا القليل ؛ أما شمالي أفريقيا فلم يكن يعرف عنه شيئاً على الإطلاق . ولكنه كان على ما وصل إليه علمنا أول عالم جغرافي ذكر الصينيين في كتبه . وقد ورد في فقرة أخرى من هذه الكتب عظيمة الدلالة : « لو أن اتساع المحيط الأطلنطي لم يقم عتبة في سبيلنا لكان من السهل علينا أن ننقل بطريق البحر من إيبيريا Iberia (أسبانيا) إلى الهند مثبعين دائرة واحدة من دوائر العرض » (٣٤) .

افضل الرابع

ثاوفر اسطوس ، هيروفيلوس ، إراسستراتوس

لم يبلغ علم الحيوان في الزمن القديم مثل ما بلغه في كتاب أرسطو المسمى تاريخ الحيوان ، والراجع أن خليفته ثاوفر اسطوس قد اتفق معه على أن يوزع العمل بينهما ، فكتب هو تاريخ النبات ، وكتب بحثاً آخر أكثر إيفالاً في البحث النظري يسمى أسباب النبات . وكان ثاوفر اسطوس يحب فن فلاحه البساتين ويعرف كل صغيرة وكبيرة في موضوعه . وذات برعته العلمية في كثير من النواحي أعظم من نزعة أستاذه ، كما كان أكثر منه عناية بالحقائق ، وأدق نظاماً في عرضها ، ومن أقواله في هذا المعنى أن الكتاب الخالي من التصنيف غير خليق بأن يعتمد عليه مثله كمثل الجواد غير الملجم^(٣٥) . وقد قسم النباتات بجميعها إلى أشجار ، وشجيرات ، وأعشاب ، وحشائش ، وميز أجزاء النبات بعضها من بعض ، وقسمها إلى جلد ، ونساق ، وأغصان ، وعسلج ، وأوراق ، وأزهار ، وفاكهة — وهو تقسيم لم يدخل عليه أي تحسين حتى عام ١٥٦١ م^(٣٦) . وقد كتب في ذلك يقول : « للنبات قدرة على التوالد سارية في جميع أجزائه ، لأن فيه حياة تسرى فيها جميعاً . . . وطرق توالد النبات هي : الطريقة التلقائية من بلرة ، أو جلد ، أو قطعة تقطع منه ؛ أو غصن ، أو عسلج ، أو قطع من الخشب تقسم أقساماً صغيرة ، أو من الجوز نفسه^(٣٧) . » ولم يعرف شيئاً عن التكاثر بالتزاوج الجنسي في النبات ، اللهم إلا عن عدد قليل من أنواعه كأشجار التين ، ونخل البلح ، وهنا سار على نهج البابليين هو وصف عمليتي التلقيح ، والتخثين لإنباج الفاكهة قبل الألوان بوسائل أسطناعية . وبحث في التوزيع الجغرافي للنبات ، وفي فوائده للصناعة ، وفي أنسب الأحوال

الحوية لثمائه وقوته . ودرس التفاصيل الجزئية لنحو خمسمائة نوع من أنواع النبات دراسة دقيقة في جميع أجزائها دقة تثير الدهشة ، وذلك في وقت لم يكن فيه مجهر يعين على هذه الدراسة . وأدرك قبل تجيته بعشرين قرناً أن الزهرة ورقة متحولة^(٢٨) . وكان عالماً طبيعياً في أكثر من ناحية ، يرفض بقوة ما كان منتشرًا في أيامه من تفسير بعض المظاهر العجيبة في النبات بالرجوع إلى القوى غير الطبيعية^(٢٩) . وكان يتصف بما يتصف به العلماء من حب البحث ، ولم يكن يرى أن مقامه بوصفه فيلسوفاً ينقص منه أن يكتب رسائل كل واحدة منها في موضوع واحد ، كالخجارة ، والمعادن ، والجو ، والرياح ، والسأم ، والهندسة النظرية ، والفلك ، ونظريات الطبيعة التي كانت منتشرة عند اليونان قبل أيام سقراط^(٣٠) . وفي ذلك يقول سارتن Sarton « لو لم يكن أرسطو من رجال ذلك العصر لسمى عصر ثاوفراسطوس^(٣١) » . ونلخص « كتاب » ثاوفراسطوس التاسع كل ما كان يعرفه اليونان عن خواص النباتات . وفي هذا الكتاب فقرة تشير إلى التخدير وردت في قوله إن « الدقتمون dittany نبات نافع بوجه خاص للنساء في أثناء الوضع » ويقول بعض الناس إنه إما أن يسهل الوضع أو إنه يوقف الألم^(٣٢) » . وتقدم الطب بخطى سريعة في هذا العصر ، ولعل سبب تقدمه أنه كان لا بد له أن يسير بنفس السرعة التي تفشوا بها الأمراض الجديدة المتزايدة في حضارة المدن المعقدة . وكانت دراسة اليونان لمعلومات المصريين الطبية باعثاً قوياً على هذا التقدم . وكان البطالة لا يترددون في تقديم أية مساعدة يحتاجها علماء الطب ، فلم يكونوا يميزون تشريح الحيوانات وجثث الموتى من الآدميين فحسب ، بل كانوا يرسلون بعض الجرمين المحكوم عليهم بالإعدام لتشرح أجسادهم وهم أحياء^(٣٣) . وبفضل هذا التسجيع أصبح التشريح الأدنى علماً ، وقلت إلى حد كبير الأغلاط السبخيفة التي وقع فيها أرسطو .

وقام هيروفيلوس الخلقدوني الذي كان يعمل بالإسكندرية حوالي عام ٢٨٥

بتشريح العين ووصف الشبكية وأعصاب النظر وصفاطيها . وشرح أيضاً المخ ، ووصف مقدم الدماغ ، والمخيخ ، والسحايا ، وسمى باسمه معصار هيروفيل^(٤٥) . وأعاد للمخ مكانته السامية بأن جعله مركز التفكير ، وفهم وظيفة الأعصاب ، وكان البادئ بتقسيمها إلى أعصاب حس وأعصاب حركة ، وفصل أعصاب الجمجمة عن أعصاب النخاع الشوكي ، وميز الشرايين من الأوردة ، وحدد وظيفة الشرايين بأنها هي الأوعية التي تحمل الدم من القلب إلى مختلف أجزاء الجسم ، وكشف في واقع الأمر الدورة الدموية قبل أن يكشفها هارفي^(٤٦) Harvey بتسعة عشر قرناً . وقد أخذ بإشارة وردت في أقوال بركساغورس الطبيب الكوسى فضم جس النبض إلى وسائل تشخيص الأمراض ، واستخدم ساعة مائية لقياس عدد ضربات القلب . وشرح المبيض والرحم والحويصلات المنوية ، وغدة البرستاتة ووصفها كلها ، ودرس الكبد ، والبنكرياس ، ومبى المعاء الاثنى عشرى بالاسم الذى لا يزال يعرف به إلى اليوم^(٤٧) . ومن أقوال هروفيوس المأثورة : « إن العلم والفن لا يكون لهما ما يعرضانه ، وإن القوة لتعجز عن بدل أى جهد ، والثروة لتصبح عديمة النفع ، والفصاحة تفقد قوتها ، حين تنعدم صحة الجسم »^(٤٨) .

ولقد كان هروفيوس ، على قدر ما نستطيع أن نحكم بالاستناد إلى معلوماتنا الحاضرة ، أعظم علماء التشريح في العهد القديم ، كما كان إرسستراتوس أعظم علماء وظائف الأعضاء . وقد ولد إرسستراتوس في كيوس Ceos ، ودرس في أثينة ، ومارس مهنة الطب في الإسكندرية حوالى عام ٢٥٨ ق . م . وقد استطاع أن يميز المخ من المخيخ تمييزاً أدق من هروفيوس ، وأجرى تجارب على الأجسام الحية لدراسة عمليات المخ ، ووصف وشرح عمل الغلصمة (لسان المزمار) ، والأوعية اللمفاوية في غشاء الأمعاء ، والصمامين الأورطى ،

(٥٠) هو مصب تجاوبت اللعاب في الأم الحامئة أو الغشاء الخارجى للبحر .

والرثوى في القلب . وكان لديه فكرة ما عن الثقل الأساسي للأغذية لأنه ابتدع مسعرا فجاء لقياس حرارة الزفير (١٧) . ويقول إرستراتوس إن كل عضو يتصل بسائر أجزاء الكائن الحي بثلاث طرق - بشريان ، ووريد ، وعصب . واجتهد أن يعلل جميع الظواهر الفسيولوجية بعلة طبيعية ، ورفض كل ما يشير إلى موجودات خفية كما رفض نظرية الأخلاط التي قال بها هارخوس ، والتي احتفظ بها هروفيلاوس . وكان يرى أن الطب هو فن منع المرض بمراعاة قواعد الصحة ، وليس هو علاج المرض بالدواء . وكان يقاوم كثرة استعمال العقاقير ، والحجامة ، ويعتمد على تنظيم التغذية والاستجمام والرياضة (١٨) .

أولئك هم الرجال الذين جعلوا الإسكندرية في العصر القديم أشبه بقينا في هذه الأيام . غير أنه كانت توجد أيضا مدارس عظيمة للطب في ترليس Tralles وميليطس ، وإفسوس ، وبرجموم ، وتاراس ؛ وسرقوسة . وكان للكثير من المدن إدارات طبية بلدية ، يتقاضى الأطباء القائمون بالعمل فيها مرتبا وسموا ، ولكن كان من أسباب فخرهم أنهم لا يفرقون بين الأغنياء والفقراء والأحرار والأرقاء ، وأنهم كانوا يهبون أنفسهم لعملهم في أى وقت مهما يكن الخطر المحدق بهم . فقد ذهب أبولونيوس الملطي ليكافح الطاعون في الجزائر القريبة من موطنه دون أن ينال على ذلك أجرا ، ولما أن فتك المرض بجميع أطباء كوس بعد أن بذلوا كل ما يستطيعون من الجهد لمقاومته ، أقبل غيرهم من أطباء المدن المجاورة لإنقاذهم . وما أكثر القرارات العامة التي أصدرها الحكام للإشادة بذكر الأطباء الهلنستيين والاعتراف بفضلهم ، ومع أن الكثيرين من القدماء كانوا يسخرون من عجز الأطباء الأجورين ، فإن هذه المهنة العظيمة قد احتفظت بذلك المستوى الأخلاقي الرفيع الذي ورثته عن أبقراط والذي كانت تعده أعظم تراثه وأمنه .

الباب التاسع والعشرون

استسلام الفلسفة

ثلاث نزعات امتزجت في الفلسفة اليونانية : النزعة الطبيعية (الفيزيقية) والنزعة الميتافيزيقية ، والنزعة الأخلاقية . ووصلت النزعة الطبيعية إلى غايتها في أرسطو والميتافيزيقية في أفلاطون ، والأخلاقية في زينون القتيوى ، وانتهى تطور النزعة الطبيعية بفصل العلم عن الفلسفة على يد أركيديدز ، وهبارخوس ، وانتهت النزعة الميتافيزيقية بتشكك بيرون Pyrrho والمجمع المتأخر ، وبقيت النزعة الأخلاقية حتى غلبت المسيحية على الأبيقورية والرواقية أو اندمجتا فيها .

الفصل الأول

هجوم المتشككة

لقد احتفظت أثينة في هذه الثقافة الهلنسية — وكانت هي أم الكثير ، وصيدة الحزم الأكبر ، منها — احتفظت فيها بمكان الزعامة في ميدانين : التمثيل والفلسفة . ولم يكن العالم منهمكا في الحروب والثورات ، والعلوم الجديدة والأديان الجديدة ، وحب الجمال والجري وراء المال ، لم يكن منهمكا في هذا كله إلى حد لا يستطيع معه أن يجد بعض الوقت ينفقه في المشاكل التي لا يجد لها جوابا ، ولكنها لاتنفلك تواجهه فلا يستطيع منها فراراً ، مسائل الخطأ والصواب ، والمادة ، والعقل ، والحرية والضرورة ، والتبل والخسة ، والحياة والموت . وقدم الشبان من جميع مدن البحر الأبيض المتوسط ، وكثير

ماكانوا يلاقون أشد الصعاب وهم قادمون ، ليدرسوا في الأبهاء والحدائق
الى خلفها أفلاطون وأرسطو آثاراً لهما خالدة من بعدهما .

وواصل ثاوفراسطوس السبوسى المحد النشاط فى اللوقيون تقاليد الطريقة
الاختبارية . لقد كان المشامون علماء وباحثين أكثر منهم فلاسفة ، وهبوا
حياتهم للبحث المتخصص فى علوم الحيوان والنبات ، والسير ، وتاريخ العلوم ،
والفلسفة ، والأدب ، والقانون . وارتاد ثاوفراسطوس فى أثناء زعامته العلمية
الى دامت أربعاً وثلاثين سنة (٣٢٢ - ٢٨٨) بميادين علمية كثيرة ، ونشر
بحوثه فى أربعائة مجلد تكاد تعالج كل موضوع من الحب إلى الحرب . وقد شدد
التكبر على النساء فى رسالته « فى الزواج » ، فردت عليه لينتيوم حظية أبيقور
برسالة غزيرة المادة ، شديدة الوقع عليه ، فندت فيها أراءه^(١) . ومع هذا
فلان اثنيوس يعزو إلى ثاوفراسطوس ذلك القول الدال على رقة العاطفة :
« إن التواضع هو الذى يجعل الجمال جميلاً »^(٢) ويصفه ديجين ليرنس بأنه
« من أحب الناس للخير ومن أكثرهم ظرفاً » . وقد بلغ من فصاحته أن نسي
الناس اسمه الأول فلم يذكره إلا بالاسم الذى أطلقه عليه أرسطو والذى يعنى
أنه يتكلم كما تتكلم الآلهة ؛ وقد بلغ من حب الناس لياه أن ألفين من الطلاب
كانوا يهرعون إلى سماع محاضراته ، وكان مناندر من أخلص أتباعه^(٣) .
أوقد عنى الناس من بعده أشد العناية بالاحتفاظ بكتابه فى « الأخلاق » ،
ولم يكن احتفاظهم به لأنه أوجد طرازاً جديداً فى الأدب ؛ بل لأنه صخر أشد
السخرية من الأخطاء التى يعزوها الناس جميعاً لغيرهم من الناس . فهنا الرجل
الثرثار الذى يبدأ يمدح زوجته ، ثم يروى الرويا التى نراها فى الليلة السابقة ،
ويعدد أصناف الأطعمة التى تناولها فى العشاء صنفاً صنفاً ؛ ثم يحتم حديثه
يقوله « إننا لم نعد كما كنا » من قبل فى الأيام الحالية . وهنا الرجل الغبي الذى

« إذا ذهب ليشاهد مسرحية ، تركه الناس في آخر التمثيل مستغرقاً في النوم في الدار الخاوية . . فهو يثقل معدته بالعشاء الدسم ، فيضطر إلى السهر ليلاً ، ويعود إلى منزله وهو بين النوم واليقظة ، فلا يعرف بابه ، ويعضه كلب جاره » (٤) .

ومن الحوادث القليلة في حياة ثاوفراسطوس أن الدولة أصدرت مرسوماً (٣٠٧) يحتم موافقة الجمعية على من يختارون لرياسة المدارس الفلسفية . فحوالى هذا الوقت نفسه ، وجه أجنيديز Agnonides إلى ثاوفراسطوس التهمة القديمة ، تهمة المروق من الدين ؛ فإما كان من ثاوفراسطوس إلا أن غادر أثينة في هدوء ، ولكن الطلاب الذين غادروها بعده بلغوا من الكثرة حداً جعل التجار يجأرون بالشكوى من كساد بضاعتهم الذى يوشك أن يحل بهم الخراب . فلم تمض سنة على صدور المرسوم حتى اضطرت الدولة إلى إلغائه ، وعاد ثاوفراسطوس ظافراً لرأس اللوقيون ويظل رئيساً لها إلى قرب وفاته في سن الخامسة والثمانين . ويقال إن « أثينة بأجمعها » شيعت جنازته . ولم تبق مدرسة المشائين طويلاً بعد وفاته ؛ ذلك أن العلم خرج من أثينة بعد أن افتقرت إلى الإسكندرية الغنية الرخية ، وانحطت اللوقيون التي كانت قد وهبت نفسها للبحث العلمى فلم يعد يسمع الناس عنها إلا القليل .

وفي هذه الأثناء كان اسبيوسيبوس Speusippus قد خلف أفلاطون أكسانوقراطيس أسبيوسيبوس Xenocrates Speusippus في الجمع العلمى . وظل أكسانوقراطيس يحكم الجمع ربع قرن من الزمان (٣٣٩ - ٣١٤) ، ورفع من شأن الفلسفة بحياته النبيلة البسيطة . وقد انهمك في الدرس والتعليم ، فلم يكن يترك الجمع إلا مرة واحدة في العام ليشهد المآمى الديونيشية ، ويقول ليرتيوس إنه كان إذا ظهر « أفسح الطريق له غوغاء المدينة المشاكسون المشاغبون » (٥) . وكان يأبى أن يتقاضى أجراً ما على عمله . وبلغ من فقره

أن كاد يزج به في السجن لعجزه عن أداء الضرائب ، ولكن أمثريون من الفالرومي أدى عنه ما كان متأخراً عليه وأطلق سراحه . وقال فليب المقدوني إن أكسانوقراطيس كان أظهر يدا من جميع الشعراء الأثينيين الذين أرسلوا إليه . وقد تضايقت فريني Phryne من اشتهاره بالفضيلة ، فادعت أن بعض الناس يطاردونها ، ولجأت إلى بيته ، ولما رأت أن ايس فيه إلا سرير واحد سألته هل يقبل أن تنام معه فيه . وأجابها إلى ماطلبت مدفوعاً إلى ذلك ، على ما يقال لنا ، بعوامل إنسانية محضة ؛ ولكنه بلغ من بروده وعدم استجابته لتوسلاتها وفنتها ، أن فرت من فراشه وضيافته ، وشكته إلى أصدقائه قائلة إنها وجدت تمثالا لا رجلاً (٦) . ذلك أن أكسانوقراطيس لم يكن يريد أن يعيش غير الفلسفة .

ولما مات أوشكت النزعة الميتافيزيقية في التفكير اليوناني أن يُقضى عليها في الأيكة التي كانت مزارها ومتعبدا . ذلك أن خلفاء أفلاطون كانوا من علماء الرياضة والأخلاق ، وقلما كانوا ينفقون شيئاً من وقتهم في دراسة المسائل المجردة التي كانت من قبل تتردد بين جوانب المجمع العلمي ، واستعدادات تحديات زيتون الإلإيائي التشككية ، ونزعة هرقليطس الموضوعية ، وتشكك غورغياس وپروتاغوراس المنظم ، ولا أدريه سقراط وأرسطوس وإقليدس المجاري ، استعداد هذه كلها ما كان لها من سيطرة على الفلسفة اليونانية ، وكان ذلك خاتمة عصر العقل . لقد فكروا في كل فرض من الفروض العلمية ، وبحث ثم نسي وأهمل ؛ واحتفظ الكون بأسراره ، ومل الناس البحث الذي عجزت عنه أنبه العقول نفسها . وكان أرسطو قد اتفق مع أفلاطون في نقطة واحدة - وهي أن في الإمكان الوصول إلى الحقيقة النهائية (٧) . وعبر پرون Pyrrho عن تشكك عصره بقوله إن هذه النقطة هي التي أخطأ فيها الفيلسوفان أكثر مما أخطأ في أية نقطة أخرى .

وولد پرون في أليس Elis حوالي عام ٣٦٠ وسار مع جيش الإسكندر

الزاحف على الهند ، وتلقى العلم على « من فيها من » السوفسطائيين العراة Omnosophists ، ولعله أخذ عنهم بعض آرائهم عن التشكك الذى صار اسمه مرادفا له فيما بعد . ولما عاد إلى ليس عاش فقيراً يعلم الناس الفلسفة . وقد منعه الحياء من تأليف الكتب ، ولكن تلميذه تيمون الفليوسي Timon of Phlius نشر آراء بيرون في أنحاء العالم في سلسلة من رسائل الهجاء (Silloli) . وكانت هذه الآراء تقوم على ثلاث قواعد رئيسية أولاها : أن الحقيقة لا يمكن الوصول إليها ، وأن الرجل العاقل يرجئ حكمه ، ويبحث عن الطمأنينة لا عن الحقيقة ، وأنه لما كانت كل النظريات خاطئة في أغلب الظن فإن من الخير للإنسان أن يقبل أساطير زمانه ومكانه وما جرى به العرف فيهما . وثانيها أن ليس في مقدور الحواس أو العقل أن تمدنا بعلم أكيد : فالحواس تشوه الشيء الخارجى حين تحسه ، وليس العقل إلا خادماً للشهوات المغالط الخادع . وكل قياس منطقي يصادر على المحمول لأن قضيته الكبرى تفترض صحة النتيجة . وكل علة لها علة تقابلها وتناقضها (٨) ؛ والتجربة الواحدة قد تكون سارة حسب الظروف المحيطة بها ومزاج صاحبها ؛ والشيء الواحد قد يبدو صغيراً أو كبيراً ، قبيحاً أو جميلاً ؛ والعمل الواحد قد يعد فضيلة أو رذيلة حسب المكان والزمان اللذين نعيش فيهما ؛ والآلهة نفسها قد تكون وقد لا تكون حسب اعتقاد أمة الخلائق المختلفة ؛ وكل شيء هو رأى ، ولا شيء قط حقيقى كل الحق — فمن الحق إذن أن ينحاز الإنسان في المنازعات إلى هذا الجانب أو ذلك ، أو أن يبحث له عن مكان آخر يعيش فيه أو طريقة أخرى يعيش بها ، أو أن يحسد المستقبل أو الماضي ، فالرغبات كلها خداع باطل . وحتى الحياة نفسها خير غير مؤكد ، والموت نفسه ليس شراً مؤكداً ، والواجب على الإنسان ألا يتحيز ضد هذا الشيء وذاك . وثالثة هذه القواعد أن أفضل الأشياء جميعها للإنسان أن يقبل الحياة كما هي في هلوء واطمئنان ، فلا يحاول إصلاح العالم ، بل يرضى به وهو صابر عليه ، ولا ينهمك في العمل على تقدمه ، بل يقنع بالسلام . ويحاول بيرون مخلصاً أن يسير في حياته على

هدى هذه الفلسفة النصف الهندية ، فخضع لعادات إليس وعبادتها ، ولم يبذل جهداً ما في تجنب الأخطار أو إطالة حياته^(٩) ، ومات في سن التسعين . وأحبه مواطنوه ورضوا عنه وكرموا به بأن أعفوا زملاءه الفلاسفة من الضرائب .

وكان من سخریات الأيام أن أتباع أفلاطون هم الذين وجهوا هذه الحملة على الميتافيزيقا . ذلك أن أرسيلوس الذي أصبح في عام ٢٦٩ رئيس « المجمع العلمي الأوسط » حول رفض أفلاطون للمعاملات المستمدة من الخواص إلى تشكك كامل يضارع في ذلك تشكك بيرون ، ولعلمهم فعلوا ذلك بتأثير يبرزون نفسه . ومن أقوال أرسيلوس في هذا المعنى : « لاشيء مؤكد ، حتى ذلك القول نفسه^(١١) » . ولما قيل له إن هذه العقيدة تجعل الحياة مستحيلة قال إن الحياة قد عرفت من زمن بعيد كيف تدبر أمراً بالاحتمالات . وقام على رأس « المجمع العلمي الجديد » بعد قرن من الزمان رجل آخر كان أكثر تشككاً من أرسيلوس ، وأوصل عقيدة التشكك العام إلى العدمية الذهنية والأخلاقية ، ونعني بذلك الرجل قرنيادس القوريني Carneades of Cyrene . فقد جاء هذا الأبلار (*) اليوناني إلى أثينة حوالي عام ١٩٣ ، ونقص الحياة على كريسيبوس Chrysippus وغيره من معلميه ، بحججه الدقيقة المؤلفة ضد كل عقيدة يعلمونها . وإذا كانوا يرغبون أن يجعلوه عالماً منطقياً ، فقد اعتاد أن يقول لهم موجهها قوله إلى پروتاغوراس : « إذا كان منطقي صحيحاً فيها ونعمت ، وإذا كان خطأ فأعيذوا إلى ما أدبته من الأجر لتعليمي^(١٢) » . ولما أنشأ لنفسه حانوتاً كان يحاضر في صباح يوم ما فيحذر رأياً من الآراء ، وفي اليوم التالي يحذر نقيضه ، ويبرهن على صحة كليهما بحيث يقضي عليهما جميعاً ، بينما كان تلاميذه ، وكاتب سيرته نفسه ، يحاولون عبثاً أن يعرفوا آراءه الحقيقية . وأخذ على عاتقه أن يفند واقعية الرواقين المادية ببحثه التحليلي الأفلاطوني - الكائني في الخواص والعقل .

(*) يير أبلار Pierre Abelard الفيلسوف الفرنسي ١٠٧٩ - ١١٤٢ . (المترجم)

وهاجم كل النتائج المنطقية ووصفها بأنها لا يستطيع الدفاع عنها عقليا ، وأمر طلابه أن يقنعوا بالاحتمالات ويرضوا بعادات زمانهم . ولما أرسلته أثينة ضمن بعثة سيامية إلى رومة (١٥٥) أدهش مجلس الشيوخ بأن خطب في يوم من الأيام مدافعا عن العدالة ، ثم خطب في اليوم التالى مستهزئا بها وواصفا لإياها بأنها حلم غير عملي وقال : إذا شئت رومة أن تتبع طريق العدالة فعلها أن تعيد إلى أمم البحر الأبيض المتوسط كل ما أخذته منها بفضل تفوقها عليها في القوة^(١٣) . وفي اليوم الثالث اضطر كاتو أن يعيد البعثة إلى بلدها لأنها خطر على الأخلاق العامة . وربما كان بوليوس - وكان وقتئذ رهينة عند سيبو - قد سمع هاتين الخطبتين أوسمع عنهما ، لأنه يندد بتنديد الرجل العملى بأولئك الفلاسفة .

« الذين دربوا أنفسهم في مناقشات المجمع العلمى على الإفراط فى الاستعداد للخطابة . ذلك أن بعضهم يلجئون إلى أشد الأشياء تناقضا فيما يبدلون من جهد ليحيروا عقول سامعيهم ، وأنهم برعوا فى اختراع ما يبررون به هذه المتناقضات ، حتى أنك تراهم يناقشون وهم حيارى لا يبدرون هل يستطيع من فى أثينة أن يشموا رائحة البيض الذى يغلى فى إفسوس أو لا يستطيعون أن يشموها ، ويظنون طوال الوقت الذى يناقشون فيه مسألة فى المجمع العلمى أنهم قد يكونون نائمين فى بيوتهم يولفون خطبهم فى أحلامهم . . . وقد سوءوا سمعة الفلسفة جميعها بهذا الحب المفرط للمتناقضات . . . وغرسوا فى عقول شبابنا هذا الحب الشديد ، فكان من أثره أن أولئك الشبان لا يفكرون أقل تفكير فى المسائل الأخلاقية والسياسية التى تفيد طلاب الفلسفة بحق ، بل تراهم يقضون وقتهم فى محاولات عديدة الجذوى لاختراع السخافات والأباطيل التى لا نفع فيها »^(١٤) .

الفصل الثاني

فرار الأبيقورية

لقد أخطأ پوليبوس إذ ظن أن المسائل الأخلاقية قد فقدت إغراءها للعقل اليوناني ، وإن كان قد وصف للأجيال التالية الكثيرة صاحب النظريات الذي يضيع حياته في دياجير البحث النظري المعقد . ودلينا على خطئه في هذا الظن أن النعمة الأخلاقية نفسها هي التي حلت في ذلك العهد محل النغمتين الفيزيقية والميتافيزيقية فكانت النعمة السائدة في الفلسفة . والحق أن المشاكل السياسية قد خمدت نارها لأن حرية الكلام قد قضى عليها وجود الحاميات الملكية في البلاد أو ذكرى وجودها ، وفهم الناس ضمنا أن الحرية القومية إنما تقوم على الهدوء والاستقرار . يضاف إلى هذا أن مجد الدولة الأثينية كان قد انقضى عهده ، وأن الفلسفة كان عليها أن تواجه تلك القطيعة التي لم يكن لبلاد اليونان عهد بها من قبل ونعني بها القطيعة بين السياسة والأخلاق . وكان عليها أن تجد أسلوبا للحياة يجمع بين رضاء الفلاسفة وعدم التعارض مع العجز السياسي . ولذلك لم تفهم المشكلة التي تواجهها على أنها لم تعد مشكلة بناء دولة عادلة ، بل فهمتها على أنها تكوين الفرد الراضى القانع المنطوى على نفسه .

وقد سار التطور الأخلاقي وقتئذ في اتجاهين متضادين ؛ فسلكت أحدهما السبيل التي يتزعمها هرقليطس ، وسقراط ، وأبستانس ، وديجين ، ووسع نطاق الفلسفة الكلية حتى أضحت هي الفلسفة الرواقية . وتفرع الطريق الآخر من دمقريطس ومال ميلا شديدا نحو أرسطو وأجندب العقيدة القورينية إلى العقيدة الأبيقورية . وجاءت الزرعنان من آسية وكانت كلتاهما تعويضا فلسفيا عن التدهور الديني والسياسي الذي حل في ذلك الوقت . فاشتقت الرواقية من العقيدة السامية عقيدة وحدة الوجود ، والخيرية ، والاستسلام

للقبضاء والقدر ؛ واشتقت الأبيقورية من طبيعة اليونان المستوطنين شواطئ آسية وما فطروا عليه من حب اللذة .

وقد ولد أبيقور في جزيرة ساموس عام ٣٤١ . وشغف بالفلسفة وهو في الثانية عشرة من عمره ؛ ولما بلغ التاسعة عشرة رحل إلى أثينة وقضى عاماً في مجملها العلمي ، وكان كفرنيسيس يبكن يفضل ديمقريطس عن أفلاطون وأرسطو ، وعنه أخذ بعض البنات التي شاد بها فلسفته ، كما أخذ عن أرسطوس حكمة اللذة ، وعن سقراط لذة الحكمة ، وعن برون عقيدة الهدوء ، واسمها الطنان الرنان أتركسيا Ataraxia : وما من شك في أنه كان يرقب بكثير من الاهتمام حياة معاصره ثيودورس القوريني ، الذي كان يخطب في أثينة داعياً إلى الخروج على الدين والأخلاق جبهة وفي صراحة جعلت الجمعية توجه إليه مهمة الإلحاد^(١٥) — وكان درساً لم ينسه أبيقور قط . ثم عاد إلى آسية وأخذ يلقى محاضرات في الفلسفة في كلوفون Colophon . وقد بلغ من تأثير للمهسكين بآرائه وأخلاقه أن شعروا بوخز ضميرهم على أنانيتهم إذ يحتفظون به في مدينتهم النائية ، فجمعوا مبلغاً من المال قدره ثمانون مينا (٤٠٠٠ ريال أمريكي) ، واشتروا به بيتاً وحديقة في ضواحي أثينة ، وأهدوها إلى أبيقور ليكونا له مدرسة ومنزلاً . ولما بلغ أبيقور الخامسة والثلاثين من عمره في عام ٣٠٦ اتخذ هذه الدارسة مسكناً له وأخذ يعلم الأثينيين فلسفة لم تكن أبيقورية إلا في اسمها ؛ وكان من أدلة تبحر النساء في ذلك الوقت أنه كان يرحب بهن حين يجتن للاستماع إلى محاضراته ، بل كان يرحب بهن في الجماعة القليلة العدد التي كانت تسكن معه . ولم يكن يفرق بين الناس بسبب مراكزهم أو أجناسهم ، فكان يقبل العاهرات والزوجات ، والأرقاء والأحرار ، وكان أحب تلاميذه إليه عبده ميسيس Mysis : وأضحت العاهر ليونتيوم Leontium عشيقته وتلميذته ، ووجدت فيه رقيقاً شديد الغيرة كأنه قد حصل عليها بالطريقة

القانونية المرسومة . وولدت منه طفلاً واحداً ، وبثأثيره ألفت عدة كتب لم يتأثر فيها أسلوبها بفساد أخلاقها :

وأما فيما عدا هذا فقد عاش أبيقور عيشة الرواقين البسيطة ، واتخذ له شعاراً « عش معتدلاً » . وكان يؤدى واجبه فى طقوس المدينة الدينية ، ولكنه لم يلوث يديه بشئون السياسية ، ولم يقيد روحه بشئون العالم . وكان يقنع فى غذائه بالماء وقليل من الخمر ، والخبز والحب . وكان منافسوه يتهمون به بأنه يملأ معدته بالطعام حين كان ذلك فى مقدوره ، وأنه لم يتعفف عن الإكثار منه إلا حين أثلف جهازه الهضمى بكثرة الأكل . ولكن ديجين ليرتيوس يؤكد لنا : « أن الذين يقولون هذا مخطئون جميعهم » ويضيف إلى ذلك قوله : « إن كثيراً من الناس ليشهدون بما ينطوى عليه قلب الرجل من شفقة ، ليس بعدها شفقة ، على الناس جميعاً — سواء فى ذلك أهل بلاده التى كرمته بإقامة التماثيل ، وأصدقائه الذين كانوا من الكثرة بحيث تضيق بهم مدن برمتها (١٧) » . وكان باراً بأبويه ، سخيّاً مع إخوته ، رفيقاً بخدمة الذين كانوا يشتركون معه فى دراساته الفلسفية . ويقول سنكا إن تلاميذه كانوا ينظرون إليه نظرهم إلى إله قائم بينهم ، وكان شعارهم بعد موته هو : « عش كأن عين أبيقور ترقبك » .

وقد وجد بين دروسه وحبه من الوقت ما يؤلف فيه ثلثمائة كتاب . وحفظ لنا روماديركيولا تيوم قطعاً متفرقة من أهم كتاب له وهو المسمى « فى الطبيعة » . وورث المتأخرون عن ديجين ليرتيوس ، أفلاطون وخس الفلسفة ، ثلاثة من خطابات ، وأضافت إليها الاستكشافات المتأخرة عدداً آخر منها قليلاً . وأهم من هذا كله أن لكريشيوس خلد أفكار أبيقور فى قصيدة له تعد أعظم القصائد الفلسفية على الإطلاق .

ولعل أبيقور قد أدرك وقتئذ أن فتوح الإسكندر كانت تطلق من الشرق على بلاد اليونان ما لا يحصى من الطقوس الغامضة الخفية ، فبدأ بتقرير المبدأ

القاتل إن يهدف الفلسفة هو أن تحرر الناس من الخوف - وخاصة من خوف الآلهة ، وهو يكره الدين لأن الدين ، في رأيه ، يقوم على الجهل ، ويزيده ، ويظلم الحياة بما يبعث في النفس من رهبة جواسيس السماء ، والأقدار الصارمة القاسية ، والعقاب الذي لا يقف عند حد . ويقول أبيقور إن الآلهة موجودة ، وإنها تستمتع في مكان بعيد بين النجوم بحياة صافية هادئة منزهة عن الموت ، ولكنها أعقل من أن تشغل نفسها بشئون البشر . وهم ذلك النوع الصغير النافه من الخلاق . وليست الآلهة هي التي أنشأت العالم وليست هي التي ترشده وتسيره . وكيف يستطيع هؤلاء الأبيقوريون المقدسون أن يخلقوا هذا العالم الوسيط ، وهما المشهد المكون من خليط من النظام والقوضى ، والجمال والألم (١٠) ؟ ، ويضيف أبيقور إلى ذلك قوله : « فإن كان هذا لا يرضيكم ، فلتعزوا أنفسكم بأن تفكروا في أن الآلهة بعيدة عنكم بعداً لا تستطيع معه أن تضركم أو تفعلكم ، ذلك أنها لا تستطيع أن تراقبكم ، أو أن تحكم على أعمالكم ، أو أن تقلد بكم إلى الجحيم . أما الآلهة الخبيثة أو الشياطين فهي أوهم تعة تصورها لنا أحلامنا » .

وبعد أن رفض أبيقور الدين رفضاً أيضاً الميتافيزيقا . وحجته في هذا أننا عاجزون عن معرفة شيء عن العالم الذي لا تتركه الحواس ، ولذلك يجب ألا نشغل عقولنا بغير التجارب التي تتركها الحواس ، وأن نعد هذه التجارب آخر محك للحقيقة : ويجمع أبيقور في جملة واحدة كل المسائل التي ناقشنا لك Locke وليبنز Leibnitz بعد ألفي عام من ذلك الوقت : إذا لم تأت المعرفة من الحواس ، فمن أي طريق آخر تأتى إذن ؟ وإذا لم تكن الحواس هي الحكم الأخير في الحقائق ، فكيف نجد هذا الحكم في العقل الذي لا تصل إليه المعلومات إلا عن طريق الحواس ؟

ومع هذا فهو يرى أن الحواس لا تمدنا بمعلومات أكيدة عن العالم الخارجي ، فهي لا تمسك بالشئ الخارجي نفسه ، بل تمسك بالذرات الدقيقة التي يقذف

بها كل جزء من سطحه ، والتي تطبع على حواسنا نسخة صغيرة من طبيعته وشكله فإذا كان لابد لنا والحالة هذه أن نكون لأنفسنا نظرية عن العالم (وليس تكوين هذه النظرية في واقع الأمر ضرورياً) فخير لنا أن نأخذ برأى دمقريطس القائل بأن لا شيء موجود ، أو يمكن أن يكون معروفاً لنا ، بل لا شيء يمكن أن نتخيله ، اللهم إلا الأجسام والقضاء ، وبأن الأجسام كلها تتألف من ذرات لا تنقسم ولا تتغير ... وليس لهذه الذرات لون ، ولا حرارة ، ولا صوت ، ولا ذوق ، ولا رائحة . وإنما تنتج كلها من الكبريات المشعة من الأجسام والتي تلقى على أعضاء الحس في أجسامنا . ولكن الذرات تختلف في حجمها ، ووزنها وشكلها : لأن هذا الفرض وحده هو الذي نستطيع أن نفسر به ما بين الأشياء من اختلاف لا آخر له . وكان أبيقور يجب أن يفسر عمل الذرات على مبادئ آلية خالصة ، ولكنه لما كان مولعاً بالأخلاق أكثر من ولعه بنظام الكون ، ولما كان حريصاً على أن يستمسك بحرية الإرادة بوصفها مصدر التبعة الأخلاقية ودعامة الشخصية ، فإنه يترك دمقريطس مغلقاً بين السماء والأرض ، ويفترض وجود نوع من التلقائية في الذرات : فهي تحيد قليلاً عن الخط العمودي حين تهوى في الفضاء ، وبهذا تدخل في التراكيب التي تتكون منها الأركان (العناصر) الأربعة ، والتي تتكون منها ... عن طريق هذه الأركان ... المشاهد الخارجية^(٢٠) . وهناك عوالم كثيرة ، ولكن ليس من العقل في شيء أن نشغل بها أنفسنا . وفي وسعنا أن نفترض أن حجمي الشمس والقمر يقربان من حجميهما اللذين يبدوان لنا ، فإذا فعلنا هذا كان في مقدورنا أن نصرف وقتنا في دراسة الإنسان .

والإنسان نتاج طبيعي في جزئياته ومجموعه . وأكبر الظن أن الحياة قد بدأت بالتوالد التلقائي ، ثم ارتقت على غير خطة مرسومة بالانتخاب الطبيعي لأصلح الأشكال^(٢١) . وليس العقل إلا نوعاً آخر من المادة ، والروح جسم مادي رقيق منبث في جميع أجزاء الجسم^(٢٢) ، وهي لا تستطيع أن تحس

أو تعمل إلا بوساطة الجسم ، وتموت بموته . ولكن علينا بالرغم من هذا كله أن نقبل ما ندرکه إدراكاً مباشراً من أننا أحرار فيما نريد ، وإلا كنا لأعيب على مسرح الحياة لا قيمة لها ولا معنى لوجودها . وخير لنا أن نكون عبيداً للآلهة التي يقول بها الخلق ، من أن نكون عبيداً للأقدار التي يقول بها الفلاسفة (٢٣)

على أن وظيفة الفلسفة الحقيقية ليست هي تفسير العالم ، لأن الجزء لا يستطيع قط أن يفسر الكل ، بل وظيفتها أن تهدينا في بحثنا عن السعادة . « وليس الذي نضعه نصب أعيننا هو مجموعة من النظم والآراء التي لا جدوى منها ، بل الذي يجب علينا أن نعي به هو الحياة المبرأة من كل نوع من أنواع الجزع والاضطراب (٢٤) » . وقد كتبت على مدخل حديقة أبيقورتلك الخرافة الجذابة « أيها الزائر ، ستكون هنا سعيداً ، لأن السعادة هنا تعد أعظم خير » ، وليست الفضيلة في هذه الفلسفة غاية في ذاتها ، بل هي وسيلة لا بد منها للوصول إلى الحياة السعيدة (٢٥) . وليس في وسع الإنسان أن يحيا حياة سارة من غير أن يحيا حياة تتصف بالفطنة ، والشرف والعدالة ؛ وليس في وسعه أن يحيا حياة متصفة بالفطنة والشرف والعدالة من غير أن يحيا حياة سارة (٢٦) . وليس في الفلسفة إلا قضيتان اثنتان مؤكدتان ، وهما أن اللذة خير ، وأن الألم شر ، والملاذ الخنسية في ذاتها مشروعة ، وستجد الحكمة لها مكاناً فيها ، غير أنه لما كانت هذه الملاذ قد تؤدي إلى عواقب وخيمة ، فإنها في حاجة إلى جهاد حصيف فطِن لا يستطيعه إلا صاحب الذكاء .

« فإذا قلنا إذن إن اللذة هي أعظم خير ، فلسنا نقصد بذلك لذات الرجل الفاجر الداعر ، أو اللذات التي تقع في مجال المتعة الخنسية ... ولكننا نقصد تحرر الجسم من الألم ، والروح من الاتزعاج . ذلك أن الشراب والمرح الدائمين أو الاستمتاع بصحبة النساء أو ولائم السمك وغيره من الأطعمة الغالية ليست هي التي تجعل الحياة سارة لذيلة ، بل الذي يجعلها كذلك هو التفكير الهادئ

الرزين ، الذى يفحص عن أسباب اختيار هذا الشيء وتجنب ذاك ، والذى يطرد الأفكار الباطلة التى ينشأ عنها معظم ما يزعج النفس من اضطراب .

ونخلص من هذا إذن إلى أن الفهم ليس هو أسمى الفضائل فحسب ، بل إنه أيضاً أسمى أنواع السعادة ، لأنه يعيننا أكثر مما تعيننا أية موهبة أخرى من مواهبنا على تجنب الألم والحزن . والحكمة هى وسيلتنا الوحيدة إلى الحرية : فهى تحررنا من رق الانفعالات ، ومن خوف الآلهة ، والفرع من الموت ، وهى تعلمنا كيف نتحمل مصائب الدهر ، وكيف نستمد من طينيات الحياة البسيطة ولذات العقل الهادئة لذة عميقة خالدة . وليس الموت مخيفاً رهيباً كما نظنه إذا نظرنا إليه نظرة عاقلة قائمة على الذكاء والفطنة ؛ فقد يكون ما ينطوى عليه من الألم أقصر أمداً وأخف وقعاً مما عانيناه المرة بعد المرة فى أثناء حياتنا . والذى يخلع على الموت ما يعلق به من رهبة هو أوهامنا السخيفة عما قد يكون وراء الموت . ثم انظر إلى القليل الذى تحتاجه القناعة الحكيمة — إنها لا تحتاج إلا إلى الهواء الطلق ، وأرخص الطعام ، ومأوى متضع ، وفراش ، وقليل من الكتب ، وصديق « وكل شيء طبيعى يسهل الحصول عليه ، والعديم النفع وحده هو الكثير النفقة » . وعلمنا ألا نقضى حياتنا فى تكد مستمر نحاول أن نحقق كل شهوة تطوف برووسنا : « وفى وسعنا أن نغفل الشهوات متى كان عجزنا عن إشباعها لايسبب لنا ألماً بحق (٢٩) » ، وحتى الحب ، والزواج ، والآبوة أمور يمكن الاستغناء عنها ، فهى تعود علينا بلذائل متقطعة ، وبحزن لاينتهى أبداً (٣٠) . وإذا تعودنا المعيشة البسيطة ، والأساليب غير المعقدة ، فذلك طريق لا يكاد يخطئ يوصلنا إلى صحة الجسم (٣١) . والرجل الحكيم لا يهترق قلبه بالمطامع أو شهوة الصيت ، وهو لا يحسد أعداءه على ما نالوا من حظ طيب ، بل إنه لا يحسد أصدقائه على هذا الحظ ؛ وهو يتجنب ما فى المدينة من حمى

المنافسات وضوضاء المنازعات السياسية ، بل يطلب هدوء الريف ، ويجد أوكذ
السعادة وأعمقها في هدوء الجسم والعقل . ولما كان هو المسيطر على شهواته ،
فإنه يعيش بعيداً عن الادعاء الكاذب ، ويطرح وراءه كل المخاوف ، وتجزيه
« حلاوة الحياة » hedone الطبيعية بأعظم أنواع الخير وأعلاها شأنًا وهو السلم .
تلك عقيدة شريفة جدية بالحب ، ومما يملأ النفس شجاعة أن يجد المرء
فيلسوفاً لا يخاف اللذة ومنطقياً لديه كلمة طيبة يقولها عن الخواص . وليس في
هذا الكلام غرض وليس فيه تمجيد شديد للفهم ، بل إن الأبيقورية ، على
الرغم من أنها هي التي نقلت النظرية اللرية من العهد القديم إلى العصر الحديث ،
كانت نقطة تحول من نزعة التشوف القوية التي أنشأت العلم اليوناني والفلسفة
اليونانية . وأكبر عيب في هذه الفلسفة هو سلبها : فهي تفكر في اللذة على
أنها التحرر من الألم ، وفي الحكمة على أنها فرار من مخاطر الحياة وامتلأها ؛
وهي خطوة صالحة طيبة للفردية ولكنها لا تصلح للمجتمع . وكان أبيقور يحترم
الدولة لأنه يراها شراً لا بد منه ، يستطيع تحت حمايتها أن يعيش آمناً من الأذى
في حديقته ، ولكن يبدو أنه لم يكن يعنى بالاستقلال القوي ، بل يبدو أن
مدرسته كانت في واقع الأمر تفضل الملكية المطلقة عن الديمقراطية ، لأن الأولى
أقل من الثانية ميلاً إلى اضطهاد الإلحاد^(٣٢) — وهو قلب للعقائد الحديثة
يستلقت الأنظار ، وكان أبيقور على استعداد لأن يقبل أية حكومة لا تضع
أية عقبة في سبيل طلب الحكمة والصداقة طلباً مطلقاً من القيود والعوائق .
وكان إخلاصه للصداقة يعدل إخلاص الأجيال التي سبقته للدولة : « إن
الصداقة أهم الوسائل التي تهيئ الحكمة لسعادة الحياة بأجمعها »^(٣٣) . وكانت
صداقات الأبيقوريين مضرب المثل في دوامها ، ورسائل زعيمهم مليئة
بعبارات الحب الخالص القوي^(٣٤) . وقد بادله مريدوه هذا الشعور بالقوة
التي نعهدا في مشاعر اليونان : وحسبنا دليلاً على هذا أن الشاب كولوتيز

Colotes حين سمع أبيقور لأول مرة خر راكعاً ، وبكى ، وحياء بأنه إله (٣٥) .

وظل أبيقور ثلاثين عاماً يعلم في حديقته ويفضل المدرسة عن الأسرة حتى إذا كان عام ٢٧٠ قاسى أشد الآلام من حصوة في المثانة ، ولكنه تحمل الألم بصبر عجيب ، ووجد وهو على فراش الموت متسعا من الوقت للتفكير في أصدقائه : « أكتب إليكم في هذا اليوم السعيد الذى هو آخر أيام حياتى . إن انسداد مثانتى ، والآلى الداخلية قد وصلا إلى غايتها ، ولكنهما يقف في سبيلهما ابتهاج عقلى حين أفكر في حديثى معكم . اعتنوا بأطفال مترودوروس العناية الخليفة بإخلاصكم لى وللأسفة طوال حياتكم (٣٦) . وأوصى بما يملك للمدرسة راجياً « ألا يشعر أى واحد من الذين يدرسون الفلسفة بالحاجة ... على قدر ما تصل إليه قوتنا لمنعها » (٣٧) .

وتترك أبيقور وراءه مريدين خلف بعضهم بعضاً زمناً طويلاً ، وقد بلغ من وفائهم لذكراه أن ظلوا قرونًا طوالاً يابون أن يغيروا كلمة واحدة من تعاليمه . وكان أشهر تلاميذه كلهم مترودوروس اللهمسكى Metrodorus of Lampascus وقد أدهش بلاد اليونان كلها أو أثار ضحكها بتلخيصه الأبيقورية كلها في قوله إن « كل الطيات ذات صلة بالبطن » (٣٨) ، ولعله كان يقصد بهذا أن الملاذ كلها جسمية وأنها في آخر الأمر معوية . ورد عليه كريسيوس بتسميته علم البطنة الذى تخصص فيه أركستراتوس « مركز الفلسفة الأبيقورية » (٣٩) . وأساء الجمهور فهم الأبيقورية فنددوا بها علناً وساروا على سننها في أوساط كبيرة في جميع أنحاء هلاس . واتبعها كثيرون من اليهود الهلنستيين ، وبلغ من كثرتهم أن أضحت كلمة أبيقورى عند الأجبار مرادفة لكلمة مرتد عن الدين (٤٠) . وفي عام ١٧٣ ، أو ١٥٥ أخرج من رومة اثنان من فلاسفة

الأيقوريين بحجة أنهم كانوا يفلسون أخلاق الشباب^(١١) : وبعد مائة عام من ذلك الوقت ألقى شيشرون هذا السؤال : « لماذا كان لأييقور أتباع بهذه الكثرة ؟ »^(١٢) ، وكتب الكريشيس أكل وأطرف عرض بقى حتى الآن للطريقة الأيقورية . وظل لدرستهم أتباع ينتمون إليها جبهة إلى عهد قسطنطين ، منهم من سوا اسم أستاذه فجعله مرادفا للنهم فى المأكل والمشرب ، ومنهم من ظل أميناً يعلم الحكم البسيطة التى تلخص فيها فلسفته « الآلهة لا ينبغي أن تخاف ، والموت لا يمكن الشعور به ، والخير يستطاع نيله ، وكل ما نرهبه يمكن التغلب عليه »^(١٣) .

الفصل الثالث

التوفيق بين الأبيقورية والرواقية

لما كان عدد متزايد من أتباع أبيقور قد أخذوا يفسرون أقواله بأنه ينبغي للناس بالحرى وراء اللذة الجسمية فإن النظرية الأساسية في علم الأخلاق — وهي ما هي الحياة الطيبة ؟ — لم يتوصل إلى حلها ، بل كل ما في الأمر أنها وضعت في صيغة أخرى وهي : كيف يوفق بين أبيقورية الفرد القطرية وبين الرواقية التي لا بد منها للجاعة والجنس البشرى ؟ — وكيف يستطيع أن يوحى إلى أعضاء المجتمع أو أن يرهبوا حتى يسيطروا على أنفسهم أو يضحوا بها لأن هذه التضحية وتلك السيطرة لاغنى عنهما لبقاء المجتمع . ولم يعد في مقدور الدين القديم أن يؤدي هذا الواجب ، كما أن الدولة القديمة — دولة المدينة — لم تسم بالناس إلى حد يجعلهم ينسبون أنفسهم . واتجه اليونان المتعلمون إلى الفلسفة يسألونها الجواب ، واستدعوا الفلاسفة يطلبون إليهم التضحية أو السلوى في أزمات الحياة ، وبحوثا في الفلسفة عن نظرة إلى العالم تكسب الوجود الإنساني معنى خالداً أو حكمة دائمة في نظام الأشياء ، وتمكنهم من أن ينظروا إلى الموت بالذي هم ملاقوه حتماً بلا رهبة ولا فزع . لقد كانت الرواقية آخر ما بذله الأقدمون الأجداد من جهد للبحث عن مبدأ خلقى فطري ، ولقد حاول زينون مرة أخرى أن يصل إلى الهدف الذي عجز أفلاطون عن الوصول إليه .

وكان زينون من أهل سيتيوم إحدى مدائن قبرص ، وكانت المدينة فينيقية في بعض أحيائها يونانية في أكثرها ، وكثيراً ما يقال إن زينون فينيقي ، ويقال أحياناً إنه مصري ، والذي لا شك فيه أن أبويه مختلط فيهما الدم الهليني والدم السامي^(١٤) . ويصفه أبلونيوس الصوري بأنه نجيل الجسم ، طويل القامة ،

أسمر اللون ، وأن رأسه كان يميل إلى أحد الجانبين ، وأن ساقيه كانتا ضعيفتين ،
ويخيل إلينا أن أفرديني لو عرض عليها لأسلمته إلى أثينا ، وإن لم يكن هفستس
Hephaestus خيراً منه . ولذا لم يكن له ما يشغل باله ويشتت جهوده فإنه
سرعان ما جمع من التجارة ثروة طائلة ، فلما أن جاء إلى أثينة أول مرة كان
لديه ، كما يقولون ، أكثر من ألف وزنة . ويقول ديوجين ليرتيوس إن السفينة
تخطمت به عند ساحل أتكاء، وإنه فقد ثروته ، فوصل إلى أثينة حوالى عام ٣١٤
وهولا يكاد يملك شيئاً^(١٥) . وجلس الرجل إلى جوار دكة كتيبي وشرع يقرأ
في كتاب ممربيليا لأكسانوفون وسرعان ما افتتن بأخلاق سقراط ، وأخذ يسأل :
« أين يوجد أمثال هذا الرجل اليوم ؟ » . ومر به في تلك الساعة أقرطيس
الفيلسوف الكلبي ، فأشار عليه الكتيبي أن يتبع ذلك الرجل . فانضم زينون
وهو وقتئذ في سن الثلاثين إلى مدرسة أقرطيس وصره أن كشف الفلسفة وقال :
« لقد قت برحلة ناجحة موفقة حين تخطمت سفينتي »^(١٦) . وكان أقرطيس
هذا رجلاً من أهل طيبة نزل عن ثروته البالغ قدرها ثلثمائة وزنه إلى مواطنيه
وعاش عيشة الزهد والتعشف التي يعيشها الكلبيون المتسولون . وكان يندد
بالدعارة المتفشية في أيامه ، وينصح الناس بأن يجوعوا ليعالجوا الحب ،
وشغفت تلميذته هاركيا Hipparchia بحبه ، لكثرة ما كان لديها من الطعام ،
وهددت أبوها بأنها سوف تقتل نفسها إذا لم يزوجها به ، فتوسلا إلى أقرطيس
أن ينصحها بالرجوع عن عزمها ، وحاول هو أن يجيبهما إلى ما طلبا ووضع
مخللة تسوله بين قدميها وقال لها : « هذا كل ما أملك ؛ ففكرى الآن فيما
تفعلين » ، ولم يثن ذلك من عزمها فغادرت منزلها الفخم ، وارتدت ثياب
المتسولين ، وذهبت لتعيش مع أقرطيس عيشة العشاق الحر الطليق . ويقال
لنا إن زواجهما قد تم علنا ، ولكن حياتهما كانت مثلاً أعلى في الحب والوفاء^(١٧) .
وأثرت في نفس زينون حياة الكلبيين البسيطة الصارمة ؛ ذلك أن أتباع

أنستانس قد أصبحوا وقتلهم الرهبان الفرنسيسكان في الزمن القديم ، نلدروا أن يعيشوا فقراء زاهدين ، ينامون في أى مأوى طبيعى يعثرون عليه ، ويعيشون على صدقات الناس الذين يمنعهم جدهم أن يكونوا قديسين . وأخذ زينون عن الكلبيين المبادئ الأولى لنظامه الأخلاقى ، ولم يحاول قط أن يخفى ما هو مدين به إليهم : وقد تأثر بهم في أول كتاب له وهو كتاب الجمهورية تأثراً جعله يعتنق شيوعيتهم الفوضوية التى لا تكون فيها نقود ، ولا ملكية ، ولا زواج ، ولا دين ، ولا شرائع^(٤٨) . ولما أدرك أن هذه الطوبى ، وأن نظام التغذية الكلبي ، لا يصلحان لأن يكونا منهاجاً عملياً للحياة ، فارق أقرططيس . وأخذ يدرس مع زونوقراطيس في الجمع ومع استلهو المغارى . وما من شك في أنه قرأ كتب هرقلطس قراءة استيعاب لأنه أدخل في أفكاره كثيراً من آراء هرقلطس — كالنار المقدسة بوصفها روح الإنسان والكون ، وأبدية القانون وتكرار خلق العالم واحتراقه ، ولكن كان من عادته أن يقول إنه مدين لسقراط بأكثر مما هو مدين به لغيره من الفلاسفة ، وإن سقراط هو معين الفلسفة الرواقية ومثلها الأعلى .

وبعد أن قضى زينون كثيراً من السنين تحت وصاية غيره من الفلاسفة أنشأ أخيراً مدرسته الفلسفية الخاصة به في عام ٣٠١ ، وذلك بأن أخذ يتحدث إلى الطلاب وهو رائج غاد تحت أعمدة الاستواءهوسيلي Stoa Poecile أو المدخل المحدد . وكان يرحب بالفقراء والأغنياء على السواء ، ولكنه لم يكن يشجع انضمام الشبان إلى تلاميذه ، لأنه كان يشعر بأن الفلسفة لا يفهمها إلا الرجال الناضجون العقل . وحدث أن أطال أحد الشبان في الكلام فقال له زينون : لقد خلق لنا أذنان وفم واحد لكى ننصت كثيراً ونتكلم قليلاً^(٤٩) . وحضر أنتجونس الثانى وهو في أئينة دروس زينون ، وأضحى صديقاً له معجباً به ، يستنصحه في مهام الأمور ، وأغراه بالترف برهة وجيزة ، ودعاه لأن يعيش

ضيفاً عليه في بلا Pella ، ولكن زينون اعتذر له وأرسل إليه بدلاً منه تلميذه
پرسوس Persaeus ، وظل هو أربعين عاماً (*) يعلم في الاستوا ويعيش عيشة
تتفق وتعاليمه اتفاقاً أصبحت معه عبارة « أكثر اعتدالاً من زينون » مثلاً سائراً
في بلاد اليونان . وأسلمته الجمعية الأنثوية رغم صلته الوثيقة بأنتجونس « مفاتيح
الأسوار » ، ووافقت على المال الذي خصص لإقامة تمثال له وإهدائه تاجاً ،
وهذا نص القرار :

« لما كان زينون السيتوى قد قضى سنين كثيرة في مدينتنا يدرس الفلسفة ،
ولما كان في كل ما عدا هذا رجلاً طيباً (هكذا) ، يحض جميع الشبان الذين
يسعون لصحبته على الاعتدال في حياتهم ويجعل حياته أنموذجاً لأعظم ما تسمو
إليه الحياة ... فقد صحت عزيمته الشعب على تكريم زينون ... وعلى أن يهديه
تاجاً من الذهب ... وأن يبنى له قبراً في حي الرمكس من الأموال العامة » (٥١) ،
والشائع أن موته كان في سن التسعين ، ويقول ليرتيوس إنه مات بالطريقة
الآتية : « بينما هو خارج من مدرسته إذ زلت قدمه وكسر إصبع من أصابعها ،
فضرب الأرض بيده وأعاد بيتاً من الشعر في نيوبى وهو « لقد جئت ، فلم
تنادينى على هذا النحو ؟ ثم خنق نفسه من فوره » (٥٢) .

وواصل عمله في الاستوا رجلان من يونان آسية هما أقلائيتوس الأسوسى
Cleanthes of Assus ومن بعده أقريسهوس الصوليى Chrysippus of Soli
وكان أقلائيتوس ملاكاً محترفاً قدم إلى أثينة ومعه أربع درخمات ، واشتغل فاعلاً
جادياً ، ورفض أن يتقاضى إعانة من الدولة ، ودرس على زينون تسعة عشر
عاماً ، وعاش مجداً فقيراً زاهداً ، أما أقريسهوس فكان أكثر تلاميذ المدرسة

(٥) . إن جميع التواريخ الواردة عن زينون مثار الجدل ؛ والأصول المأخوذة منها
متناقضة . وقد استنتج زلر Zeller من بحوثه أن مولده كان في عام ٣٥٠ ، وأن وفاته كانت
في عام ٢٦٠ (٥٠) .

علما وإنتاجا ، وهو الذى أكسب العقيدة الرواقية صورتها التاريخية بأن شرحها في ٢٧٠ كتابا، جعلت ديونيشيوس الهلكرنسى **Dionysius of Halicarnassus** يعدها أنموذجا لغزارة العلم المملة . وانتشرت الرواقية من بعده في جميع أنحاء هلاس، وكان أعظم دعائها في آسية: بانيتيوس الرودى **Panaetius of Rhodes** وزينون الترسوسى ، وبوثيوس الصيداوى **Boethus of Sidon** ، وديجين السلوقى . وكل الذى نستطيعه للتعريف بها هو أن نؤلف مما عثرنا عليه عرضا من النتف الباقية من المؤلفات الضخمة الكثيرة التى كتبت عنها صورة لأوسع فلسفات العالم القديم انتشارا وأعظمها أثرا .

وأكبر الظن أن أقريسيوس هو الذى قسم الفلسفة الرواقية إلى منطق ، وعلوم طبيعية ، وأخلاق . وكان زينون ومن جاء بعده يفخرون بما كتبوه في النظريات المنطقية ، ولكن أنهار المداد التى فاضت بها أقلامهم في هذا الموضوع لم تترك أثرا ملحوظا في إنارة العقول أو في نفعها (*). لقد كان الرواقيون يتفقون مع الأبيقوريين في أن المعرفة لا تنشأ إلا من الحواس ، وكان المقياس النهائى للحقيقة في رأيهم هو المدركات الحسية التى تضطر العقل إلى قبولها بما فيها من وضوح أو ثبات ، على أنه ليس من الضرورى أن تودى التجارب إلى المعرفة ، لأن بين الحواس والعقل توجد العواطف أو الانفعالات ، وهذه قد تشوه التجارب فتجعلها أخطاء ، كما تشوه الرغبات فتجعلها رذائل . والعقل هوسمى ما أحرزه الإنسان ، وهو بلرة من بذور العقل الكلى الذى وضع قواعد العالم .

والعالم كالإنسان مادى بأكمله وإلهى بفطرته . فكل ما تنقله لنا الحواس مادى ، والأشياء المادية دون غيرها هى التى تحدث الأفعال أو تستقبلها .

(*) مع استثناء لإضافات قليلة للمصطلحات ككلمة *logie* (المنطق) نفسها . وقد شبه أرسطر **Aristo** تلميذ زينون المناطقة بقوم يأكلون الحيوانات الصدفية البحرية ، فهم يبدلون كثيرا من الجهد ليحصلوا على قذ - - - - - ممدمة بين كثير من الروا (٢٥٣) .

والصفات والكميات ، والفضائل ، والانفعالات ، والنفس والجسم ، والله والنجوم ، كلها صور مادية أو عمليات ، تختلف في درجة رقها ، ولكنها واحدة في جوهرها (٥٥) . غير أن المادة كلها حركية ، مملوءة بالتوتر والقوى ، لاتنقطع عن العمل على الانتشار أو التركيز ، يبعث فيها الحياة من داخلها وخارجها النشاط والحرارة أو النار . والعالم يعيش بوساطة عدد لا يحصى من دورات التمدد والانكماش ، والتطور والانحلال ، يحترق من آن إلى آن في لهب عظيم ، ثم يتشكل على مهل من جديد . ثم يعود في تاريخه القديم كله بأدق تفاصيله (٥٦) لأن تسلسل العلل والمعلولات يسير في دائرة مفرغة ويتكرر إلى غير نهاية . وكل الحوادث وكل أعمال الإرادة مقررة معينة ، ومن المستحيل على شيء ما أن يحدث على نحو يخالف ما حدث عليه ، كما أنه يستحيل على شيء أن ينشأ من لا شيء ، ولو حدثت أية ثغرة في السلسلة لتمزق العالم .

والله في هذا النظام هو البداية والوسط والنهاية . وكان الرواقيون يعرفون بضرورة وجود الدين ليكون أساساً للأخلاق الفاضلة ؛ فكانوا ينظرون نظرة التسامح اللطيفة لمقائد الشعب الدينية وما فيها من شياطين ، ومن تنبؤ بالغيب ، وكانوا يجدون لهذه تفسيرات مصوغة في تشبيهات ومجازات يسدون بها الثغرة الفاصلة بين الخرافة والفلسفة . وكانوا يقبلون علم التنجيم الكلداني ويعتقدون بصحته في جوهره ، ويرون أن شئون الأرض تنطبق انطباقاً خفياً مستمراً على حركات النجوم (٥٧) . فكان ذلك لديهم صورة من صور التعاطف العالمي الذي يجعل كل ما يحدث في جزء منه يؤثر في سائر الأجزاء . وكأنهم أرادوا ألا يكتفوا بوضع نظام أخلاقي للمسيحية ، بل شاعوا أن يضعوا لها أيضاً نظامها الديني ، ففكروا في العالم ، والشرائع ، والحياة ، والنفس ، والأقدار من حيث

(٥) « وإنا ليرنا ويقضى على مخاوفنا أن فعلم أن من الرواقين من لم يكونوا واثقين كل الحققة من هذه المسألة .

صلتها بالله، وعرفوا الأخلاق الفاضلة بأنها الاستسلام عن رضا واختيار لإرادة الله . والله عندهم ، كالإنسان ، مادة حية ؛ فالعلم كله جسمه ، ونظام العالم وقانونه عقله وإرادته ؛ والكون كائن حي ضخم ، الله روحه ، ونسمته المنعشة ، وعقله المخصب ، وناره المحركة المنشطة (٥٦) . وترى الرواقين أحيانا يفكرون في الله تفكيراً مجرداً غير مجسد ؛ ولكنهم يصورونه في الأكثر الأهم على أنه قوة مدبرة تضع للكون خطته وترشده بعقلها الأعلى ، وتنظم أجزائه كلها لتؤدي أغراضا تنطبق على العقل ، وتجعل كل شيء فيه يعود بالنفع على الأفاضل من الناس . ويوحّد أفلاينيتوس بين الله وزيوس في ترنيمة توحيدية خليقة بأن ينطق بها إخناتون أو إشعيا :

حمدا لك يا زيوس ، حمدا يفوق حمد جميع الآلهة : إن أنعماءك لكثيرة ، وإن قوتك لأعظم القوى إلى أبد الدهر .

منك بدأ العالم ، وأنت تحكم الأشياء كلها بقوة القانون ، وإليك تتحدث كل الأجسام لأننا نحن جميعاً أبناءك .

ومن أجل هذا أرفع إليك نشيدا أغنى فيه بقوتك :

إن نظام الكون بأجمعه يطيع كلمتك في تحركها حول الأرض حيث تختلط الأضواء الصغيرة والكبيرة : ألا ما أجل شأنك لك الملك إلى أبد الدهر !

لا شيء يحدث على الأرض إلا بعلمك ، ولا في السماء ولا في البحار : إلا ما يفعله الأشرار : مدفوعين إليه بحمهم ؛

ولكن لك من الخلق ما يصلح المعوج نفسه ، وما لاصورة له يصور والبعيد أمامك قريب

وهكذا نظمت الأشياء كلها فجعلتها وحدة : خيرا وشرا : حتى تكون كلمتك واحدة في الأشياء جميعها : باقية إلى الأبد .

طهر نفوسنا من الحماقة ، حتى نرد إليك

الفضل الذى تفضلت علينا به :

فتتغنى بمدح أعمالك إلى أبد الأبدین :

غناء يليق ببنى الإنسان (٥٧) .

وما أشبه الإنسان والعالم بالكون الصغير فى الكون الكبير ، فهو أيضا كائن حى ذو جسم مادى والنفس مادية ، ذلك بأن كل ما يحرك الجسم أو يؤثر فيه ، وكل ما يحركه الجسم أو يؤثر فيه ، لابد أن يكون ذا جسم . والنفس نسيم نارى (نيوما Pneuma) منبثة فى جميع أجزاء الجسم ، كما أن النفس العالمية منبثة فى جميع العالم . وهى تبقى بعد الجسم إذا مات ، ولكنها تبقى على هيئة طاقة غير شخصية . وحين يحدث اللمب الأخير تمتص الروح مرة أخرى فى محيط الطاقة وهو الله كما يمتص أتمان Atman فى برهمان Brahman .

وإذ كان الإنسان جزءاً من الله أو الطبيعة فلن من اليسير أن تحل المشكلة الأخلاقية على النحو الآتى : الخير هو التعاون مع الله أى مع الطبيعة ونعنى بها قانون العالم . وليس الخير هو الجرى وبراء الاستمتاع أو اللذة لأن هذا الجرى يخضع العقل للشهوة ، وكثيراً ما يؤذى الجسم أو العقل ، وقلماً يرضينا فى آخر الأمر . ولا يمكن أن تتحقق السعادة إلا بالمواظمة بين أغراضنا وسلوكنا من جهة ، وبين أغراض العالم وقوانينه من جهة أخرى ، وليس ثمة تعارض بين صالح الفرد وصالح الكون ، لأن قانون الخير فى حالة الفرد يتفق مع قانون الطبيعة . وإذا لحق الشر بالرجل الطيب فإن هذا لا يكون إلا إلى أجل قصير ، وليس هو فى واقع الأمر شراً ؛ ولو أننا استطعنا أن نفهم الأمر كله لرأينا ما وراءه من خير مهما يظهر فى أجزائه من شر (*) . والرجل العاقل لا يدرس العلوم

(*) يقول أفريسيوس إن الحروب تصبح مفيد لآزدحام العالم بالسكان ، ويق الفرائس يفيد فى منشا من الإفراط فى النوم (٥٨) .

الطبيعية إلا بالقدر الذى يكفى لمعرفة قانون الطبيعة ثم يكيف حياته وفق هذا القانون ، وغرض العلم والفلسفة والمبرر الوحيد للدراستهما هما تمكيننا من أن نعيش وفق الطبيعة *Zen .Kata physin* . ويسلم أفلاطون لإرادته لإرادة الله فى ألفاظ تكاد أن تكون هى بعينها ألفاظ نيومن *Neuman* :

اهدنى يا الله ، وأنت يا قدرى ،

إلى ذلك المكان الوحيد الذى تريدنى أن أشغله .

وسأبغ هديكما مسرورا . فإذا ما وصلت معكما

ثم نكث العهد ، فلا بدلى من أن أواصل السير معكما (٥٩) .

ومن أجل هذا يتجنب الرواقى الترف والتعقيد ، والمنازعات السياسية والاقتصادية ، وهو يقنع بالقليل ، ويقبل بلا تدمير صعاب الحياة وما يلاقيه فيها من خيبة . ولا يأبه بشيء غير الفضيلة والرياسة — لا يبالى بالمرض والألم ، يحسن السمعة أو سوءها ، بالخيرية أو الرق ، بالحياة أو الموت . ويقمع كل شعور يقف فى وجه سير انطبيعة أو يبعث على الارتياح فى حكمها : فإذا مات ولده لم يحزن ، بل يرضى بحكم القدر معتقداً أنه أحسن الأحكام وإن خفى الأمر عليه ، ويسعى لأن يكون مجرداً من الشعور تجرداً تاماً ، حتى يكون هدوء عقله آمناً من جميع تقلبات الحظ ، أو الرحمة ، أو اللب ، أو من وقعها عليه (٦٠) . وعلى الرواقى أن يكون معلماً قاسياً ، وإدارياً صارماً . والخبرة لا تتضمن الانطلاق من القيود ، بل يجب علينا أن نكبح جماحنا وأنفسنا غيرنا ، وأن نتحمل من الناحية الخلقية تبعات جميع أفعالنا . ولا أن ضرب

(٥٩) واقترح كريستوس أن يتمصر فى العناية بالموتى من الأقارب عن ذنوبهم بأبسط الوسائل وأحدثها ، ثم قال إن خيرا من هذا العمل لخدمة أن نتخذ لديهم (١٨٦٠) .

زينون عبده لأنه سرق ، وكان العبد يعرف قليلا من العلم ، قال له : «ولكني قد قدر على أن أسرق » ، فرد عليه زينون بقوله : «وقدر أيضاً أن أضربك» (١١) ويرى الرواقى أن جزاء الفضيلة هو الفضيلة نفسها ، وأنها واجب مطلق وأمر محتوم ، مستمد من اشتراكه في الألوهية ، وإذا أصابه مكروه عزى نفسه بأنه حين يتبع القانون الإلهى يصبح هو الله مجسداً (١٢) : فإذا سئم الحياة ، واستطاع أن يفارقها من غير أن يسبب الأذى لغيره ، فلا حرج عليه من أن ينتحر . ولما بلغ أفلايتوس سن السبعين شرع يصوم صوما طويلا ، ثم قال إنه لن يعود بعد أن قطع نصف الطريق ، وواصل الصوم حتى مات (١٣) .

على أن الرواقى مع هذا ليس بالرجل غير الاجتماعى ، وهو لا يفخر بالفقر كالكلبي ، ولا يفرح بالوحدة كالأبيقورى . وهو يوافق على الزواج وعلى وجود الأسرة ويرأى لازمين ، وإن كان لا يمتدح الحب الرواقى ، وهو يتطلع إلى وجود مدينة فاضلة تكون فيها النساء شركة بين الرجال (١٤) . ويقبل وجود الدولة ، بل يقبل الملكية المطلقة نفسها ، وليست لديه ذكريات عزيزة عن دولة — المدينة ، ويرى أن أوساط الناس مغفلون شديدو الخطر ، ويفضل الملوك المطلقى السلطة على تحكم الغوغاء : والحق أنه قلما يعنى بأية حكومة ، ويتمنى أن يكون الناس كلهم فلاسفة ، حتى تصبح القوانين لاضرورة لها . وهو لا يفكر فى الكمال كما يفكر فيه أفلاطون أو أرسطو من حيث علاقته بخير المجتمع ، بل يفكر فيه من حيث علاقته بالرجل الصالح . ولا يرى حرجا فى أن يشترك فى الشؤون السياسية ، ويناصر كل حركة ، مهما تكن ضعيفة ، تهدف إلى الحرية والكرامة الإنسانية ، ولكنه لا يقيد سعادته بقيود المنصب أو السلطان . وهو يرضى بأن يضحي بحياته فى سبيل بلاده ، ولكنه يرفض (١٥ - قصة الحضارة - ج ٣ ، مجلد ٢)

كل وطنية تقف في سبيل ولائه للإنسانية بأجمعها ؛ فهو والحالة هذه مواطن عالمي . وكان زينون ، وهو الذي يجرى في عروقه ، كما سبق القول ، الدم اليوناني والدم السامي ، يتوق كما يتوق الإسكندر لتحطيم الحواجز العنصرية والقومية ؛ وإن نزعته الدولية لتكشف عن فكرة الإسكندر التي كانت آخذة في الزوال ، فكرة توحيد بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط . وكان زينون وكريستوس يأملان في آخر الأمر أن يحل المجتمع واحد كبير محل تلك الدول والطبقات المتطاحنة ؛ وبألا يكون في هذا المجتمع الحديد أغنياء وفقراء ، أوسادة وعبيد ؛ يحكمه الفلاسفة فلا يظلمون ، ويكون فيه الناس جميعاً إخوة لأنهم أبناء إله واحد^(١٥) .

وملاك القول أن الرواقية كانت فلسفة نبيلة ، وأنها كانت فلسفة عملية إلى حد أبعد مما يتوقعه الساخر منها في الوقت الحاضر . لقد وجدت هذه الفلسفة جميع عناصر الفكر اليوناني وبدلتها في مجهود نهائي قام به العقل الوثني لوضع نظام أخلاقي ترتضيه الطبقات التي خرجت على الدين القديم ؛ ومع أنه لم ينضو تحت لوائها إلا أقلية ضئيلة ، فإن هذه الأقلية أينا وجدت كانت خير العناصر . وقد أنتجت كما أنتج المذهبان المسيحيان المقابلان لها — وهما الكلفنية والمزمتة — أقوى الأخلاق في زمنها . على أننا إذا نظرنا إلى هذه الفلسفة من الوجهة النظرية رأيناها عقيدة شاذة مروعة تهدف إلى كمال قاس يتطلب من أصحابه اعتزال المجتمع ، ولكنها في واقع الأمر قد خلقت رجالاً شجعاناً ، قديسين أطهاراً ، خيرين أمثال كاتو الأصغر ، وإبيكتتس Epictetus ، وماركس أورليوس . ولقد تأثر بها الفقه الروماني فوضع على هديها تشريعا للأمم غير الرومانية ، وأعانت على حفظ كيان المجتمع القديم حتى ظهر له دين جديد . ولسنا ننكر أن الرواقين قد شددوا من أزر الخرافات ، وأنهم كان لهم أثر سيئ في العلوم الطبيعية ، ولكنهم رأوا بنافذ بصيرتهم المشكلة الأساسية القائمة في عصرهم

— وهى أساس الأخلاق الدينى — وبذلوا مجهوداً شريفاً ملء الحياة الفاصلة بين الدين والفلسفة . لقد كسب أبيقور اليونان وضمهم إلى لوائه ، أما زينون فقد كسب أرسطراط رومة ، وظل الرواقيون إلى آخر تاريخ الوثنية يحكمون الأبيقوريين ، وسيظلون على الدوام هم الحاكمين لهم . ولما أن نشأ دين جديد من أنقاض الفوضى العقلية والأخلاقية الضاربة أطنابها في العالم الهلنسى ، كانت السبيل قد مهدتها لهذا الدين فلسفة آمنت بضرورة الدين ، ونادت بعقيدة تفشفية من مبادئ البساطة وضبط النفس ، عقيدة ترى في الله كل شيء .

الفصل الرابع

العودة إلى الدين

لقد مر النزاع بين الدين والفلسفة حتى الوقت الذى نتحدث عنه فى ثلاثه مراحل : مهاجمة الدين كما حدث قبل عهد السقراطيين ، والمحاولة التى تهدف إلى استبدال قانون أخلاقى طبيعى بالدين كما فعل أرسطو وأبيقور ، ثم العودة إلى الدين كما فعلت المشككة والرواقية - وتلك هى الحركة التى انتهت بظهور الأفلاطونية الجديدة والمسيحية . وقد حدث مثل هذا التعاقب أكثر من مرة . فى تاريخ العالم ، ولعله يحدث أيضا فى هذه الأيام . فطاليس يقابل جاليليو ، ودمقريطس يقابل هُبنز ، والسوفسطائيون يقابلون رجال دوائر المعارف الفرنسيين ، وبروتاغوراس يقابل فلتير ؛ ثم إن أرسطو يقابل سبنسر ، وأبيقور يقابل أناطول فرانس ، وبيرون يقابل بسكال ، وأرسطو يقابل هيوم ، وأقرينيداس يقابل كانت ، وزينون يقابل شوبنهاور ، وأفلوطين Plotinus يقابل برجسن . نعم إن الترتيب التاريخى لهؤلاء الفلاسفة يجعل التشابه بينهم غير يسير ، ولكن الاتجاه الأساسى للتطور واحد فى جميع الأحوال .

لقد تخلى عصر النظم العظيمة عن مكانه إلى التشكك فى قدرة العقل الإفسافى على فهم العالم أو للسيطرة على غرائز الناس وإخضاعها للنظام وللحضارة . ولقد كانت هذه حال المتشككة بالمعنى الذى يقصده منها كانت لاهيوم : فقد كان هؤلاء يرتابون فى الفلسفة كما يرتابون فى العقائد التحكيمية ، وسخطوا أمس المادية ، وأشاروا بقبول الطقوس الدينية القديمة فى هدوء . ولم يبعد التشكك الناس على يد بيرون ، كما لم يبعدهم على يد بسكال ، عن الدين بل قادهم إليه ، وقد ختم بيرون نفسه حياته بأن كل ذلك كاهن المدينة الأكبر المبجل . ولم يكن هجر

الأيقوريين للسياسة واتجاههم نحو القوانين الأخلاقية ، وفرارهم من الدولة إلى الروح ، لم يكن هذا كله إلا لحظة قصيرة في الرجعة إلى العهد الأول ، وقد مهد قصر الاهتمام على النجاة الفردية الطريق إلى ظهور دين يستهوى الفرد أكثر مما يستهوى الدولة ؛ وكان ثمة كثيرون من الناس لا يستطيعون أن يجدوا في الحياة ما وجدته فيها أيقور من سلوى اقتنع بها ورضى ، فقد حلت بهم الفاقة ، أو مصائب الدهر ، أو المرض ، أو الشكل ، أو الثورة ، أو الحرب ، وتركت نصائح الدهر كلها أفئدتهم فارغة . وها هو ذا هجسياس القوريني Hegesias of Cyrene قد بدأ في نظر القورينيين كما بدأ أيقور ، ولكنه انتهى إلى الاعتقاد بأن في الحياة من الألم أكثر مما فيها من اللذة ، ومن الحزن أكثر من الفرح ، وأن النتيجة الوحيدة التي تتممخص عنها الفلسفة الطبيعية هي الانتحار (*) . وقد فعلت الفلسفة ما تفعله الابنة الضالة بعد المغامرات المبهجة وزوال الخداع عن بصيرتها ، فأقلعت عن الجرى وراء الحقيقة والبحث عن السعادة ، وعادت بعد أن تابت وأنايت إلى أمها الدين ، تبحث فيه مرة أخرى عن أسس تقيم عليها آمالها ومبادئ تؤيد بها صدقاتها .

وبينا كانت الرواقية تسعى لإقامة صرح القانون الأخلاقى للطبقات المفكرة ، كانت تعمل أيضا للاحتفاظ بمعونة القوى غير الطبيعية لتدعم بها أخلاق الرجل العادى ، وصبغت فكرتها الميتافيزيقية والأخلاقية صبغة دينية أخذت تقوى على مر الزمان . وكان زينون ينكر كل وجود حقيقى للآلهة التى يقول بها العامة (٩٧) ، ولكن أقلاينيتوس بعد جيل واحد اقترح محاكمة أرسطارخوس لأنه ملحد . ولم يكن زينون يدعو إلى شيء من الفساد الخلقي الشخصى ، ولكن سنكا كان يتحدث عن النعيم فى الدار الآخرة بالفاظ لاتكاد تفرق فى شيء

(*) وقد بلغ من فصاحتى فى تأييد ما أدلى به من حجج أن ثارت فى الإسكندرية موجة من الانتحار اضطر بطليموس الثانى عل أثرها أن يخرج من مصر (٩٦) .

عن العقائد الأليوزينية Eleusinian والمسيحية^(٧٨). ولقد أصبحت الرواقية بعد زينون ديناً أكثر منها فلسفة ، واتخذ كل مبدأ من مبادئها صورة دينية ، وكان الجزء الأكبر من نظامها يتألف من جدل يدور حول وجود اللطوطيعة ، وانبعاث العالم من الله ، وحقيقة القوة المدبرة ، واتفاق الفضيحة مع الإرادة الإلهية ، وأخوة البشر تحت سيطرة أبوة الله ، وعودة العالم في آخر الأمر إلى الله . وفي هذه الفلسفة نجد معنى الخطيئة الذي كان له شأن أعظم شأن في المسيحية الأولى وفي البروتستنتية : ونجد فيها ذلك الشمول السامى الذى يرحب كما رحب في المسيحية من بعد بكل الأجناس والطبقات ، والزهد وعدم الزواج المأخوذ من الكليتين والذين أثمروا ذلك العدد العظيم من الرهبان المسيحيين ، والحق أنه لم يكن بين زينون الطرسوسى وبولس الطرسوسى إلا خطوة واحدة يخطوها العالم في الطريق إلى الله شق .

ولقد كانت عناصر كثيرة في العقيدة الرواقية أسيوية في أصلها ، وكان بعضها سامياً خالصاً — ولم تكن الرواقية في جوهرها إلا مرحلة واحدة أولية من مراحل انتصار الشرق على الحضارة الهلنكية . إن بلاد اليونان لم تعد بلاد اليونان قبل أن تفتحها رومة .

الباب الثلاثون

مجيء رومة

الفصل الأول

پیرس

يقول پوليبوس متسائلاً : « منلدا الذى تبلغ به الحقارة أو البلادة حداً لا يريد معه أن يعرف بأية وسائل وفى ظل أى نظام سياسى أفلح الرومان فى أن يخضعوا إلى سلطانهم فى أقل من خمسين عاماً جميع العالم المعمور - وهو عمل قد لا نظير له فى التاريخ ؟ ومنلدا الذى أولع بغير هذه الدراسات ولعاً يحمله على أن يرى أن أية دراسة أخرى أبجل شأنًا من هذه الدراسة (١) ؟ » . ذلك سؤال لا نراه مخطئاً فى إلقاءه ، وقد يشغلنا نحن فيما بعد ، ولكن الفتوح قد توالى وكثرت مذكتب پوليبوس تاريخه إلى درجة لا نستطيع معها أن نصرف كثيراً من الوقت فى دراسة شيء منها . ولقد حاولنا فى الفصول السابقة أن نظهر أن السبب الرئيسى الذى يسر للرومان فتح بلاد اليونان هو انحلال الحضارة اليونانية من الداخل ؛ ذلك أنه ما من أمة عظيمة قد غلبت على أمرها إلا بعد أن دمرت هى نفسها . وقد دمرت بلاد اليونان نفسها بتقطيع غاباتها ، وإتلاف تربتها ، واستنفاد ما فى باطن أرضها من معادن ثمينة ، وبتحول طرق التجارة عنها ، واضطراب الحياة الاقتصادية نتيجة لاختلال النظام السياسى ، وفساد الديمقراطية وانحلال الأسر الحاكمة ، وفساد الأخلاق ، وانعدام الروح الوطنية ، ونقص السكان وتدهور قوتهم الجسمية ، واستبدال الحنود المرتزقة بالجيوش

الوطنية ، وما أدت إليه الحروب الأهلية من تطاحن بين الإخوة وإتلاف لموارد البلاد ، والقضاء على الكفايات بالفتن المتضادة الصماء - كل هذه قد استنفدت موارد هلاس في الوقت الذي كانت فيه الدولة الصغيرة القائمة على ضفة نهر التبر ، والتي كانت تحكمها أرستقراطية صارمة بعيدة النظر ، تلرب جحافلها القوية المحنّدة من طبقة الملاك ، وتتغلب على جيرانها ومنافسها ، وتستولى على ما في البحر الأبيض المتوسط من طعام ومعادن ، وترحف عاما فعاما على المستعمرات اليونانية في جنوبي إيطاليا . لقد كانت هذه الحملات القديمة في سابق عهدها تزهو بثرأها ، وحكمائها ، وفنونها ، ولكنها الآن قد أقفرتها الحروب وغارات ديونيشيوس وسلبه ونهبه ، ونشأة رومة وتقلعها ومتافستها لهذه المستعمرات في مركزها التجاري . يضاف إلى هذا أن القبائل الأصلية التي كان اليونان قد استعبدوا أفرادها أو طردوهم إلى ما وراء حدودها ، قد ازدادت وتضاعفت ، في الوقت الذي كان سادتها ينشدون النعيم والراحة بقتل أطفالهم وإسقاط الحملات من نسائهم ؛ وما لبث أبناء السكان الأصليين أن أخذوا ينازعون المستعمرين السيطرة على جنوبي إيطاليا ، واستغاثت المدن الإيطالية برومة فأغاثتها وألهمتها .

وخشيت تاراس بأس رومة النامية فاستعانت بملك إبيروس الشاب الجريء وكانت الثقافة اليونانية قد امتدت إلى هذه البلاد الجبلية الجميلة المعروفة إلبينا باسم ألبانيا الجنوبية ، منذ أن شاد الدورويون معبداً لزيوس في دودنا Dodona ، ولكن هذه الثقافات ظلت مزعزعة غير موطدة الأركان(*) . حتى عام ٢٩٥ حين تولى بيرس Pyrrhus ملك الملوسيين Mollosians وهم أقوى القبائل الإبيروسية وأعظمها سلطاناً . وكان بيرس هذا يدعى أنه من سلالة البطل أخيل ، وكان وسيماً ، شجاعاً ، وحاكماً مستبداً ، ولكنه محبوب . وكان رعاياه

(*) وعثر علماء الآثار الإيطاليون في عام ١٩٢٩ عند بترينو Butrimo (وهي يثروتو Buthrotum القديمة) على طائفة كبيرة من آثار المباني والتماثيل الباقية من عهد الحضارتين اليونانية الرومانية ، ومنها دار تمثيل يونانية من القرن الثالث قبل الميلاد .

يعتقدون أن في مقدوره أن يشفيهم من مرض الطحلل بوضع قدمه اليمنى على ظهورهم وهم مستلقون على الأرض ، ولم يكن هو أبى هذا العلاج على أفقر فقير في البلاد^(٢) . ولما استغاث به أهل تارنتم رأى في هذا فرصة له مغرية : فقد قدر أنه يستطيع فتح رومة ، وهي الخطر الذي يهدده من الغرب ، كما فتح الإسكندر بلاد الفرس وهي الخطر الذي كان يهدده من الشرق ، فثبت بذلك نسبه ببسالته . ولهذا عبر البحر (الأدياوى) في عام ٢٨١ على رأس قوة مؤلفة من ٢٥,٠٠٠ من المشاة ، وثلاثة آلاف من الفرسان ، وعشرين فيلا . وكان اليونان قد أدخلوا القيلة كما أدخلوا التصوف عن الهند . والتقى بالرومان عند هرقلية Heracleia ، وانتصر عليهم « نصرا بارسيا » : أى أن خسارته في هذا النصر كانت عظيمة ، وأن موارده من الرجال والعتاد قد نقصت إلى حد جعله يرد على أحد أعوانه حين هنأه به بهذه العبارة التى أضحت مثلاً سائراً مدى الأجيال إذ قال إن نصراً آخر مثله كفى بأن يقضى عليه^(٣) . وأرسل الرومان كيس فريسيوس ليفاوضه في أمر تبادل الأسرى . ويروى أفلو طرخس ما دار وقتئذ من الحديث فيقول :

وفي أثناء العشاء دار الحديث حول كثير من الشئون ، وكان أهمها كلها شئون بلاد اليونان وفلاسفتها . وتحدث قنياس Cineas (الدبلوماسى الإپرومى) عن أبيقور ، وأخذ يشرح آراء أتباعه في الآلهة ، والدولة ، وأغراض الحياة ، مؤكداً أن اللذة أكبر سعادة للإنسان ؛ ووصف الشئون العامة بأن لها أسوأ الأثر في الحياة السعيدة لأنها تسبب لها الاضطراب . وقال إن الآلهة لاشأن لها بنا جميعاً ولا تغنى بنا أية عناية ، فهى مجردة من الرحمة بنا أو الغضب علينا ، وهى تحيا حياة لا تقوم فيها بعمل وتقضيها فى النعم والترف . وقبل أن ينتهى قنياس من كلامه صاح فيرميوس قائلا لهرمس : إى هرقل ! . دع پرس والسمنين^(٤) يتمتعون أنفسهم بمثل هذه الآراء ما داموا في حرب معنا^(٥) .

(*) أقوى أعداء رومة في إيطاليا .

وتأثر بيرس بما رآه من صفات الرومان ، فدعاه هذا كما دعاه يأسه من تلقى العون الكافي من يونان لإيطاليا ، إلى أن يرسل قنياس إلى رومة ليفاوضها في الصلح . وأوشك مجلس الشيوخ أن يوافق على هذا ، ولكنه فوجئ بأبيوس كلوديوس Appius Claudius ، وكان أعمى يشرف على الموت ، يحمل إليه ليجتج على عقد الصلح مع جيش أجنبي في أرض إيطالية . فلما عجز بيرس عن نيل بغيته اضطر أن يواصل الحرب ، وانتصر انتصاراً انتحارياً آخر في أسكولوم Asculum ، ثم عاوده اليأس من الفوز على رومة فعبّر البحر إلى صقلية معزماً أن يخلصها من القرطاجيين . وفيها صد القرطاجيين ببطولته المشهورة ، ولكن يونان صقلية كانوا أجنب من أن يخفوا لنجدته ، أولعله كان يحكمهم حكماً استبدادياً كما يحكم كل طاغية . وسواء كان هذا أو ذاك هو السبب فإن أهل صقلية لم يمدوه بما يحتاجه من العون ، فاضطر إلى ترك الجزيرة بعد أن ظل يحارب فيها ثلاث سنين . ونطق وهو يغادرها بنبوءته المأثورة : « أى ميدان قتال أتركه لقرطاجة ورومة ! » ولما وصل إلى إيطاليا كانت قواته قد نقصت نقصاً كبيراً ، فهزم في بنفتوم Beneventum (٢٧٥) ، حيث أثبتت الكتاب المتحركة الخفيفة السلاح لأول مرة تفوقها على الصفوف المتراصة الصعبة الحركة ، فكان ذلك بداية مرحلة جديدة في تاريخ الحروب (٥) .

بوعد بيرس من إلى إبيروس ، كما يقول الفيلسوف أفلوطنرخس :

« بعد أن قضى في هذه الحروب ست سنين ، ومع أنه قد أخفق في أغراضه فقد احتفظ بشجاعة لم تنل منها كل هذه المصائب ، ويضعه الناس لكثرة تجاربه الحربية ، ويأمنه ، وجراته ، في منزلة أعلى من منزلة سائر أمراء عصره . ولكن الذى ناله بشجاعته قد خسره مرة أخرى بسبب آماله المتطرفة ، وكانت رغبته في نيل مالا يملك سبباً في ضياع ما كان يملك (٦) » .

واشتبك بـيرس وقتل في حروب جديدة ثم قتل بقرميده ألقتها عليه عجوز في أرجوس . واستسلمت تراس لرومة في تلك السنة نفسها .

وبعد ثمان سنين من ذلك الوقت بدأت رومة كفاحها الطويل مع قرطاجة ، وهو الكفاح الذي دام مائة عام ، من أجل السيادة على غربي البحر الأبيض المتوسط . ونزلت قرطاجة لرومة بعد حرب دامت جيلاً كاملاً عن سردينية ، وقورسقة ، والأجزاء التي كانت تمتلكها في صقلية . وارتكبت سرقوسة في الحرب اليونانية الثانية تلك الغلظة الموبقة فانضمت في هذه الحرب إلى قرطاجة ، فأجاعها مرسلس Marcellus حتى استسلمت . وانطلق المتصرون في المدينة يهبون ويسلبون حتى لم يبقوا فيها على شيء ولم يبق شيء بعد ذلك قائمة . ويقول ليني إن مرسلس « نقل إلى رومة » ثمان تزدان به سرقوسة من تماثيل كانت غاصبة بها ... وقد بلغت الغنائم حداً أكثر مما كان يحصل عليه لو أن قرطاجة نفسها هي التي فتحت . ولم يحل عام ٢١٠ حتى كانت صقلية كلها قد سقطت في يد رومة جزاء لما على فعلها . واستباحات المدينة هرباً يورد الحبوب ا رومة وعادت مزرعة يقوم فيها العمل كنه تقريباً عبيد . لا آمال لهم في الحياة ، ووضع القيرد الجديدة على الصناعة والتجارة ، ونقلت ثرونها إلى رومة ، ونقص عدد سكانها نقصاً كبيراً ، واختفت صقلية من تاريخ الحضارة لدى ألب عام .

الفصل الثاني

رومة المحررة

لقد كان يساعد رومة في كل خطوة من خطى توسعها أخطاء أعدائها. من ذلك أنها أرسلت في عام ٢٣٠ رجلين من أهلها إلى أشقودرة Scodra عاصمة اليريا Illyria (شمالى ألبانيا) ليحتجوا على هجوم القراصنة الإليريين على السفن الرومانية ، فردت الملكة توتا Teuta ، وكانت تقاسم القراصنة الأسلاب ، على احتجاجهما بقولها « أن ليس من عادة الحكام الإليريين أن يمنعوا رعاياهم من الاستحواذ على الغنائم في البحار (٨) » . ولما أن أنذرهما رسول من قبل رومة بالحرب أمرت بقتله . وسرت رومة إذ تهيأت لها هذه الحجة الرخيصة للاستيلاء على ساحل دلاشيا Dalmatia : فسيرت حملة إلى اليريا فرضت عليها حماية زومة ولم تكده تكلفها من العناء في عام ٢٢٩ ق . م أكثر مما كلفتها حملة ١٩٣٩ م (٩) . وأصبحت كرسيرا Corcyra (كجورفو) ، وإلبداموس Epidamus وغيرهما من المحلات اليونانية مدنا تابعة لرومة . ولما كانت التجارة اليونانية قد عطلتها أيضاً أعمال القرصنة الإليرية فلأن أثينة وكورنثة ، والعصبتين اليونانيتين قد رحبت برومة وعدتها منقذة لها ، وقبلت سفراءها ، ورضيت أن يشترك الرومان في الطقوس الإليزيقية الحفية وفي ألعاب برزخ كورنثة . وفي عام ٢١٦ مزق هنيبال الجيش الروماني في كاني شر ممزق . وزحف بجيشه حتى دق أبواب رومة . وبينما كانت رومة تواجه أشد أزمة في تاريخ الجمهورية عقد فيليب الخامس ملك مقدونيا حلفا مع هنيبال وأعد العدة لغزو

(٩) . يقصد الحملة التي سيرتها إيطاليا في عهد موسوليني على ألبانيا واستولت عليها وأخرجت منها ملكها . (المترجم)

إيطاليا (٢١٤). وعقد مؤتمر في نوبكتس Naupactus (٢١٣) قام فيه أجلوس Agelaus مندوب إيتوليا يناشد اليونان جميعاً أن يوحدوا صفوفهم في هذه الحرب المقدونية الأولى ضد القوة التي أخذت تنمو في الغرب ؟

وما أحسن أن يتمتع اليونان عن أن يحارب بعضهم بعضاً ، وأن يروا أن أعظم النعم التي تنعم بها عليهم الآلهة أن ينطقوا على الدوام بقلب واحد وصوت واحد ، وأن يسيروا وأيديهم مماسكة ، كما يسير الرجال الذين يخوضون نهراً ، فيصلوا البرابرة المغيرين ويوحدوا صفوفهم ليحافظوا على أنفسهم وعلى مدنهم .. ذلك أنه لأجدال في أن من أسعد الأشياء وأقلها احتمالاً ، سواء انتصر القرطاجيون على الرومان أو انتصر الرومان على القرطاجيين ، أن يقع المنتصرون بالسيادة على إيطاليا وصقلية ، بل الذي لا ريب فيه أنهم سيأتون إلى بلادنا وأن أطماغهم ستمتد إلى أبعد ما نخوله لهم العدالة . لهذا أضرع إليكم جميعاً أن تحصنوا أنفسكم من هذا الخطر الداهم ، وأتوجه بندائي هذا إلى الملك فليب على الأخص . إن خير ضمان لك يا مولاي ، ليس هو لإنهاك اليونان ، وجعلهم فريسة سهلة للغزاة ، بل هو عكس هذا ، هو أن تعنى بسلامة كل إقليم من أقاليم اليونان كأنه جزء لا يتجزأ من أملاكك الخاصة ،^(٩)

وأنصت إليه فليب في أدب جم ، وأصبح إلى وقت ما معبود بلاد اليونان . ولكن معاهدته مع هنيبال ، إذا جاز لنا أن نصدق ليني المنطرف في وطنيته ، قد نصت على أن تساعد قرطاجة فليب ، إذا خرجت من الحرب القائمة وقتئذ ظافرة ، على إخضاع جميع بلاد اليونان الأصلية إلى مقدونية ، مقابل هجومه على إيطاليا . وربما كان سبب الميثاق الذي عقده معظم الدول اليونانية . ومنها عصبة أجلوس الإيتولية Agelaus Aetolian League ، مع رومة ضد مقدونية . أن هذه الولايات قد عرفت شروط هذا الاتفاق ؛ وكانت نتيجة هذا الميثاق . أن وضعت العراقيل في سبيل فليب في داخل البلاد وتأجل غزوه إلى إيطاليا

إلى أجل غير مسمى ، وفي عام ٢٠٥ عقدت إيطاليا مع فليب لكى توجه اهتمامها كله إلى هنيبال ، وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت بدد سبيو الأكبر شمل القرطاجيين فى زاما Zama . ولما بلغ القرن الأخير العظيم من قرون الحضارة اليونانية غايته لحأت مصر ، ورودس ، وبرجوم إلى رومة لتساعدوا على فليب . واستجابت رومة لهذه الدعوة بأن أثارت الحرب المقدونية الثانية . ووجد فليب جميع البلاد اليونانية تقريباً ومعها رومة تقف فى وجهه ، فحارب بشراسة الوحش إذا وقع فى المحذور . فلم يتردد فى أن يستخدم كل أنواع الغدر ، أو سرقة كل ما يوصله إلى غرضه ، أو التكيل بالأسرى تنكيلا يدفع كل رجل فى أيديوس ، حين بدا لهم أن حصار فليب لمدينتهم لا يمكن مقاومته ، أن يقتل زوجته وأطفاله ثم يقتل بعدئذ نفسه (١١) . وفى عام ١٩٧ أوقع تيتس كونكتيوس فلامينيوس Titus Quinctius Flamininus ، وهو رجل ينتمى إلى ذلك الصنف من الأشراف الذين قلبوا بوليبيوس مناضراً متحمساً للرومان ، أوقع بفليب هزيمة منكرة عند سينوسفلى Cynoscephalea وسقطت على أثرها كل مقدونية — أو بالأحرى بلاد اليونان كلها — تحت رحمة رومة . وقد استاء من فلامينيوس أحلافه الإيتوليون (وقد ادعوا أنهم هم الذين كسبو المعركة) لأنه سمح لفليب بعد أن أمن بجانبه لشدة ضعفه ، أن يحتفظ بعرشه واكتفى بأن فرض عليه غرامة باهظة واستولى على وسق سفينة من الأسلاب . وكانت حجة فلامينيوس فى المطالبة بإبعاد فليب عن العرش أنه فى حاجة إلى مقدونية لوقاية البلاد من البرابرة الضاربين فى شمالها .

وكان القائد الرومانى قد تعلم اللغة اليونانية فى تارنتم (وهو الاسم الذى أطلقه الرومان على تاراس) وعرف ما فى الأدب اليونانى ، والفلسفة اليونانية ، والقرن اليونانى من بهجة وروعة . ويبدو أنه كان يعترم مخلصاً أن يحرر دول المدن اليونانية من سيطرة مقدونية ، وأن يتيح لها كل فرصة تمكنها من أن تستمتع

بالحرية والسلم . ولما استطاع بعد صعب جنة أن يقنع المبعوثين الرومان بأن هذه خطة حكيمة ، ذهب إلى الألعاب البرزخية في كورنثة (١٩٦) ، حيث كان جميع العالم اليوناني الخطير الشأن مجتمعاً (وكان كل واحد يتحدث جاره ، على حد قول پوليبوس ، مما يستطيع الرومان وقتئذ أن يفعلوه) وأعلن في الحاضرين على لسان مناد أن « مجلس الشيوخ الروماني ، وأن تيتس كونكتيوس القنصل الأكبر بعد أن هزما الملك فليب والمقلونيين يتركان الأقوام الآتي ذكرهم بعد أحراراً ، فلا يضعان في بلادهم حاميات عسكرية ، ولا يطالبانهم بحرية ، يحكمون أنفسهم بمقتضى قوانينهم . وهؤلاء الأقوام هم الكورنثيون ، والفوقيون ، واللكريون ، والعوييون ، والآخيون الفثيوتيون ، والمجنزيون ، والساليون ، والبرهيبيون(*)» — أى جميع سكان بلاد اليونان القارية الذين لم يكونوا من قبل أحراراً . وصاح الجزء الأكبر من المجتمعين أن يعاد هذا النداء لأنهم لم يستطيعوا أن يصدقوا هذا الإجراء الذي أصبحوا بمقتضاه أحراراً ، والذي لم يمهلوا له من قبل مثيلاً ، فلما أن أعاده المنادى « ارتفعت في الجو عاصفة من التهليل » على حد قول پوليبوس « ليس من السهل على من يستمعون هذه القصة الآن أن يتصوروا قوتها »^(١) . وارتاب الكثيرون منهم في صدق هذا الإعلان وفي إخلاص أصحابه فيه ، وتوقعوا أن تكون من ورائه حيلة مأكرة ، ولكن فلامينيوس شرع من ذلك اليوم ينقل الجنود اليونان من كورنثة ، ولم تحل سنة ١٩٤ حتى كان جيشه كله قد عاد إلى إيطاليا . ورحبت به اليونان وعدته « منقذاً ومحراً » وبدأت مغتربة سعيدة تعيش في آخر أيام حريتها .

(*) Corinthians, Phocians, Locrians, Euboeans, Phibiotic Achaeans, Magnesians, Thessalians, & Perrhaebians.

الفصل الثالث

رومة الفاتحة

غير أن الإيتوليين لم يرضوا عن هذه الخطة ؛ ذلك أن بعض المدن التي حررتها رومة كانت من قبل تحت سيطرة إيتوليا فلم تعد وقتئذ كما كانت من قبل أعضاء في العصبة الإيتولية . لهذا لم تكد الحرب المقدونية الثانية تضع أوزارها حتى دعا الإيتوليون أنتيوخوس الثالث لإنقاذ بلاد اليونان من رومة . وألفت برجموم ولميسكس نفسيهما بين الغالين القلقين في الشمال وقوة السلوقيين المتزايدة في الجنوب ، فاستغاثتا برومة لتساعدهما على أنتيوخوس . وأرسل مجلس الشيوخ سينيو أفركانس Scipio Aricanus بطل زاما Zama لمعونهما . واستطاع القواد الرومان بعدد قليل من الفيالق الرومانية وجنود يومنيز الثاني أن يهزموا أنتيوخوس في مجنيزيا ، ثم انجهوا نحو الشمال وطردهوا الغالين ، ووسع الرومان ، على أثر هذا النصر حمايتهم حتى شملت جميع ساحل آسية الممتد على البحر الأبيض المتوسط ، ثم عادوا بعدئذ إلى إيطاليا . وحمد لهم يومنيز فعلهم ولكن بلاد اليونان الأصلية عدته خائنا لهلاس لأنه استعان بالرومان البرابرة على مواطنيه اليونان .

ذلك أن بلاد اليونان المذبذبة كانت قد أخذت تندم على قبولها ما أسدته إليها مهنقتها غير المثقفة القادمة إليها من الغرب . فقال أهلها إن فلامينوس وخلفاءه ، وإن كانوا قد ردوا إلى البلاد حريتها ، قد نالوا أجراً عن هذا . وهو الثنائم الكثيرة التي استولوا عليها في كل مدينة أيدت فليب أو أنتيوخوس أو الإيتوليين حتى بات اليونان يخشون أن يتكرر هذا التحرر مرة أخرى . وقد ظلت الأسلاب التي استولى عليها فلامينوس بعد انتصاراته في الحروب اليونانية تمر بلا انقطاع أمام أعين الرومان ، ففي اليوم الأول أسلحة ودروع وتمائيل

من الرخام والبرنز لا حصر لها ، وفي اليوم الثاني ١٨,٠٠٠ رطل من الفضة ، و ٣,٧١٤ رطلا من الذهب ، ١٠٠,٠٠٠ قطعة من العملة الفضية ، وفي اليوم الثالث ١٤٤ تاجا من تيجان الأمراء والأشراف (١٣) . يضاف إلى هذا أن الرومان كانوا قد أبلوا ، وظلوا وقتئذ يوثدون على أيدي ممثلهم ، الطبقات الغنية في بلاد اليونان على المواطنين الفقراء ، وحرّموا مظاهر حرب للطبقات . ولم ير اليونان أن يشتروا السلم بهذا الثمن الغالي ، بل كانوا يريدون أن يكونوا أحراراً في تسوية ما بينهم من نزاع ، وأن ينقّسوا عما في صدورهم من مطامع إقليمية قومية ؛ ولم يكونوا يطبقون الحياة الرتيبة الحالية من التغيير . وسرعان ما قامت الأحزاب المتنافسة بتنازع بعضها بعضا ، ودبّ الشقاق والانقسام بينها . في كل مكان . وأخذت كل مدينة وكل جماعة تتقدم بمطالب خاصة إلى مجلس الشيوخ الروماني ، وبعث مجلس الشيوخ لجائا لمبحث هذه المطالب والفصل فيها . وكانت أغلال السيطرة الأجنبية خفية غير بادية للعين ولكنها كانت مع ذلك حقيقة واقعة ، وأخذ اليونان جميعهم ماعدا الأغنياء منهم يحسون بهذه الأغلال تضيق على أعناقهم عاما بعد عام ويتمنون أن ينقضى عهد هذه الحرية . وشرع مجلس الشيوخ يستمع إلى أعضائه الذين كانوا يقولون إن بلاد اليونان لا يمكن أن يستتب فيها الأمن والنظام إلا إذا فرضت عليها رومة سيطرتها الكاملة .

وتوفي فليب الخامس في عام ١٧٩ وخلفه على العرش ابنه پرسیوس بعد فترة سفلت فيها الدماء . وكانت السبعة عشر عاما التي سبقت جلوسه على العرش والتي ساد فيها السلم قد أعادت إلى مقدونية رخاءها الاقتصادي ، وأوجدت فيها جيلا جديدا من الشباب تطعم بهم نار الحرب . ودخل پرسیوس في مفاوضات مع سلوقس الرابع لعقد حلف بين بلديهما وتزوج بنة سلوقس . وانضمت رودس إلى هذا الحلف وأرسلت أسطولا ضخما ليحرس العروس في طريقها إلى زوجها . وابتهجت بلاد اليونان جميعها ، ورأت في پرسیوس

أملاً حياً يقف في وجه سلطان رومة . وخشى يومئذ الثاني على استقلال برجموم
فهروا إلى رومة وألح على مجلس الشيوخ أن يبادر إلى تدمير مقدونية لإبقاء
على مصالح هذا المجلس نفسه . وكاد يومئذ أن يفقد حياته في مشاجرة خاصة
وهو عائد إلى بلاده . ورأت رومة أن من مصلحتها أن تفسر هذا الشجار بأنه
مؤامرة دبرها پرسوس لاغتيال الملك ، وتبادل الطرفان عدة مهارات دبلوماسية
وطنية أعقبها اشتعال نار الحرب المقدونية الثالثة . ولم يجرؤ على مساعدة پرسوس
إلا إبيروس وإليريا ، أما دول اليونان الأخرى فقد بعثت إليه برسائل سرية
تبدى فيها عطفها عليه ولكنها لم تفعل أكثر من هذا . وفي عام ١٦٨ فرق
إميلوس بولوس Aemilius Paulus الجيش اليوناني في بدنا ، وخرب سبعين
مدينة مقدونية ، ونفى الطبقات العليا من أهلها إلى إيطاليا ، وقسم المملكة أربع
جمهوريات مستقلة استقلالاً ذاتياً ولكنها تؤدي الجزية إلى رومة ، وحرّم عليها
أن تتبادل فيما بينها التجارة والصلات أيّا كان نوعها . ومن پرسوس في إيطاليا
وقضى في السجن سنتين توفى بعدها مما لقيه من سوء المعاملة . وخربت إبيروس
وبيع مائة ألف من أهلها أرقاء بسعر ريال أمريكي لكل واحد منهم (١٤)
وعوقبت رودس — وهي التي لم يكن لها نصيب جدي في الحرب — بتحرير
ممتلكاتها الممتدة على سواحل آسية ، وإنشاء مرفأ حر منافس لها في ديلوس
واستحوز الرومان على أوراق پرسوس الخاصة ، ونفى أوزج في السجن كل من
مد له يد المعونة أو أظهر العطف عليه . ونقل إلى إيطاليا ألف من الرجال
البارزين في العصبة الآخية ومنهم پوليبوس ، حيث ظلوا في النفي ستة عشر
عاماً مات في خلالها سبعائة منهم . ولم يكن إعجاب بلاد اليونان السابق برومة
المحررة أشد من حقدها وقتئذ على رومة الفاتحة .

وكان لهذه القسوة من جانب المنتصرين عواقب لم يكونوا يريدونها . فقد
كان لإضعاف رودس سبباً في القضاء على ما كانت تقوم به من حراسة في بحر
إيجيه ، وانتعشت على أثر هذا القرصنة الغاضبة على التجارة المشروعة . كذلك

كان إخراج هذا العدد الكبير من الأشراف سبباً في إخلاء الميدان للزعامة المتطرفة في مدن العصبة الآخية ، وتجددت الفتن والحروب الأهلية وبلغت فيها أوجها . واستمسك الأغنياء في هذه الحروب بحماية رومة ، وطالب الفقراء بإخراج الأغنياء والقوات الرومانية من البلاد . وفي عام ١٥٠ عاد من إيطاليا من كان باقياً فيها على قيد الحياة من الأخيين المنفيين ، وكان عددهم لا يتجاوز المائة والخمسين ، وانضموا إلى المطالبين بالقضاء على سلطان الرومان في بلاد اليونان . وأرادت رومة أن تضعف قوة الأخيين فأرسلت إلى بلاد اليونان بعثة مياسبة أمرت كورنثة ، وأركنوس ، وأرجوس بأن تخرج من الحلف . وردت سيدات كورنثة على هذا الأمر بأن أفرقت دلاء من الأقدار على رعوس المبعوثين^(١٥) ، وفي عام ١٤٦ أعلنت العصبة حرب التحرير ، وكانت ترجو أن اشتباك رومة في الحرب في أسبانيا وإفريقية سيشتغل جيوشها فيحملها على أن تعقد معها صلحاً ترتضيه ، وطفغ على مدائن العصبة موجة من الحماسة الوطنية فحرر العبيد وسلحوا ، وأعلن إيقاف أداء الديون ، ووعد الفقراء بقسط من الأرض الزراعية ، وألغى الأغنياء التبعاء أنفسهم بين الاشتراكية ورومة ، فقدموا كارهين جواهرهم وأموالهم لقضية الحرية ، ونفضت أثينة واسبارطة أيديهما من النزاع كله وبقيتا بمعزل عنه ، أما بوثوية ، ولكريا ، وعوبية ، فقد انضمت بشجاعة إلى حرب التحرير . واثارت جمهوريات مقدونية الأربع علناً على رومة .

واستشاط مجلس الشيوخ الروماني غضباً فسير إلى بلاد اليونان جيشاً بقيادة مميوس وأسطولا بقيادة متلوس Metillus . وقضت قوة الجيش والأسطول مجتمعين على كل مقاومة ، واستولى مميوس Mummius في عام ١٤٦ على كورنثة حصن العصبة الحصين . وأشعل الفائحون النار في المدينة الغنية مدينة التجار والعهارات ، وذبحوا جميع رجالها وباعوا جميع نساءها وأطفالها في أسواق الرقيق . ولعلهم أرادوا بعملهم هذا أن يقضوا على منافس تجارى لرومة في شرق البحر الأبيض المتوسط كما كان سيبو وقتئذ يقضى بتدمير قرطاجة على

منافس لها في غربه ، أو لملهم أرادوا أن يلقوا على بلاد اليونان درساً مثل
 الدرس الذى ألقاه الإله كنندى على طيبة من قبل . ونقل مميوس إلى إيطاليا كل
 ما استطاع نقله من الأموال ، ومظاهر الثراء ومنها جميع التحف الفنية التى كان
 الكورنثيون يحملون بها مدينتهم وبيوتهم . ويحدثنا بوليبيوس أن الجنود الرومان
 كانوا يستخدمون الرسوم الفنية ذات الشهرة العالمية لوحات فى لعب الداما
 أو النرد . وحلّت رومة العصبية ، وقتلت زعماءها ، وأنشأت من بلاد اليونان
 ومقدونية ولاية تحت حكمها . وفرضت على بوثوية ، ولكريس ، وكورنثة ،
 وعويية جزية . أما أثينة واسبارطة فأمّ تمسّسهما بسوء وأجيزلها أن تبقىا خاضعتين
 لقوانينهما . وأيدت رومة حزب الملاك والنظام فى جميع البلاد وأعلنت أن كل
 محاولة تبنل لإشعال نار الحرب ، أو الفتن ، أو تبديل الدستور ، تعدّ خروجاً
 على القانون . وهكذا وجدت المدن الهائجة المضطربة السلم فى آخر الأمر .

الخاتمة

ما ورثناه عن اليونان

لم تمت الحضارة اليونانية حين استولت رومة على بلاد اليونان ، بل عاشت بعد ذلك عدة قرون ، ولما أن ماتت أُوُرثت أمم أوروبا والشرق الأدنى تراثا ليس له مثيل ، فقد أخذت كل مستعمرة يونانية تصب ماء حياة الفن اليونانى والفكر اليونانى فى الدِّم الثقافى الذى يجرى فى عروق مايجاورها من البلاد - فى أسبانيا وبلاد الغالة ، وفى إتروريا ورومة ، وفى مصر وفلسطين ، وفى سوريا وآسية الصغرى ، وعلى طول شواطئ البحر الأسود . وكانت الأسكندرية هى الثغر الذى تصدر منه الأفكار كما تصدر منه السلع . فن المتحف والمكتبة انتشرت مؤلفات شعراء اليونان ، ومتصوفتهم ، وفلاسفتهم وعلمائهم كما انتشرت آراؤهم على يد الطلاب والعلماء فى كل مدينة فى حوض البحر المتوسط وملتى طرقه . وأخذت رومة تراث اليونان فى شكله الهلنسى : فأخذ كتاب مسرحياتها عن مناندر وفليمون ، وقلد شعراؤها أساليب الأدب الإسكندري وأوزانه وموضوعاته ، واستخدم فنُّها الصُّناع اليونان والأشكال اليونانية ؛ واندجبت فى شرائعها قوانين المدن اليونانية ، وصيغ نظامها الإمبراطورى المتأخر على مثال الملكيات اليونانية - الشرقية . وبذلك يصح القول بأن الهلينية قد فتحت رومة بعد الفتح الرومانى كما كانت بلاد الشرق تفتح بلاد اليونان ، فكان كل امتداد لسلطان الرومان انتشاراً للحضارة اليونانية . وعقدت الإمبراطورية البيزنطية قران الحضارة اليونانية والحضارة الآسيوية(*) ، ونقلت بعض تراث اليونان

(*) فى وسعنا أن نورد هنا تسفا بعام ٣٢٥ ق . م ، حين أسس قسطنطين مدينة القسطنطينية ، وأثبتت الامبراطورية البيزنطية المسيحية تحلى محل الثقافة « الوثنية » اليونانية فى شرق البحر الأبيض .

إلى الشرق الأدنى وصقلية الشمال . وأمسك المسيحيون السوريون بشعلة الحضارة اليونانية وأسلموها للعرب واخترق بها هؤلاء إفريقية إلى أسبانية . وأخذ العلماء البيزنطيون ، والمسلمون ، واليهود ينقلون الروائع اليونانية إلى إيطاليا أو يترجمونها لها ؛ لينشئوا بها أول الأمر فلسفة المدرسين ، ثم يوقدون بها شعلة النهضة الأوربية ، وأخذت روح اليونان منذ ميلاد العقل الأوربي للمرة الثانية تسرى في الثقافة الحديثة سريانا بلغ من قوته أن جميع الأمم المتحضرة أضحت اليوم مستعمرات لبلاد في كل ما يتصل بالنشاط الذهني (*) (١)

وإذا لم ندخل في التراث اليوناني ما اخترعه اليونان فحسب بل أدخلنا فيه أيضا ما أخذوه عن ثقافات أقدم من ثقافتهم ونقلوه بشتى الطرق إلى ثقافتنا ، وجدنا هذا التراث في كل ناحية من نواحي الحياة الحديثة . فصناعاتنا اليدوية ، وفن التعدين ، وأصول الهندسية العملية ، وأساليب المال والتجارة ، وتشريعات العمل ، وتنظيم التجارة والصناعة - كل هذا قد انتقل إلينا خلال مجرى التاريخ من رومة ، ومن بلاد اليونان عن طريق رومة . فدمقراطيتنا ودكتاتورياتنا على السواء ترجعان إلى المثل اليونانية ؛ ومع أن اتساع رقعة الدول قد أوجد نظاما تمثيلياً لم يكن معروفاً لبلاد ، فإن الفكرة الديمقراطية القائلة بقيام حكومة مسئولة أمام المحكومين ، وفكرة المحاكمة على أيدي المحلفين ، والحريات المدنية التي تشمل حرية الفكر ، والتعبير ، والكتابة ، والاجتماع ، والعبادة ، كل هذه قد استمدت قوتها من التاريخ اليوناني . وهذه هي الخصائص التي تميز اليوناني عن الشرقي ، والتي وهبته استقلالاً في الروح وفي المغامرة جعله يسخر من الخضوع والاستسلام ولقصوره الذاتي .

(*) إن ازدياد معلومات عن الحضارتين المصرية والآشورية ليضطرنا إلى تعديل كبير في قول سير هنري مين Sir Henry Maine المأثور والمبالغ فيه كثيراً وهو : «إذا استثنينا قري الطبيعة العمياء ، لم نجد شيئاً يتحرك في هذا العالم إلا وهو يوناني في أصله» (٢) .

فمدارسنا وجامعاتنا ، ومدارس التدريب الرياضى وملاعبه ، والمباريات الرياضية والأولمبية ، كل هذه ترجع أصولها إلى بلاد اليونان . ونظرية تحسين النسل ، وفكرة ضبط الشهوة الجنسية ، والسيطرة على الغرائز والعواطف ، وعبادة الصحة والحياة الطبيعية ، ومذهب إشباع الحواس . أكمل إشباع ، كل هذه وجدت صيغها التاريخية في بلاد اليونان . وقد تفرع الجزء الأكبر من الدين المسيحى والعبادات المسيحية (ولفظا Christian و theology نفسهما لفظان يونانيان) من الطقوس الخفية التى كانت منتشرة في بلاد اليونان ومصر ، ومن المراسم الإليوزينية والأرفية ، والأزيريسية ؛ ومن العقيدة اليونانية القائلة بموت الابن المقدس لتخليص الجنس البشرى ثم بعثه من بين الموتى ، ومن الطقوس اليونانية والمواكب الدينية وحفلات التطهير ، والتضحية المقلمة ، والطعام العام المقدس ، ومن الآراء اليونانية عن الجحيم ، والشياطين ، والمطهر والغفران ، والجنة ، ومن النظريات الروائية والأفلاطونية الجديدة عن الكلمة والخلق ، واحتراق العالم في آخر الأمر . ونحن مدينون بخرافاتنا فنتسبها لما كان لدى اليونان من أغوال وساحرات ، ولعنات ، وتفاوت وتشاؤم ، وأيام منحوسة . ومنذ الذى يستطيع أن يفهم الأدب الإنجليزى ، أو يستمتع بقصيدة واحدة من قصائد كيئس Keats إلا إذا كانت ادبه فكرة عن الأساطير الدينية اليونانية .

ولولا ما كتبه اليونان وما نقل إلينا عنهم لكان وجود أدبنا من أشق الأمور . فحروفنا الهجائية جاءتنا من بلاد اليونان عن طريق كوى ورومة ، ولغتنا تكثر فيها الكلمات اليونانية ؛ وعلومنا قد أنشأت لها لغة عامة دولية بواسطة المصطلحات اليونانية ؛ ونحونا ، وبلاغتنا ، وحتى علامات الترقيم ، وتنظيم هذه الصفحة إلى فقرات ، كل هذا من اختراع اليونان (*) ، وكل ما لدينا من صهور أدبية — الشعر الغنائى ، والقصائد ، وأناشيد الرعاة ، والرواية

(*) يقصد الكاتب بطبيعة الحال الإنجليز والأمريكيين .

القصصية ، والمقالة والخطبة ، والسيرة ، والتاريخ ، والمسرحية وهى أهمها جميعاً ، كل ما لدينا من هذا يونانى وكل مسمياته تقريباً مأخوذة عن اليونانية . والألفاظ الإنجليزية التى تطلق على المسرحيات الحديثة وأشكالها — المأساة ، والمسلاة ، والمسرحية الصامتة المضحكة التى تستخدم فيها الإشارات *Pantomime , comedy, tragedy* يونانية . نعم إن المأساة الإنجليزية فى عصر الإصابات فلة فى نوعها ، ولكن المسلاة المضحكة التى كانت تمثل فى ذلك العصر قد انتقلت إليه من مناندر ، وفليمون بواسطة بلوتس ، وترنس ، وبين جنس ، ومليير ، لم يكده يتبدل فيها شئ . وإن المأسى اليونانية نفسها لمن أثنى ما خلفه اليونان من تراثهم القيم .

وما من شئ فى بلاد اليونان يبدو لنا غريباً عنا أكثر من موسيقاها ، ومع هذا فإن الموسيقى الحديثة كانت (إلى أن عاد بها الموسيقيون إلى أفريقية وبلاد الشرق) مستقاة من تراثهم العصور الوسطى ورقصها ، وهذه الترائم وهذا الرقص يرجع بعضهما إلى أصل يونانى . والأناشيد الدينية ، والتثليلات الغنائية مدينة بعض الدين إلى الرقص الغنائى الجماعى اليونانى وإلى المسرحيات اليونانية ؛ ومبلغ علمنا أن اليونان من فيثاغورس إلى أرسطو *Aristoxenus* كانوا أول من وضعوا وشرحوا نظريات الموسيقى . وديننا لليونان فى الرسم أقل الديون ، ولكن فى وسعنا أن نتتبع تسلسل المظلمات تسلسلاً غير متقطع من بولخنوتس إلى رسوم الجدران التى تستلفت الأنظار فى هذه الأيام عن طريق الإسكندرية وبمبى ، وجيتو *Giotto* وميكل أنجلو . ولا تزال أشكال النحت الحديث وقواعده الفنية يونانية ، لأن العبقرية اليونانية لم تطبع شيئاً بطابعها وتستبد به كما طبعت فن النحت واستبدت به . وقد بلغ من قوة هذا الاستبداد أننا لم نبدأ نتحرر من الافتتان بفن العارة اليونانية إلا فى هذه الأيام . وليس فى أوروبا ولا أمريكا مدينة تخلو من صرح تجارى أو مالى قد أخذ شكله أو أخذت واجهته ذات العمد من معابد الآلهة اليونانية . ولنا ننكر أننا لا نجد فى الفن

اليوناني دراسة الخلق وتصوير خلجات النفس ، وأن افتتانه بجمال الجسم وصحته يجعله أقل نضجاً من تماثيل مصر التي تنطق بالرجولة الكاملة ومن تصوير الصينيين النافذ العميق . غير أن ما ننتقله عن هذا الفن اليوناني من دروس في الاعتدال ، والطهارة والنقاء ، والتناسق البادى في النحت والعمارة في عصر اليونان الزاهر — كل هذا من أئمن تراث الإنسانية ؛

وإذا كانت الحضارة اليونانية تبدو لنا الآن أقرب « وأحدث » من أية حضارة أخرى قبل فلتير ، فما ذلك إلا أن اليونان كانوا يحبون العقل بقدر ما يحبون الشكل ، ولذلك كانوا جريئين في سعيهم إلى تفسير الطبيعة على أسس مستمدة من الطبيعة نفسها ، ولقد كان تحرير العلم من قيود الدين ، وتطور البحث العلمى تطوراً مستقلاً عن كل ما عداه ، كان هذان التحرر والتطور مظهرين من مغامرات العقلية اليونانية الجاححة . وعلماء الرياضة اليونان هم واضعو قواعد حساب المثلثات ، وحساب التفاضل والتكامل ، وهم الذين بدأوا وأتموا دراسة القطاعات المخروطية ، ووصلوا هندسة الأبعاد الثلاثة إلى درجة من الكمال النسبى ظلت محتفظة بها دون تبديل إلى أيام ديكارت وبسكال ؛ وقد أثار ديمقريطس ميدان علم الطبيعة والكيمياء بأكمله بنظريته الذرية . واستطاع أركميديز في أوقات تسليته وفراغه من الدراسات المجردة أن يبتدع من الأجهزة والآلات الجديدة ما يكفي لأن يقرن اسمه بأعظم الأسماء في سجل الاختراعات ؛ وقد سبق أرسطارخوس كوبرنيك في كشفه الفلكية ولعله هو الذى أوحى إليه بها (*) ، وأقام هباركوس على يدى كلوديوس بطليموس نظاماً فلكياً يعد من المعالم الخطيرة في تاريخ الثقافة البشرية . ورسم أنكساغورس وأنبادوقليس الخطوط الأساسية لنظرية النشوء والارتقاء . وصنف أرسطو وثاوفراسطوس

(*) كان كوبرنيك على علم بنظرية أرسطارخوس القائلة إن الشمس هي مركز المجموعة الشمسية لأنه ذكر ذلك في فقرة اختفت من الطبعات المتأخرة من كتابه (١) .

مملكى الحيوان والنبات ، وأوشكا أن يبتدعا علوم الأرصاد الجوية ، والحيوان ، والأجنة والنبات. وحرر أبقراط الطب من التصوف والنظريات الفلسفية ورفع من منزلته بأن ضم إليه قانوناً أخلاقياً سامياً . وارتقى هروفيلس وإراستراتس بعلمى التشريح ووظائف الأعضاء إلى درجة لم تصل إليها أوروبا بعدهما — إذا استثنينا جالينوس وحده — إلا فى عهد النهضة : ونحن نتنفس فى أعمال أولئك الرجال نسيم العقل الهادئ ، غير الواثق أو الآمن على الدوام ، ولكنه العقل المبرأ من العواطف والأساطير . ولعلنا لو كانت لدينا روائع كاملة لحكمنا من فورنا بأن العلوم الطبيعية اليونانية أجل الأعمال الذهنية الرائعة فى تاريخ الإنسانية .

غير أن الرجل المولع بالفلسفة لا يرضى بسهولة أن يجعل للعلوم الطبيعية والفنون الجميلة أعلى منزلة فيما ورثناه عن اليونان الأقدمين . ذلك أن علم اليونان الطبيعى كان هو نفسه وليد الفلسفة اليونانية — وليد ذلك التحدى الجرىء للأقاصيص الخرافية ، وذلك الحب القوى للبحث ، الذى ظل عدة قرون يجمع بين العلم والفلسفة فى مغامرات البحث والتنقيب . ولم يشهد العالم قبل اليونان رجالاً يفحصون عن الطبيعة بمثل دقتهم وبمثل ولعهم بها وحجهم لهاها . ولم ينقص اليونان من مكانة العالم السامية باعتقادهم أنه كون منظم وأن نظامه هذا يجعله قابلاً للفهم والإدراك . وقد ابتدعوا المنطق لنفس السبب الذى جعلهم يبتدعون التماثيل التى بلغت ذروة الكمال ؛ والتناسق . والوحدة ، والتناسب ، والشكل هى فى رأيهم معين فى المنطق ومنطق الفن . وقد دفعهم تشوقهم ونطلعهم لمعرفة كل حقيقة وكل نظرية إلى أن يجعلوا الفلسفة مغامرة ممتازة من مغامرات العقل الأوروبى ، وهم لا يكتفون بهذا بل نراهم لا يكادون يتركون فرضاً من الفروض أو نظاماً من الأنظمة إلا فكروا فيه ، ولا يكادون يتركون لغيرهم شيئاً يقولونه عن مشاكل الحياة الكبرى . فالواقعية ، والقول بأن الأشياء موجودة بالاسم دون الحقيقة ، والمثالية والمادية ، والتوحيد ، ووحدة الوجود ،

والشرك ، والحركة النسائية والشيوعية ، والبحث التحليلي الكانتى Kantian واليأس الشوينهورى ، والعودة إلى الحياة البدائية التى يقول بها روسو ، ومذهب تنشئة فى التحلل من القيود الأخلاقية ، ومذهب اسپنسر التركيبى ، ومذهب فرويد فى التحليل النفسى - وبالجملة كل أخلام الفلسفة وحكمتها نشهدا هنا فى مهدها وبداية عهدها . ولم يكن الناس فى بلاد اليونان يتحدثون عن الفلسفة فحسب ، بل كانوا فوق ذلك يعيشون فيها : فقد كان الحكيم لا المحارب أو القديس ، صاحب أسمى مكانة فى اليونانية وكان هو مثلها الأعلى . وقد وصل إلينا هذا التراث الفلسفى المبهج من أيام طاليس خلال القرون الطوال ، وكان هو الملهم للأباطرة الرومان ، وآباء الكنيسة المسيحيين ، وعلماء الدين المدرسين ، وملحدى عصر النهضة ، وفلاسفة كبرددج الأفلاطونيين ، وتمردي عصر الاستنارة الفرنسيين ، وعشاق الفلسفة فى هذه الأيام . ولعله لا يوجد قطر من أقطار العالم إلا فيه من يقرأ فلسفة أفلاطون ويقرأها بشغف شديد وإذا عدت هؤلاء القراء فى هذه اللحظة وجدتهم ألوفا مؤلفة .

وآخر ما نقوله فى هذا المجال أن الحضارة لا تموت ولكنها تهاجر من بلد إلى بلد ، فهى تغير مسكنها وملبسها ، ولكنها تظل حية . وموت إحدى الحضارات كموت أحد الأفراد يفسح المكان لنشأة حضارة أخرى ، فالحياة تخلع عنها غشاءها القديم وتفاجئ الموت بشباب غض جديد . فالحضارة اليونانية حية ، وتتحرك فى كل نسمة من نسائم العقل نستنشقها ، وإن ما بقى منها ليلبغ من الضخامة حداً يستحيل على الفرد فى حياته أن يستوعبه كله . ونحن نعرف عيوبها ونقاطها - نعرف حروبها الجنونية التى خلت من الرحمة ، وما فيها من استرقاق دام إلى آخر أيام بنينا ، ونعرف إخضاعها النساء وإذلالهن ، وتحللها من القيود الأخلاقية . ونزعتها الفردية الفاسدة ، وعجزها الحزن عن أن تجمع

بين الحرية والنظام والسلم . ولكن الذين يحبون الحرية ، والعقل ، والجمال ، لا يطيّلون التفكير في هذه العيوب ، بل لأنهم سوف يستمعون من وراء حجب التاريخ السياسى إلى أصوات صولون وسقراط ، وأفلاطون ويورپديز ، وفدياس وبركستليز ، وأبيقور ، وأركيديز ، وسوف يحملون الله لوجود أمثال أولئك الرجال ويحرضون على محبتهم في بلاد غير بلادهم . ويقرنون بلاد اليونان بفجر تلك الحضارة الغربية المتبر التي هي غذاؤنا وحياتنا رغم ما فيها من عيوب ترجع أصولها إلى معينها القديم .



إلى الذين وصلوا معى إلى هذا الحد :
أشكر لكم محبتكم التي لا أراها بعينى ولكننى لا أنفأ أحسها بقلبي :



Bibliography

Of Books Referred to in text or Notes

The starred volumes are recommended for further study.

ADAMS, B. : The Empire. N.Y., 1903.

*AESCHYLUS : The Oresteia. Tr. G. Murray. London, 1928.

ANDERSON, W. J., and SPIERS, R. P. : The Architecture of Greece and Rome. London, 1902.

ARISTOPHANES : The Eleven Comedies. 2v. N.Y. 1928.

ARISTOPHANES : The Frogs, and Three Other Plays. Tr. Frere. etc.. Every-man Library.

ARISTOTLE : Art of Rhetoric. Loeb Classical Library.

ARISTOTLE : Metaphysics. 2v. Loeb Library.

ARISTOTLE : Metaphysics. Tr. M'Mahon. London. 1857.

ARISTOTLE : Nicomachean Ethics. Tr. Chase. Everyman Library.

ARISTOTLE (?) : Oeconomica and Magna Moralia. Loeb Library. .

ARISTOTLE : ON the Constitution of Athens. Tr. E. Poste. London, 1891.

ARISTOTLE : Physics. 2v. Loeb Library.

ARISTOTLE : Poetics. Loeb Library.

*ARISTOTLE : Politics. .Tr. Lindsay. Everyman Library.

ARISTOTLE : Works. Tr. Smith and Ross. Oxford, 1931.

ARNOLD, M. : Essays in Criticism. A. L. Burt, N.Y., n.d.

ARRIN : Anabasis of Alexander ; Indica. London, 1893.

ATHENAEUS : The Deipnosophists, or Banquet of the Learned. 8v. London, 1854.

*BACON, F. : Philosophical Works. Ed.-J. M. Robertson London, 1905.

BAEDEKER, : Greece. Leipzig, 1909.

*BAIKIE, J. : The Sea-Kings of Crete. London, 1926.

BAKEWELL, C. : Source Book in Ancient Philosophy. N.Y., 1909.

BALL, W.W.R. : Short Account of the History of Mathematics. London. 1888.

BARON, S.W. : Social and Religious History of the Jews. 8v. N. Y., 1937.

BEBEL, A. : Woman under Socialism. N.Y., 1937.

BECKER, W.A. : Charicles. Tr. Metcalfe. London, 1886.

- BENSON, E. F. : *Life of Alcibiades*. N.Y., 1929.
- BENTWICH, N. : *Hellenism*. Phila., 1919.
- BERRY, A. : *Short History of Astronomy*. N.Y., 1909.
- BEVAN, E. R. : *House of Seleucus*. 2v. London, 1902.
- BEVAN, E.R., and SINGER, C., eds. : *The Legacy of Israel*. Oxford, 1927.
- BIBLE, THE
- BLAKENEY, J.A. : *Smaller Classical Dictionary*. Everyman Library.
- BOTSFORD, G.W. : *The Athenian Constitution* N.Y., 1893.
- BOTSFORD, G. W., and SIHLER, E. G. : *Hellenic Civilization*. N. Y., 1920.
- BRECCIA, E : *Alexandrea ad Aegyptum*. Bergamo, 1922.
- BRIFFAULT, R. : *The Mothers*. 3v. N.Y., 1927.
- BROWNE, H. : *Handbook of Homeric Study*. London, 1908.
- BURY, J. B. : *Ancient Greek Historians*. N.Y., 1909.
- *BURY, J. B. : *History of Greece*. London, 1931.
- CATHOUN, G.M. : *Business Life of Ancient Athens*. Chicago, 1926.
- CAMBRIDGE ANCIENT HISTORY (CAH) : Vols. I-III. N.Y., 1924f.
- CAPIES, W. : *University Life in Ancient Athens*. N.Y., 1922.
- CARPENTFR, E. : *Pagan and Christian Creeds*. N.Y., 1920.
- CARREL, A. : *Man the Unknown*. N.Y., 1935.
- CARROLL, N. : *Greek Women*. Phila., 1908.
- CHILDE, V.G. : *Dawn of European Civilization*, N.Y., 1925.
- CICERO : *De Finibus*. Loeb. Library.
- CICERO : *De Natura Deorum*. Loeb Library.
- CICERO : *De Re Publica*. Loeb Library.
- CICERO : *Tusculan Disputations*. Loeb Library.
- COOK, A.B. : *Zeus*. Cambridge Univ. Press, 1914.
- COTTERILL, H.B. : *History of Art*. 2v. N.Y., 1922.
- COULANGES, F. DE : *The Ancient City*. Boston, 1901.
- CURTIUS, E. : *Griechen Geschichte*. 3v. Berlin, 1887f.
- DAY, C. : *History of Commerce*. London, 1926.
- DEMOSTHENES : *On the Crown, etc.* Loeb Library.
- DEWEY, JOHN, etc. : *Studies in the History of Ideas*. N.Y., 1935.
- DIKINSON, G.I. : *The Greek View of Life*. N.Y., 1928.
- DIODORUS SICULUS : *Library of History*. 3v. Loeb Library.
- DIODORUS SICULUS *Historical Library*. 2v. London, 1814.

- *DIOGENES LAERTIUS : *Lives and Opinions of the Eminent Philosophers*. London, 1858.
- DRAPER, J. W. : *History of the Intellectual Development of Europe*. 2v. N.Y., 1876.
- DURÉEL, E. : *La Légende Socratique*. Bruxelles, 1922.
- DYER, T.H. : *Ancient Athens*. London, 1873.
- ELLIS, H. : *Studies in the Psychology of Sex*. 6v. Phila., 1911.
- ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA, 14th ed N.Y., 1929.
- EURIPIDES : *Electra*. Tr. G. Murray. Oxford, 1907.
- EURIPIDES : *Iphigenia in Tauris*. Tr. Murray. Oxford, 1900.
- *EURIPIDES : *Medea*. Tr. G. Murray. Oxford, 1912.
- EURIPIDES : *Text and tr. by A.S. Way*. 4v. Loeb Library.
- *EURIPIDES : *Trojan Women*. Tr. G. Murray. Oxford, 1914.
- EVANS, SIR M. : *The Palace of Minoe*. 4v. in 6. London, 1921f.
- FARNELL, L.R. : *Greece and Babylon*. Edinburgh, 1911.
- FERGUSON, W.M. : *Greek Imperialism*. Boston, 1913.
- FLICKINGER, R.C. : *The Greek Theatre*. Chicago, 1918.
- FRAZER, SIR J.O. : *Adonis, Attis, Osiris*. 1936.
- FRAZER J.O. : *The Dying God*. N.Y., 1935.
- FRAZER, SIR J.O. : *The Magic Art*. 2v. N.Y., 1936.
- FRAZER, J.O. : *The Scapegoat*. N.Y., 1935.
- FRAZER, SIR J.O. : *Spirits of the Corn and of the Wild*. 2v. N.Y., 1935.
- FRAZER, SIR J. O. : *Studies in Greek Scenery, Legend, and History*. London, 1931.
- FREEMAN, E.A. : *The Story of Sicily*. N.Y., 1892.
- GARDINER, E.N. : *Athletics of the Ancient World*. Oxford, 1930.
- GARDINER, PERCY : *New Chapters in Greek History*. N.Y. 1892
- GARDINER, PERCY : *Principles of Greek Art*. N.Y., 1914.
- GARDNER, A.E. : *Ancient Athens*. N.Y., 1902.
- GARDNER, E.A. : *Handbook of Greek Sculpture*. London, 1920.
- GARDNER, E.A. : *Six Greek Sculptors*. London, 1910.
- GARRISON, F.H. : *History of Medicine*. Phila., 1929.
- GIBBON, E. : *The Decline and Fall of the Roman Empire*. 6v. Everyman Library.
- GLOTZ, G. : *Aegean Civilization*. N.Y., 1925.
- (٦٧- قصة الحضارة ، ج ٣ ، مجلد ٢)

- GLOTZ, Ancient Greece at Work. N.Y., 1926.
 GLOTZ, G. : The Greek City. London, 1929.
 GLOVER, T.R. : Democracy in the Ancient World. Cambridge, Eng., 1927.
 GOETHE, J.W. VON : Poetical Works. N.Y., 1902.
 GOMME, J.W. : Population of Athens. Oxford, 1933.
 GRAETZ., A. : History of the Jews. 6v. Phila., 1891f.
 GREER ANTHOLOGY : Tr. Shane Leslie. N.Y., 1929.
 GREEK ANTHOLOGY : Tr. R.G. MacGregor. London, n.d.
 GREEK DRAMASO : Tr. E.B. Browning, etc. N.Y., 1912.
 GROTE, G. : Aristotle. 2v. London, 1872.
 GROTE, G. : History of Greece. 12v. Everyman Library.
 GROTE, G. : Plato and the Other Companions of Socrates. 3v. London 1875.
 HAGGARD, H.W. : Devils, Drugs, and Doctors. N.Y. 1929.
 HAIGH, A.E. : The Attic Theatre. Oxford, 1907.
 HALL, H.R. : Civilization of Greece in the Bronze Age. N.Y., 1927.
 HALL, M.P. : Encyclopedic Outline of Masonic, Hermetic, Qabbalistic, and
 Rosicrucian Symbolical Philosophy. San Francisco. 1928.
 HARRISON, J.E. : Prolegomena to the Study of Greek Religion. Cambridge,
 Eng., 1922.
 HARRISON, J.E. : Themis. Cambridge, Eng., 1927.
 HEATH, SIR T. : Aristarchus of Samos. Oxford, 1913.
 HEATH, SIR T. : History of Greek Mathematics. 2v. Oxford, 1921.
 HEITLAND, W.E. : Agricola : A Study of Agriculture and Rustic Life in
 the Greco-Roman World. Cambridge, Eng., 1921.
 HERACLEITUS ON THE UNIVERSE. Tr. W.H.S. Jones. Loeb. Library.
 HERODES (HERODAS), CERCIDAS, AND THE GREEK CHOLIAMAIC
 POETS. Loeb Library.
 *HERODOTUS : History. Tr. Rawlinson. 4v. London, 1862.
 HESIOD, CALLIMACHUS, and THEOGNIS : Works. London, 1856.
 HIMES, N.E. Medical History of Contraception. Baltimore. 1936.
 HIPPOCRATES : Works. 4v. Loeb Library.
 HOBHOUSE, L.T. Morals in Evolution N.Y., 1916.
 HOGARTH, D.O. : India and the East. Oxford, 1909.
 *HOMER : Iliad. Tr. W.C. Bryant. Boston, 1898.
 HOMER : Iliad. Text and tr. by A.T. Murray. 2v. Loeb Library.
 *HOMER Odyssey. Text and tr. by A.T. Murry. 2v. Loeb Library.

- ISOCRATES : Works. 2v. Loeb Library.
- JEWISH ENCYCLOPEDIA. N.Y., 1901.
- JONES, H.S. : Ancient Writers on Greek Sculpture. London, 1895.
- JONES, W.H.S. : Malaria and Greek History. Manchester, Eng., 1909.
- JOSEPHUS, F. : Works. 2v. Boston, 1811.
- JOURNAL of HELLENIC STUDIES. London, 1882f.
- KELLER, A.G. : Homeric Society. N.Y., 1902.
- KIRSTEIN, L. : Dance : A Short History N.Y., 1935.
- KÖHLER, C. : History of Costume. N.Y., 1928.
- LACROIX, P. : History of Prostitution. 2v. N.Y., 1931.
- LANGE, F.E. : History of Materialism. N.Y., 1926.
- LESSING, G.E. : Laocoön. London, 1874.
- LEWES, G.H. : Aristotle. A Chapter in the History of Science. London 1864.
- LINFORTH, I.M. : Solon the Athenian. Berkeley, Cal., 1919.
- LIPPERT, J. : Evolution of Culture. N.Y., 1931.
- LITCHFIELD, F. : Illustrated History of Furniture. Boston, 1922.
- *LIVINGSTON, R.W. : The Greek Genius. Oxford, 1924.
- LIVINGSTONE, R.W., ed. : The Legacy of Greece. Oxford, 1924.
- LIVY : History of Rome. 6v. Everyman Library.
- LOCY, W.A. : Growth of Biology. N.Y., 1925.
- LONGINUS : On the Sublime. Loeb Library.
- LUCIAN : Works. 4v. Oxford, 1905.
- *LUCRETIUS, E. De Rerum Natura. Loeb Library.
- LUDWIG, E. : Schifman. Boston, 1931.
- LYRA GRAECA : 3v. Loeb Library.
- MAHAFFY, J.P. : Empire of the Ptolemies. London, 1895.
- MAHAFFY, J.P. : Greek Life and Thought. London, 1887.
- MAHAFFY, J.P. : History of Classical Greek Literature. 4v. London, 1908.
- MAHAFFY, J.P. : Old Greek Education. N.Y., n.d.
- MAHAFFY, J.P. : Progress of Hellenism in Alexander's Empire. Chicago, 1906.
- *MAHAFFY, J.P. : Social Life in Greece. London, 1925.
- MAHAFFY, J.P. : What Have the Greeks Done for Modern Civilization? N.Y., 1909.

- MANSON, W.A** : History of the Art of Writing. N.Y., 1920.
- McCLEES, H.** : Daily Life of the Greeks and Romans. N.Y., 1928.
- McCRINDLE, J.W.** : Ancient India as Described by Megasthenes and Arrian
Calcutta, 1877.
- MENANDER** : Principal Fragments. Loeb Library.
- MEYER, E.** Geschichte des Altertums. 4v. Stuttgart, 1884f.
- MOMMSEN, T.** : History of Rome. 5v. London, 1901.
- MÜLLER, K.O.** : The Dorians. 2v. Oxford, 1880.
- MÜLLER-LYER, F.** : Evolution of Modern Marriage N.Y. 1930.
- MÜLLER-LYER, F.** : The Family. N.Y. 1931.
- MURRAY, A.S.** : History of Greek Sculpture. 2v. London. 1890.
- MURRAY, G.** : Aristophanes. N.Y. 1933.
- ***MURRAY, G.** : Euripides and His Age. N.Y. 1913.
- MURRAY, G.** : Five Stages of Greek Religion. Oxford, 1930
- ***MURRAY, G.** : History of Ancient Greek Literature. N.Y. 1927.
- MURRAY, G.** : Rise of the Greek Epic. Oxford. 1924.
- NAPLES MUSEUM.** Guide to the Archeological Collections. Naples. 1935.
- NIETZSCHE, F.** : Early Greek Philosophy. N.Y. 1911.
- NILSSON, M.** History of Greek Religion. Oxford. 1925.
- NORWOOD, R.** : The Greek Drama. N.Y. 1920.
- OLMSTEAD, A.** : History of Assyria. N.Y. 1923.
- OVID** : Heroides and Amores. Loeb Library.
- OVID** : Metamorphoses. Loeb Library.
- OWEN, J.** : Evenings with the Sceptics. 2v. London. 1881.
- ***OXFORD Book of Greek Verse in Translation.** Oxford. 1938.
- OXFORD History of Music** : Introductory Volume. Oxford. 1929.
- OXFORDER** Bach Deutscheng Dichtung Oxford. 1936.
- PATER, W.** : Plato and Platonism. London. 1910.
- PAUSANIAS** : Description of Greece. 2v. London. 1886.
- PFUHL, E.** : Masterpieces of Greek Drawing and Painting. London, 1926.
- PHILOSTRATUS** : Lives of the Sophists. Loeb Library.
- ***PIJOAN, J.** : History of Art. 3v. N.Y. n.d.
- PINDAR** : Odes. Loeb Library.
- PLATO** : Dialogues. Tr. Jowett. 4v. N.Y. n.d.

- PLATO : *Epistles*. Loeb Library.
- PLINY : *Natural History*. 6v. London, 1855.
- *PLUTARCH : *Lives*. 3v. Everyman Library.
- PLUTARCH : *Moralia*. Vols. I-III. Loeb Library.
- PÖHLMANN, R. VON : *Geschichte der Sozialen Frage und des Sozialismus in der antiken Welt*. 2v. München, 1925.
- POLYRIUS : *Histories*. 6v. Loeb Library.
- PRATT, W.S. : *History of Music*. N.Y. 1927.
- QUINTILIAN : *Institutio Oratoria*. 4v. Loeb Library.
- RAMSAY, SIR WM. : *Hellenic Elements in Greek Civilization*. New Haven, 1928.
- RANDALL-MACIVER, D. : *Greek Cities in Italy and Sicily*. Oxford, 1931.
- REINACH, S. : *Orpheus : History of Religions*. N.Y. 1930.
- RENAN, E. : *History of the People of Israel*. 5v. N.Y., 1888.
- RICHTER, G. : *Handbook of the Classical Collection*. Metropolitan Museum of Art, N.Y. 1922.
- RICKARD, T.A. : *Man and Metals*. 2v. N.Y. 1932.
- RIDDER, R., and DEONNA, W. : *Art in Greece*. N.Y. 1927.
- RIDGEWAY, SIR WM. : *Early Age of Greece*. Cambridge, Eng. 1901.
- ROBINSON, D.M. : *Sappho and Her Influence*. Boston, 1924.
- RODENWALDT, G. : *Die Kunst der Antike*. Berlin. 1927.
- ROHDE, E. : *Psyche*. N.Y. 1925.
- ROSTOVTZEEF, M. : *History of the Ancient World*. 2v. Oxford, 1930.
- ROSTOVTZEEF, M. : *Social and Economic History of the Roman Empire*. Oxford. 1926.
- RUSSELL, B. : *Principles of Mathematics*. 2v. London, 1903.
- *SACHA, A.L. : *History of the Jews*. N.Y. 1932.
- SARTON, G. : *Introduction to the History of Science*. Baltimore, 1930.
- SCHLEGEL, A.W. : *Lectures on Dramatic Art and Literature*. London, 1846.
- SCHLIEMANN, H. : *Ilios*. N.Y. 1881.
- SCHLIEMANN, H. : *Mycenae*. N.Y., 1878.
- SEDGWICK, W.T., and TYLER, H.W. : *Short History of Science*. N.Y. 1927.
- SEMPLE, E.C. : *Geography of the Mediterranean Region*. N.Y. 1931.
- SEXTI EMPIRICI *Opera Graece et Latine*. 2v. Leipzig, 1840.
- SEYMOUR, T.D. : *Life in the Homeric Age*. N.Y. 1907.

- SHOTWELL, J.T.** : Introduction to the History of History. N.Y. 1936.
- SINGER, C.E.** : Studies in the History and Method of Science. Vol. II. Oxford, 1921.
- SMITH, O.E.** : Human History. N.Y. 1929.
- MITH, WM.** : Dictionary of Greek and Roman Antiquities. Boston, 1859.
- *SOPHOCLES** : Tragedies. Tr. Plumptre. London, 1867.
- SOPHOCLES** : Plays. 2v. Loeb Library.
- SPENCER, H.** : First Principles. N.Y. 1910.
- SPENGLER, O.** : Decline of the West. 2v. N.Y. 1926f.
- SPINOZA, B.** : Ethics and De Emendatione Intellectus. Everyman Library.
- STABO** : Geography. 8v. Loeb Library.
- SUMNER, W.G.** : Folkways. Boston, 1906.
- SUMNER, W.G., and KELLER, A.G.** : The Science of Society. 3v. New Haven, 1928.
- SWINBURNE, A.C.** : Poems. Phila., n.d.
- *SYMONDS, J.A.** : Studies of the Greek Poets. London, 1920.
- TAINE, H.** : Lectures on Art. N.Y. 1876.
- TARN, W.W.** : Hellenistic Civilization. London, 1927.
- TAYLOR, A.E.** : Plato. N.Y., 1936.
- THEOCRITUS, BION, and MQSCHUS** : Poems. London, 1853.
- THEOPHRASTUS** : Characters. Loeb Library.
- THOMPSON, SIR E. M.** : Introduction to Greek and Latin Paleography, Oxford, 1912.
- *THUCYDIDES** : History of the Peloponnesian War. Everyman Library.
- TOUTAIN, J.** : Economic Life of the Ancient World. N.Y., 1980.
- TUCKER, T.G.** : Life in Ancient Athens. Chautauqua, N.Y., 1917.
- TYLOR, E.B.** : Anthropology. N.Y. 1906.
- UEBERWEG, F.** : History of Philosophy. 2v. N.Y., 1871.
- USHER, A.P.** : Aistory of Mechanical Inventions. N.Y., 1929.
- VERRALL, A.W.** : Euripides the Rationalist. Cambridge, Eng., 1913.
- VINOGRADOFF, SIR P.** : Outlines of Historical Jurisprudence. 2v. Oxford, 1922.
- VIRGIL** : Works. 2v. Loeb Library.
- VITRUVIUS** : On Architecture. 2v. Loeb Library.
- VOLTAIRE, F.M.A. DE** : Works. 22v. N.Y., 1927.

- WARD, C.O. : The Ancient Lowly. 2v. Chicago. 1907.
- WARREN, H.L. : Foundations of Classic Architecture. N.Y., 1919.
- WAXMAN, M. : History of Jewish Literature. 3v. N.Y., 1930.
- *WEIGALL, A. : Alexander the Great. N.Y., 1933.
- WEIGALL, A. : Sappho of Lesbos. N.Y., 1932.
- WESTERMARCK, E. : History of Human Marriage. 3v. London, 1921.
- WESTERMARCK, E. : Origin and Development of the Moral Ideas. 2v. London, 1917f.
- WHEWELL, W.M. : History of the Inductive Sciences. 2v. N.Y., 1859.
- WHIBLEY, L. : Companion to Greek Studies. Cambridge, Eng., 1916.
- *WILLIAMS, H.S. : History of Science, 5v. N.Y., 1909.
- WINCKELMANN, J. : History of Ancient Art. 4v. in 2. Boston. 1380.
- WRIGHT, F.A. : History of Later Greek Literature. N.Y., 1932.
- XENOPHON : Works. Loeb Library.
- XENOPHON : Memorabilia., Phila 1899.
- XENOPHON : Minor Works. London, 1914.
- ZEITLIN, S. : History of the Second Jewish Commonwealth. 1933.
- ZELLER, E. : Socrates and the Socratic Schools. London, 1877.
- ZELLER, E. : Stoics, Epicureans, and Sceptics. London, 1870.
- ZIMMERN, A. : The Greek Commonwealth. Oxford, 1924.

Notes

ذكرنا اسم الكتاب كاملاً في المرة الأولى وحدها ، ثم ذكرناه بعدئذ مختصراً وفي وسع القارئ أن يعرف اسمه الكامل بالرجوع إلى ثبت المراجع السابق . والأرقام الكبيرة الرومانية تدل إذا ذكرت إلى جانب المؤلفات الحديثة على أرقام المجلدات ، أما الأرقام الهندسية فتدل على رقم الصفحة . وعند ذكر النصوص القديمة تدل الأرقام الرومانية الصغيرة على رقم « الكتاب » أو « المقالة » أما الأرقام الهندية فتدل على أبواب الكتاب أو على الآية في الكتب المقدسة . فإذا كانت الأقسام طويلة فإذا تدل على فصول الكتاب بإثبات رقم هندي بعد شولة .

CHAPTER I

1. Plato, *Works*, Jowett tr.; *Phaedo*, 109.
2. Semple, Ellen, *Geography of the Mediterranean Region*, N.Y., 1931, 99, 507.
3. Evans, Sir Arthur, *Palace of Minos*, London, 1921f, I, 20.
4. Homer, *Odyssey*, tr. A.T. Murray, Loeb Classical Library, London, 1927, xix, 172-7.
5. Aristotle, *Politics*, 1271b.
6. Ludwig, Emil, *Schliemann*, Boston 1931, 264-5; Glotz, G., *Aegean Civilization*, N.Y., 1925, 14; *Cambredg Ancient History* (hereafter referred to as CAH), N.Y., 1924f, I, 1-3.
7. Evans, I, 18; Hall, H.R., *Civilization of Greece in the Bronze Age*, N.Y., 1927; 27; Glotz, 30-1, 67, 348; CAH, I, 58p-90.
8. Evans, I, 26.
9. Ibid., I, 27; Glotz, 38, 40; CAH, I, 597-8.
10. Glotz, 60-4; Baikie, Jas., *Sep-kings of Crete*, London, 1928, 212-3.
11. Hall, 27; Glotz, 68-73.
12. Köhler, Carl, *History of Costume*, N.Y., 1923, frontispiece; Evans, III, 49.
13. CAH, I, 596; Glotz, 65-6, 75-8, 811, and fig. 6.
14. Cf. Evans, III, 227.
19. Glotz, 147-8; CAH, II, 487.
20. Thucydides, *History of the Peloponnesian War*, Evryman Library, I, 1.4; cf. Herodotus, *History*, tr. Rawlinson, London, 1862, vii, 170, and Diodorus Siculus, *Library of History*, v, 78.
21. Strabo, *Geography*, Loeb, Library, x, 4.8; Glotz, 149; Evans, I, 2, IV, p. xxii; (AH, II 442; Homer, *Odyssey*, xi) 568-70.
22. Ibid., iii, 296.
23. Glotz, 139-42; 173-4; Baikie, 120, 129/31.
24. Evans, I, facing 305, III, 13f; CAH, I, 591, 605, II, 432; Glotz, 106-9, 163-4; Baikie, 97.
25. Evans, I, facing 472; Glotz, 169, 70, 298.
26. Evans, III, 218; Hall, 16; Glotz, 294 6, 312-3.
27. Evans, I, 15.
28. Ibid., 151; Glotz, 229, 237-41, 248-9, 256; Farnill, L.R., *Greece and Babylon*, Edinburgh, 1911, 228; Nilsson, M.P., *History of Greek Religion*, Oxford, 1925, 13, questions any worship of the bull in Crete.
29. Glotz, 146, 244-7; Evans, IV 468-9.
30. Ibid.; Glotz, 252-4.
31. Ibid., 231-8, 265-70, 273-4; Farnell, 125; Reinach, S., *Orp eue*, N.Y., 1930, 83; Nilsson, 13, 16; CAH, II, 444-5.

32. Mason, W. A., *History of the Art of Writing*, N.Y., 1920, 815-28, 381; Evans, I, 16, 124f. IV, xx, 959; Glotz, 150, 196, 371-7, 381-7; *Encyclopaedia Britannica*, 14th ed., I, 213; CAH, II, 437; Whibley, L., *Companion to Greek Studies*, Cambridge U.P., 1916-26
33. Glotz, 166, 388; Baikie, 238.
34. Homer, *Iliad*, xviii, 690.
35. Glotz, 174, 821.
36. Evans, I, 342-4; Evans in Baikie, 71; Reinach, 82; Pliny, *Natural History*, London, 1855, xxxvi, 19; Glotz, 108.
37. Hall, 102.
38. Evans, I, 142, III, 252-3; Burrows, R.M., in Baikie, 99, and Semple, 570.
39. Evans, III, 116-22.
40. In Baikie, 129.
- 40a. Evans. Sir Arthur, "The Minoan and Mycenaean Element in Hellenic Life", *Journal of Hellenic Studies*, XXXII (1912), 277f; Hall, 27.
41. Evans, *Palace of Minos*, I, 17.
42. Ibid., 16-7; Smith, *Human History*, 378-90; Hall, 35; Glotz, 191-3, 209; Speng'er, *Qswald, Decline of the West*, N.Y., 1926 .8, II, 88.
43. Strabo, xiv, 2.27; Evans, "Minoan and Mycenaean Element," 288.
44. Herodotus, vii, 170 : CAH, II, 475; Smith, G.E., 398.
45. Baedeker, K., *Greece*, Leipzig, 1909, 417.
46. CAH, I, 442-3.
47. Himes, Norman, *Medical History of Contraception*, Baltimore, 1936, 187.
48. Grote, O., *History of Greece*, Everyman Library, I, 190; Grazer, Sir Jas., *Dying God*, N.Y., 1935, 71
49. Diodorus, iv, 76.
50. Ibid., 79 Qvid, *Metamorphoses*, Loeb Library, viii, 181f.
51. Pausanias, *Description of Greece* London, 1886, ix, 40.

52. Piatrach, *Lives*, "Thesaur"; Homer, *Odyssey*, xi, 821-5.
53. E.g., Polybius, *Histories*, Loeb Library, vi, 45.
54. Strabo, x, 4.16-22.

CHAPTER II

1. Schliemann, H., *Ilios*, N.Y. 1881, 3.
2. Ibid, 9.
3. Ibid., 17.
4. Ludwig, p. ix.
5. Schliemann, 14-15.
6. Ludwig, 137.
7. Ibid., 182-8, 183, 284.
8. Schliemann, 26.
9. Ibid., 41; Ludwig, 139, 165
10. Schliemann, H., *Messenae*, N.Y., 1878, 101-2.
11. Homer, *Iliad*, ii, 559.
12. Ludwig, 284.
13. Ibid., 256-7.
14. Pausanias, ii, 25.
15. Warren, H L., *Foundations of Classic Architecture*, N. Y., 1919 124-5; Pausanias, ii, 25.
16. Ibid., ii, 15.
17. *Iliad*, ii, 59, vii, 180; *Odyssey*, iii, 805.
18. Pausanias, ii, 16.
19. Schliemann, *Mycenae*, 298f; CAH II, 462-3; Glotz, 46; *Enc. Brit.*, XVI, 38.
20. Hall, I; Nilsson, II; Glotz, 81-2; Whibley, 27.
- 20a. Murray, A.S., *History of Greek Sculpture*, London, 1890, I, 61.
21. Herodotus, ii, 53, 57.
22. Pausanias vii, 2-8; Hall, ii.
23. Ibid.; Glotz, 47; Evans, I, 28; CAH, I, 608.
24. Lippert, J., *Evaluation of Culture*, N.Y., 1931, 171.
25. Glotz, 47-8.
26. These frescoes are all in the National Museum at Athens. They are reproduced in Rodenwoldt, G., *Kunst der Antike*, Berlin, 1927, 143f.
27. Schliemann, *Ilios*, 281-8.

29. National Museum, Athens; Evans III, 121; Rodenwaldt, 148-9.
 30. Nat. Mus., Athens; Rodenwaldt, 152.
 31. Evans, III, 188; Glotz, 388.
 32. Gardiner, P., *New Chapters in Greek History*, N.Y., 1892, 178; Hyans, "Minoan and Mycenaean Element," 28; Mason, 327-8; Farnell, 97-8.
 33. Schliemann, *Ilios*, 587.
 34. Ludwig, 280. He was later financed by Kaiser Wilhelm II.
 35. CAH, II, 489-90.
 36. Schliemann, *Ilios* 453-505; *Enc. Brit.*, XXII, 502-3.
 37. CAH, II, 488; Schliemann, *Ilios*, 182.
 38. Bury, J.B., *History of Greece*. London, 1931, 46; CAH, II, 487.
 39. *Iliad*, xx, 230f. |
 40. Herodotus, II, 118; Strabo, xlii, 1.48.
 41. Murray, O., *Rise of the Greek Epic*, Oxford, 1924, 49.
 42. Ramsay, Sir—, *Asiatic Elements in Greek Civilization*, Yale U.P., 1928, 109.
 43. Bérard, M., in Semple, 699; Murray, *Epic*, 88.
 44. Schliemann, *Ilios*, 240, 253; Bury, 48; Glotz, 197, 217.
- CHAPTER III
1. CAH, II, 276-83; Glotz, 90.
 2. *Iliad*, II, 681.
 3. Ridgeway, Sir—m., *Early Age of Greece*, Cambridge U.P., 1901, 88-90, 337, 680, 682-4, etc.
 4. CAH, II, 478; Hall, 248, 289.
 5. Bury, 6; Glotz, 386-7.
 6. Nilsson, 61.
 7. *Odyssey*, xi, 588f; Diodorus, iv.77.
 8. Thucydides, I, 1.3, II, 6.15.
 9. Diodorus, iv, 9.
 10. One form of the legend tells how Heracles triumphed over fifty virgins in a single night.—Athenaeus, *Deipnosophists. Or Banquet of the Learned*, London, 1854, xiii, 4; Pausanias, ix, 27.
 11. Diodorus, iv, 85, 53.
 12. *Ibid.*, iv, 57-8.
 13. *Ibid.* iv, 41-8.
 14. CAH, II, 475, III, 662.
 15. *Iliad*, II, 683, III, 76.
 16. *Ibid.*, xxiii, 198.
 17. xxiv, 228.
 18. xxix, 186.
 19. xviii, 541, xxi, 257; Keller, AG., *Homeric Society*, N.Y., 1902, 78.
 20. *Iliad*, v, 87-9.
 21. Glotz, O., *Ancient Greece at Work*, N.Y., 1926, 36.
 22. *Odyssey*, xx, 72.
 23. Symour, T.D., *Life in the Homeric Age*, N.Y., 1907, 234, 209-10.
 24. Glotz, *Ancient Greece*, 88; Ridgeway in Botsford, G.—, *Athenian Constitution*, N.Y., 1895, 82.
 25. *Ibid.*, 85; Pöhlmann, R. von, *Geschichte der sozialen Frage und des Sozialismus in der antiken Welt*, München, 1925, 6, I, 29; Browne, H., *Handbook of Homeric Study*; London, 1908, 209; Seymour 236, 273; Bury 64.
 26. *Iliad*, xxiii, 826.
 27. *Ibid.*, xxiii, 341.
 28. Glotz, *Ancient Greece*, 45.
 29. *Ibid.*, 42; Calhoun, G.M., *Business Life of Ancient Athens*, Chicago, 1926, 13.
 30. *Odyssey*, xv, 82f.
 31. *Ibid.*, vi, 115.
 32. xiv, 202.
 33. Aeschylus, *Agamemnon*, 281f.
 34. *Iliad*, xix, 247.
 35. *Ibid.*, ii, 210f.
 36. *Odyssey*, xxi, 224-5.
 37. *Ibid.*, iv, 184.
 38. *Iliad*, ix, 74.
 39. *Odyssey*, vi, 207.
 40. *Ibid.*, iv, 20; 267-8.
 41. xv, 82f.
 42. viii, 870f.
 43. Gardiner, E.N., *Athletics of the Ancient World*, Oxford, 1930, 27; Mahaffy, J.P., *Social Life in Greece*. N.Y., 1925, 51.

44. Gardiner, E.N., 21-3; *Iliad* xxiii, 168f.
45. Thucydides, i, 1.5.
46. *Odyssey*, viii, 168f.
47. *Ibid.*, ix, 39f.
48. *Iliad*, x, 383.
49. *Odyssey*, xiii, 287-95.
50. *Ibid.*, ii, 294, iv' 690, xiv, 138-141
51. *Ibid.*, i, 87, viii, 14; *Iliad*, ii, 169
52. *Odyssey*, i, 57-9; *Iliad*, xx, 18
53. *Odyssey*, xvii, 280
54. Athenaeus, xiii, 2; Harrison, Jane, *Prolegomena to the study of Greek Religion*, Cambridge U.P., 1922, 260-2.
55. Athenaeus, xiii, 4
56. *Iliad*, xviii, 693
57. *Ibid.*, xviii, 490
58. vi, 169
59. *Odyssey*, i, 153, 325, viii, 48-64, xxi, 406-8
60. *Ibid.*, xxi, 46
61. *Iliad*, vi, 318-7
62. *Ibid.*, i, 249
63. iii, 222
64. Murray, *Epic*, 129
65. Sumner, —O., and Keller, A.G., *Science of Society*, New Haven, 1928, i, 658
66. CAH, II, 478; Murray *Epic*, 174
67. Whibley, 30
68. Pliny, xxxvi, 64
69. Grote, i, 77
70. Plutarch, *De Stoicorum Repugnantis*, 82, in Bakewell, C.M., *Source Book in Ancient Philosophy*, N.Y., 1909, 278
71. *Iliad*, vi, 406
72. *Ibid.*, viii, 542
73. CAH, III, 670
74. *Odyssey*, iv, 621
75. Butcher and Lang, *Odyssey*, N. Y., 1927, introd., xxiv
77. Seymour, 78
78. *Odyssey*, v, 151-8
79. *Ibid.*, vi, 239
80. Nilsson, 4-5
81. *Odydsey*, xix, 177
82. Thucydides, i, 1.2

83. Herodotus, i, 68
84. Evans, IV, 477, 959
85. Pausanias, iii, 2.
86. Ridder, A. de, and Deonna, —., *Art in Greece*, N.Y., 1927, 167

CHAPTER IV

1. Plato, *Phaedrus*, 244; Frazer, *Magic Art*, N.Y., 1935, II, 858; Reinach, *Orpheus*, 98; CAH, II, 629
2. Grote, IV, 196
3. Mahaffy, J.P., *What Have the Greeks Done for Civilization?* N.Y., 1909, II
4. Plato, *Timaeus*, 22-3
5. Herodotus, ii, 143
6. *Ibid.*, ii, 53, 81, 123; Diodorus, i, 96; Harrison, *Prolegomena*, 574-5
7. Herodotus, ii, 109; Strabo, xvii, 8; Diodorus, i, 69; Smith, O.E., 417-8; Rider, 7, 341.
8. *Ibid.*; Smith, 418-22; Warren, *Foundations*, 193-4
9. Glotz, *Ancient Greece*, 128; Day, C., *History of Commerce*, London, 1926, 14
10. Olmstead, A. T., *History of Assyria*, N.Y., 1923, 537
11. Herodotus, ii, 109
12. Grote, IV, 124
13. Heath, Sir Thos., *History of Greek Mathematics*, Oxford, 1921 I, 44, II, 21; CAH, IV, 589
14. Ridder, 240; Anderson, W. J. and Spiers, R.P., *Architecture of Greece and Rome*, London, 1902 49; Gardner, E. A., *Handbo Greek Sculpture* London, 1920, 51-2
15. Cook, A. B., *Zeus*, Cambridge U.P. 1914, 777.
16. Strabo, viii, 6; CAH, III, 540-2; Grote, III, 98
17. Herodotus, iii, 131
18. Gardner, E. A., *Handbook*, 365.
19. Pausanias, iv, 6-14
20. Strabo, vii, 5.4

21. Müller, K.O., in Rawlinson's Herodotus vii, 234n. The calculation is for 480 B.C., Meyer, Ed., *Geschichte des Alterthums*, Stuttgart, 1884f. III, §§ 263-4, gives the population of Loconia ca. 470 as 12,000 Spartans (4000 adult males), 80,000 Perioeci, and 190,000 Helots.
22. CAH, V, 7.
23. Plutarch, *Spartan Institutions*, in *Lyra Graeca*, London, 1928, III, 287; Mahaffy, *Social Life*, 45; Cicero, in Cotterill, H.B., *History of Art*, N.Y., n.d., I, 61
24. Grote, IV, 264
25. *Greek Anthology*, ix, 488, in *Lyra Graeca*, I, 29
26. Grote, III, 195; Murray, Sir O., *History of Ancient Greek Literature*, N.Y., 1927, 80
27. In Ridder, 108
28. Grote, III, 195
29. Mahaffy, J.P., *History of Classical Greek Literature*, London, 1908, I, 189; Sacroix, Paul, *History of Prostitution*, N.Y., 1981, I, 149-50
30. Alcmæon, Frag. 36 in *Lyra Graeca*, I, 77
31. *Das Oxforder Buch Deutschen Dichtung*, Oxford, 1936, 117
32. Goethe, J. W. von, *Poetical Works*, W.K. Cobb, N.Y., 1902, 61.
33. Glover, T.R., *Democracy in the Ancient World*, Cambridge U.P. 1927, 84
34. Herodotus, I, 65
35. Aristotle, *Politics*, 1271b
36. Plutarch, "Lycurgus"
37. Ibid
38. Ibid.; Polybius, vi, 48
39. Thucydides, i, 6
40. E.g., Polybius, vi, 10
41. Plutarch, "Lycurgus"
42. Olotz, *Ancient Greece*, 88
43. Coulanges, Fustel de, *Ancient City*, Boston, 1901, 460
44. Plutarch, l.c.
45. Ibid., Grote, III, 148
46. Thucydides, iv, 14
47. Coulanges, 294; Olotz, G., *Greek City*, London, 1929, 300; Carroll, M., *Greek Women*, Phila., 1908, 136
48. Mahaffy, J. P., *Old Greek Education*. N.Y., n.d., 10
49. Hesiod, Callimachus, and Theognis, *Works*, tr. Banks and Frere, London, 1856, 441n.
50. Plutarch, l.c.; Grote, III, 157; Müller-Lyer, F., *Family*, N.Y., 1931, 45
51. Thucydides, i, 3
52. Nilsson, 94
53. Mahaffy, *Greek Education* 46
54. Plutarch, "Demetrius."
55. Xenophon, *Anabasis*, Loeb Library, iv, 6.15
56. Symonds, J.A., *Greek Poets*, London, 1920, 159
57. Becker, —, *Charicles*, London, 1886, 246, 297
58. Carroll, 138-40; Weigall, A., *Sappho of Lesbos*, N.Y., 1932, 101
59. Plutarch, "Lycurgus"; Lippert, 301
60. Athenæus, xiii, 2
61. — Hibley, 618
62. Grote, III, 155-6; Sumner, —, G., *Folk-ways*, Boston, 1906, 351
63. Athenæus, xiii, 2
64. Plutarch, "Numa and Lycurgus Compared."
65. Aristotle, *Politics*, 1270a; Grote, III, 158-7; Briffault, R., *Mothers*, N.Y., I, 899
66. Plutarch. "Lycurgus"; Olotz, *Ancient Greece*, 89
67. Athenæus, xii, 74
68. Plutarch, l.c.
69. Grote, III, 131, IX, 298; Rawlinson's Herodotus, iii, 148
71. Grote, III, 182, 158
72. Plutarch, "Pelopidas."
73. E.g., Herodotus, I, 82
74. Ibid., vii, 104

75. Xenophon, "Constitution of the Lacedaemonians," in *Minor Works*, London, 1914, i, 1.
76. Pausanias, v, 1.
77. *Ibid.*, vii, 21
78. Frazer, Sir J., *Studies in Greek Scenery, Legend, and History*, London, 1931, 224-5
79. Pausanias, ii, 1; Oltz, *Ancient Greece*, 116
80. Strabo, viii, 6.21
81. *Iliad*, ii, 570
82. Aristotle (?), *Economics*, Loeb Library ii, 2
83. Aristotle, *Politics*, 1315b
84. *Enc. Brit.*, XVI, 6:6. Others attribute the first Corinthian coinage to Cypseus; cf. CAH, III, 552
85. Oltz, *Greek City*, 112, *Ancient Greece*, 86; —elgall, *Sappho*, 46
86. Plutarch, *Moralia*, Loeb Library, 147D
87. Herodotus, iii, 50-3; Diogenes Laertius, *Lives and Opinions of the Eminent Philosophers*, London, 1853, "Periander."
88. Aristophanes, *The Eleven Comedies*, N.Y. 1908, *Frogs*, 138; Lacroix, I, 110
89. Pinard, *Odes*, Loeb Library, Frag. 129
90. Strabo, viii, 6.20
91. Athenaeus, xiii, 32
92. *Ibid.*, 38
93. St. Paul, I Cor. vi, 15-18
94. Semple, 669
95. Pausanias, vi, 17-19; Litchfield, F., *History of Furniture*, Boston, 1923, 13
96. CAH, III, 554
97. Oltz, *Greek City*, 113
98. Grote, III, 264-5
99. Theognis, 237, in Dickinson, G.L., *Greek View of Life* N.Y., 1928, 186
100. Theognis in Hesiod, Callimachus and Theognis, *Works*, 444-5
101. *Ibid.*, II, 378f.
102. *Ibid.*, II, 349f.
103. Symonds, 161
104. Botsford, G. —, and Sihler, E.O., *Hellenic Civilization*, N.Y., 1920, 198-9; Coulanges, 369
105. Symonds, 162
106. Theognis in Hesiod, etc., 442
107. *Ibid.*, 470-1, 447-8, 489-90
108. 479-81
109. 477, 491-2
110. 454-5
111. Ringeway, 31
112. Calhoun, 30-1; Semple, 669
113. Pausanias, ii, 26
114. Pindar, Pythian iii, 47-58
115. Gardner, E.A., *Ancient Athens*, N.Y., 1902, 431

CHAPTER V

1. Stabo, viii, 6 21; ix, 2.26
2. Pausanias, ix, 31
3. Mahaffy, *Greek Literature* I, 117
4. *Enc Brit.*, XI, 529
5. Hesiod, *Works and Days*, 640
6. *Ibid.*, 655
7. Gardiner, E.N., *Athletics*, 30
8. Pausanias, ix, 31; cf. Mahaffy, *Greek Literature*, I, 126; CAH, IV, 474; Grote, I, 12
9. Hesiod, *Theogony*, 1-6
10. 120f
11. Nilsson, 185-6
12. *Theogony*, 166f
13. *Ibid.*, 736f
14. *Works and Days*, 265
15. *Ibid.*, 286f
16. 504f
17. 54f
18. *Theogony*, 586f
19. *Works and Days* 696f
20. *Ibid.*, 109f
21. Mahaffy, *Social Life*, 72
22. Mahaffy, *Greek Literature*, 54
23. Diodorus, xvi, 28; Frazer, *Stoics*, 374-5
24. Pope, A., *Essay on Man*
25. Bury, 95; CAH, III, 619. Others (Murray, *Epic*, 43, and *Enc. Brit.*, XII, 575) derive the Orall from Epirus

26. Cicero, *De Fato*, 7.
27. Baedeker, xxvii; Zimmern, A., *Greek Commonwealth*, Oxford;
28. Hippocrates, *Works*, Loeb Library, In introductory Essay I to Vol. II, by W. H. S. Jones; cf Jones, W. H. S., *Malaria and Greek History*, Manchester U.P., 1909.
29. Isocrates, *Works*, Loeb Library, *Panegyricus*, 24
30. Ridder, 122
31. Grote, III, 270-4; Vinogradoff, Paul, *Outlines of Historical Jurisprudence*, Oxford, 1922, II, 85-8
32. Frazer, *Studies*, 58-9
33. Aristophanes, I, 196, editor's note.
34. Baedeker, 104
35. CAH, III, 579-80
36. Aristotle, *Constitution of Athens*, London, 1891, sect. 57; Grote, III, 290; Coulanges, 331
37. Meyer, Ed., in Zimmern, 396
38. Aristotle, *Constitution*, 2 says that these "sixth-shares" paid one-sixth of their product to the owner, and Plutarch ("Solon") follows him; but recent scholarship inclines to believe that the sixth part was the amount kept, not paid. Cf. Bury, 174; Glotz, *Greek City*, 102.
39. Botsford, *Athenian Constitution*, 141.
40. Aristotle, *Constitution*, 2.
41. Glotz, *Ancient Greece*, 61, 80, *Greek City*, 102
42. Glotz, *Ancient Greece*, 71
43. CAH, IV, 83
44. Ibid
45. Grote, III, 293-4; Coulanges, 418
46. Plutarch, "Solon."
47. Botsford, *Constitution*, 143
48. Pöhlmann, 158; Glotz, *Ancient Greece*, 71.
49. Glotz, *Greek City*, 119
50. Plutarch, *Amatorius*, 751c, in Linforth, I.M., *Solon the Athenian*, Berkeley, Cal., 1919, 156-7
51. Diog. L., "Solon," ii.
52. Plutarch, "Solon."
53. Diog. L., "Solon," ix.
54. Aristotle, *Constitution*, 5; Grote, III, 313; Botsford, 158
55. Aristotle, 6, 12
56. CAH, IV, 38.
57. Aristotle, 6
58. Plutarch, "Solon"
59. Grote, III, 319
60. Aristotle, 10
61. Plutarch, I c.
62. Grote, III, 316; Mahaffy, *What Have the Greeks Done for Civilization?*, 186
63. CAH, IV, 134; Bury, 183
64. Plutarch, I c.
65. Aristotle, 12; Grote, III, 331-2.
66. Plutarch, I c.
67. Ibid., Aristotle, 9
68. Coulanges, 420; CAH, IV, 42; Grote, II, 350
69. Plutarch, I c.
70. Diog. L., "Solon," vii
71. Athenaeus, xiii, 25; Lacroix, I, 68-70; Bebel, A., *Woman under Socialism*, N.Y., 1928, 85
72. Plutarch, I c.; Grote, III, 351; Tucker, T.G., *Life in Ancient Athens*, Chautauqua, N.Y., 1917, 159
73. Plutarch
74. Ibid
75. Diog. L., "Solon," xvi
76. Grote, III, 344
77. Diog. L., I c.
78. *Enc. Brit.*, XX, 965
79. Herodotus, i, 29
80. Plato, *Amatores*, 133, in Linforth, 130
81. Herodotus, I, 30
82. Plutarch, I c.
83. Diog. L., "Solon," iii
84. Diodorus, ix, 20
85. Herodotus, I, 60; Athenaeus, xiii, 89
86. Aristotle, *Constitution*, 16
87. Glotz, *Greek City*, 121
88. Calhoun, 29
89. Aristotle, *Politics*, 1310a

90. Thucydides, vi, 19.
91. Athenaeus, xiii, 70; Lacroix, I, 153
92. Aristotle, *Politics* 1300b

CHAPTER VI

1. Pater, W., *Plato and Platonism*, London, 1910, 246.
2. Thucydides, i, 1.
3. CAH. Strabo, x, 5.6; Plutarch, *Moralia* Loeb Library, 249D.
5. *Lyra Graeca* II, 639
6. Aristophanes, *Peace*, 695
7. Cicero, *De Oratore*, ii, 86, in *Lyra Graeca*, II, 306
8. *Lyra Graeca*, II, 257
9. Ibid., III, 297, 339; tr. J. A. Symonds, *Greek Poets*, 155, 167
10. Cicero, *De Natura Deorum*, Loeb Library, i, 22
11. Thucydides, iii, 109
12. Giotz, *Ancient Greece*, 113
13. Botsford and Sihler, 188
14. Carroll, 99
15. CAH, IV, 483
16. Symonds, 169
17. Herodotus, iii, 57
18. Ovid, *Metamorphoses*, Loeb Library, x, 243
19. Herodotus, I, 143
20. Ibid., I, 146
21. Ibid., I, 170; Diog. L., "Tales."
22. Aristotle, *Poetics*, Loeb Library, 1259a
23. Diog. L., "Thales," III-viii; Plutarch, "Solon."
24. Heath, *Greek Mathematics*, I, 130; Leberweg, F., *History of Philosophy*, N.Y., 1871, I, 34-5
Heath, I, 187; Herodotus, i, 74
26. Aristotle, *Metaphysics*, tr. M' Mahon, London, 1857, I, 3
27. Ibid
28. Diog. L., "Tales," III
29. Ibid., "Thales," viii
30. Ibid
31. Ibid., "Thales." xii
32. Strabo, xiv, 4.7
33. Spencer, *First Principles of a New System of Philosophy*, N.Y., 1910, 367.
34. Bakewell, 5
35. Heath, II, 38; Grote, V, 94
36. Bakewell, 6.
37. Aristotle, *Metaphysics*, i, 3
Bakewell, 7; CAH IV, 554
38. Athenaeus, xii, 26xiii, 29, xiv 20
39. Ibid, xii, 26
40. Diog. L., "Bias," i-iv
41. CAH, IV, 92-3
42. Herodotus, ii, 184
43. Plutarch, *Moralia*, 16C
44. Leslie, Shane, *Greew Anthology*, N.Y., 1929, x, 128
45. Pfuhl, Ernst, *Masterpieces of Greek Drawing and Painting*, London, 1926 Fig. 79
46. Sarton, Geo., *Introduction to the History of Science*, Baltimore, 1930, I, 76
47. Pausanias, viii, 14; Giotz, *Ancient Greece*, 182; Jones, H. Stuart, *Ancient Writings on Greek Sculpture*, London, 1896, 24-5
48. Ridder, 174
49. Pliny, xxxv, 46
50. Ibid., xxxvi, 21
51. Athenaeus, xii, 29
52. Carroll, 102
53. Frag. 78 in *Herodes, Cercidas, and the Greek Choliambic Poets*, Loeb Library, 56
54. Diog. L. in *Heracleitus, On the Universe*, Loeb Library, 464
55. Cf. Mahaffy, *What Have the Greeks?*, 219
56. Bakewell, 33.
57. Nietzsche, F., *Early Greek Philosophy*, N.Y. 1911, 103-4
58. Diog. L., "Heracleitus," v.
59. Strabo, xiv, 1,28; Weigall, *Sappho*, 155; Webster's *Dictionary*, s.v. *colophon*.
60. Weigall, 186; Symonds, 150
61. Tr. in Harrison, *Prolegomena*, 173.
62. *Lyra Graeca*, III, 636, II, 126 181
63. Athenaeus, x, 88
64. *Lyra Graeca*, II, 125, 139
65. Ibid., 145, frag. 15
66. *Greek (Palatine) Anthology*, vii 24
67. Diodorus, xx, 84

68. Herodotus, viii, 105; Glotz, *Ancient Greece*, 85
69. Athenaeus, vi, 88-90; Ward, C. O., *Ancient Lowly*, Chicago, 1907, I, 123f
70. Eratosthenes in Grote, II, 159
71. *Lyra Graeca*, I, 333; Athenaeus, xiv, 23
72. Tr. by Symonds, 197
73. Stobaeus, *Anthology*, xxix, 58, in *Lyra Graeca*, I, 141
74. *Greek Anthology*, in, 506
75. Strabo, xlii, 2.3
76. Ovid. *Heroides*, Loeb Library, xv, 81; scholiast on Lucian. *Imag*, 18, in *Lyra Graeca*, I, 160
77. Weigall, *Sappho*, 76
78. Ibid., 175
79. Symonds, 196
80. Weigall, 86
81. *Lyra Graeca* I, 437
82. Athenaeus, xii, 69
83. Longinus, *On the Sublime*, Loeb Library, ix, 15
84. *Berliner Klassikertexte*, p. 9722, in *Lyra Graeca*, I, 289
85. Murray, *Greek Literature*, 92; Weigall 178, 90; Robinson, D.M. *Sappho and Her Influence*, Boston, 1924, 58
86. Mahaffy, *Greek Literature*, I, 202
87. Weigall, 321
88. Suidas, *Lexicon*, S.v. *Phaon*, in *Lyra Graeca*, I, 153; Strabo, x, 2.8
89. Ovid, *Heroides*, xv
90. Oxyrhynchus Papyrus 1281, in Weigall, 291
91. *Lyra Graeca*, I, 435
92. Athenaeus, xlii, 89
93. Strabo, xii, 3.11
94. Ramsay, *Asiatic Elements*, 118
95. Diodorus, iv, 49
96. Polybius, iv, 88
97. Semple, 72-3, 214
98. Murray, *Greek Literature*, 86
99. Schliemann, *Ilios*, 41
100. Strabo, x, 2.9
101. *Journal of Hellenic Studies*, LVI, 170-89, London 1882f.
102. Grote, IV, 150-1
103. Mahaffy, *Greek Literature*, I, 97-8; *J.E. Studies*, LV, 138
104. Randall-MacIver, D., *Greek Cities in Italy and Sicily*, Oxford, 1931, 75; CAH, III, 676
105. Diodorus, iii, 9
106. Athenaeus, xii, 20
107. Ibid., xii, 15, 17
108. Ibid., 58
109. Herodotus, vi, 127
110. Grote, IV, 168
111. Athenaeus, xii, 19
112. Diog. L., "Pythagoras," ix
113. *Enc. Brit.*, XVIII, 802
114. Diog. L., "i-iii, xvii; Heath, *Greek Math.*, I, 4
115. Cicero, *De Finibus*, Loeb Library, v, 29, 87; Diodorus, i, 98
116. Cicero, *Tusculan Disputations*, Loeb Library, ii, 15
117. Carroll, 299, 307, 310
118. Diog. L., "Pythagoras," viii.
119. Ibid., "Pythagoras," xix, xviii; Grote, V, 103
120. Diog. L., "Pythagoras," xix
121. Ibid., "Pyth.," xviii
122. Grote, V, 100-1
123. Diog. L., "Pyth.," xxii; Cook, *Zeus*, I
124. Diog. "Pyth.," viii
125. Heath, I, 10
126. Proclus, in Heath, I, 141.
127. Diog. L., "Pyth.," xi
128. Whibley, 229
129. Heath, I, 70, 85, 145
130. Whewell, W., *History of the Inductive Sciences*, N.Y., 1859, I, 106; *Oxford History of Music* Oxford U.P., 1929, Introductory Volume, 3
131. Aristotle, *Works*, ed. Smith and Ross, Oxford, 1931, *De Coelo*, ii, 9; *Metaphysics*, I, 5; *Oxford History of Music*, 27; Heath, I, 165, 11, 107.

CHAPTER VII

1. Pausanias, iii, 23
2. Ludwig, 266; Cook, *Zeus*, 776

37. Heath, II, 66, 119; .Berry, A., *Short History of Astronomy*, N, Y., 1909, 24
38. Diog. L., "Pyth.," xxv.
39. Ibid., 9, Introd., xviii:
40. Livingstone, R. W., *Legacy of Greece*, Oxford, 1924, 59
41. Diog. L., "Pyth.," xix
42. Ibid
43. Rohde, Erwin, *Psyche*, N. Y., 1925, 375; Pater, *Plato*, 54
44. *Greek Anthology*, vii, 120
45. Aristotle, *Nicomachem Ethics*, v, 8
46. Diog. L., "pyth.," xxi
47. Grote, IV, 154-8; CAH, IV, 115-6
48. Frag. 24 in Mhibley, 89
49. Heath, II, 52; Mahaffy, *Greek Lit.*, I, 138
50. Frags. 14-5, 5-7, 1-3, in Bakwell, 8
51. Diog. L., "Xenophanes," III
52. Frags. 9-10
53. Bakwell, 10-11
54. Warren, *Foundations*, 241 : but Koldewey (ibid.) places it about 450
55. Randall-MacIver, 9-10
56. Child, V.G., *Dawn of European Civilization*, N.Y. 1925, 98-100
57. Thucydides, vi, 18; Diodorus, v, 2
58. Grote, IV, 149
59. Freeman, E.A., *Story of Sicily*, N.Y., 1892, 65
60. Ibid
61. Polybius, xii, 25
62. Ibid., ix, 27
63. Ibid., v, 2
64. Herodotus, vii, 156
65. Lucian, *Works*, tr. H. W. and F.O. Fowler, Oxford, 1905, *Hermotimus*, 34
66. Glotz, *Ancient Greece*, 116; Draper, J. W., *History of the Intellectual Development of Europe*, N.Y., 1876, I, 52
2. Cf. Sophocles, *Oedipus at Colonus*, 1470; Cook, *Zeus, prssim*
3. *Iliad*, iii, 277
4. Frazer, *Magic Art*, I, 815
5. Murray, G. *Five Stages of Greek Religion*, Oxford U.p., 1980, 50
6. Nilsson, 91; Farnell, *Greece and Babylon*, 228
7. Nilsson, 91-2; Heracleitus in Bakewell, 29
8. Murray, G. *Aristophanes : A Study*, N.Y., 1933, 6
9. Harrison, Jane, *Prolegomena*, 298; Glotz, *Aegean Civilization*, 391-2; Briffault, *Mothers*, III, 145
10. Murray, *Five Stages*, 35-6; Reina. ch, S., *Orpheus* 86; Frazer Sir J., *Spirits of the Corn and of Wild*, N.Y., 1985, I, 4
11. Whibley, 387
12. Murray, *Five Stages*, 31
13. Ibid., 29, 33; Harrison, *Prolegomena*, PP. viii and 28
15. Harrison, 18
16. Rodenwaldt, 815
17. Sophocles, *Philoctetes*, 1827-9; Harrison, 297f
18. Ibid., 325
19. Rohde, 159
20. Nilson, 123
21. Rohde, 297
22. Ibid., 179
23. Seymour, 98; *Odyssey*, I, 56f; *Iliad*, iv, 14f
24. Ibid., viii, 17-27
25. Semple, 529
26. *Iliad*, xvi, 651f
27. Hesiod, *Theogony*, 887f
28. *Iliad*, xv, 17
29. Frazer, *Magic Art*, I, 14-15
30. *Iliad*, viii, 880f
31. Ibid., xx, 46, xxi, 406
32. Smith, Wm, *Dictionary of Greek and Roman Antiquities*, Boston, 1859, 603
33. CAH, II, 637; Glotz, *Ancient Greece*, 112; Blakeney, M.A., ed., *Smaller Classical Dictionary*, Everyman Library, 258

CHAPTER VIII

1: CAH, II, 610

(١٨- قصة الحضارة ، ج ٢ ، مجلد ٢)

34. CAH, I, c.
35. Diodorus, iv, 6
36. Athenaeus, xii, 80
37. Gardner, P., *New Chapters*, 157
38. Frazer, Sir J., *Adonis, Attis, Osiris*, N.Y., 1936, 226; Gardner, *New Chapters*, 157
39. Semple, 43-4
40. In Symonds, 204
41. Diodorus, iii, 63
42. Herodotus, ii, 49-57
43. Nilsson, 86; CAH, IV, 527
44. Ibid., 525
45. Rohde, 220; Gardner, *New Chapters*, 385
46. Diodorus, iv, 25
47. Harrison, *Prolegomena*, 465
48. Reinach, 88; CAH, IV, 586-8; Harrison, 482; Murray, *Greek Literature*, 65; Carpenter, Edw., *Pagan and Christian Creeds*, N.Y., 1920, 64
49. Harrison, p. xi.
50. Ibid., 588; Nilsson, 221, Rohde, 344
51. Plato, *Republic*, ii, 364-5
52. Harrison, 572
53. Whibley, 402
54. Nilsson, 247
55. Symonds, 495
56. Dickinson, O.I., *Greek View of Life*, N.Y., 1928, 1
57. Grote, ii, 101-2
58. Coulanges, 228
59. Xenophon, *Anabasis*, v, 3-4
60. *Iliad*, xxi, 27, xxiii, 22, 175
61. Pausanias, iv, 9, vii, 19, CAH, II, 621
62. Pausanias, iii, 16, Plutarch, "Lycurgus", Nilsson, 94
63. CAH, II, 618, Grote, I, 111
64. Frazer, Sir J., *Scapegoat*, N.Y., 1935, 253, Harrison, 107
65. Aristophanes, *Frogs*, 734, and scholiast; Rohde, 296; Harrison, 103; Nilsson, 87, Frazer, *Scapegoat*, 253
66. Harrison, 108
67. Murray, O., *Epic*, 12-13, 317, Harrison, 103
68. Plutarch, "Pelopidas."
69. Hesiod, *Theogony*, 557f
70. *Odyssey*, iii 338-41, CAH, II, 626
71. Farnell, 237
72. Harrison, 501
73. Diodorus, iii, 66
74. Grote, I, 145-6
75. Harrison, 167
76. Nilsson, 82-3, Rohde, 163
77. Coulanges, 213, Rohde, 295-6
78. Nilsson, 83
79. Ibid., 85
80. Theophrastus, *Characters*, Loeb Library, xvi
81. Plutarch, "Solon"
82. Sophocles, *Trachinian Women*, 584, Lacroix, I, 117, Becker, 381
83. Plato, *Laws*, 933, Harrison, 189
84. Herodotus, ix, 95
85. Coulanges, 291
86. Carroll, 270, Rohde, 292
87. Coulanges, 289
88. Grote, III, 38-9, Benson, E. F., *Life of Alcibiades*, N.Y., 1929, 83
89. Herodotus, v, 63, vi, 66, Grote, V, 431
90. Ibid., III, 127
91. CAH, III, 627-8
92. Ibid., 604
93. In Coulanges, 288
94. Harrison, 121, Frazer, *Spirits of the Corn*, II, 17
95. Harrison, 82
96. Frazer, *Spirits of the Corn*, I, 30
97. Rohde, 239

CHAPTER IX

1. Herodotus, viii, 144
2. Mahaffy, *Greek Literature*, IV, 24
3. *Enc. Brit.*, I, 681
4. Maugu, W. A., *History of the Art of Writing*, 344
5. Mahaffy, *Old Greek Education*, 49, Thompson, Sir E. M., *Introduction to Greek and Latin Palaeography*, Oxford, 1912, 58
6. Pliny, xiii, 11
7. Shortwell, J. T., *Introduction to the History of History*, N.Y., 1936, 30, Becker, 162n

8. Thompson, 89, 43; Mahaffy, I.c., 51
9. Becker, 274
10. Showell, 32
11. Mahaffy, *Greek Literature*, 1, 25-8
12. Grote, II, 245; Murry, *Epic*, 238
13. Diog. L., "Solon," ix
14. Grote, II, 245; Murray, *Epic*, 147
15. *Ibid.*, 258.
16. *Iliad*, xxii, 106-13, tr. G. Murray
17. Ramsay, *Asiatic Elements*, 289
18. *Iliad*, i, 477, etc
19. *Ibid.* ii, 469-78
20. *Ibid.*, xx, 490, tr. Bryant
21. Mahaffy, *Greek Literature*, 1, 35, 81. Aristarchus of Samothrace wrote ca. 180 B.C.
22. Browne, 92
23. Glotz, *Aegean Civilization*, 393; Ward, I, 41; Grote, II, 806-7
24. Briffault, *Mothers*, I, 411
25. *Odyssey*, iv, 120-86
26. Herodotus, ii, 53
27. Curtius, Ernst, *Griechische*, Berlin, 1887f, I, 126, in Robertson, J.M., *Short History of Free Thought*, London, 1914, I, 127; Mahaffy, *Social Life*, 352; Murray, *Epic*, 267
- 27a. Symonds, 187
28. *Odyssey*, viii, 146
29. Rodenwaldt, 233
30. Gardiner, *Athletics*, 230
31. Mahaffy, *Greek Education*, 18
32. Gardiner, *Athletics*, 284
33. Tucker, 222
34. In Zimmern, 816
35. Pausanias, 816
36. *Ibid.*, I, 44
37. Gardiner, *New Chapters*, 291
38. *Ibid.*, 294
39. *Ibid.*, 294
40. Gardiner, *Athletics*, 212f
41. Pausanias, vi, 4
42. *Ibid.*, viii, 40
43. *Ibid.*, vi, 14
44. Herodotus, III, 106
45. Pausanias, vi, 18
46. Herodotus, viii, 26
47. Grote, III, 352-3
48. Athenaeus, x, 1; Gardiner, *Athletics*, 54-5
49. Ferguson, W.M., *Greek Imperialism*, Boston, 1913, 58-9; Haigh, A.E., *Attic Theatre*, Oxford, 1907, 3
50. Winckelmann, J., *History of Ancient Art*, Boston, 1880, II, 288
51. Athenaeus, xiii, 90
- 52a. *Ibid*
53. Richter G., *Handbook of the Classical Collection*, Metropolitan Museum of Art, N.Y., 1922, 76
54. Rodenwaldt, 284
55. Ridder, 171
56. Pfuhl, 38
57. Ridder, 181; Murray, A. S., *Greek Sculpture*, I, 11
58. Rodenwaldt, 247
59. Cf. Pijoan, J., *History of Art*, N.Y., 1927, I, figs. 251-2
60. *Ibid.*, p. 229
61. Pliny, xxxv, 151
62. Cotterill, H. B., *History of Art*, N.Y., 1922, 99-100
63. Anderson and Spiers, 42; CAH, IV, 608-8
64. Livingstone, *Legacy of Greece* 412; Wace, 277-80; Smith, G.E., 422; CAH, IV, 99
65. Polybius, iv, 20-1; Athenaeus, xiv, 22
66. Lacroix, I, 122
67. Pratt, W.S., *History of Music*, N.Y., 1927, 58
68. Pausanias, x, 7
69. Mahaffy, *Social Life*, 456
70. Diodorus, iii, 67
71. *Lyra Graeca*, III, 582
72. Strabo, x, 8.17
73. *Oxford History of Music*, 8
74. *Ibid.*, Pratt, 55; Mahaffy, *What Have the Greeks?*, 143; *id.*, *Social Life*, 463-5
75. Aristotle, *Politics*, 1342b.
76. Athenaeus, xiv, 18
77. *Ibid.*, 10; *Lyra Graeca*, II, 498; Symonds, 180; Glotz, *Ancient Greece*, 279

78. *Oxford History of Music*, I, 80
79. Haigh, 811
80. Lucian, "Of Pantomime."
81. *Ibid.*
82. In Kirstein, L., *Dance*, N.Y.,
83. Athenaeus, I, 37
84. Kirstein, 28-30
85. *Ibid.*, 30
86. Athenaeus, xiv, 12, 82
87. *Lyra Graeca*, III, 630
88. Lucian, I.c.
89. Mahaffy, *Social Life*, 464-5
90. Athenaeus, xiv, 17
91. Aristotle, *Poetics*, iv; Murray, *Aristophanes*, 3
92. *Enc. Brit.*, VII, 582
93. Aristotle, *Politics*, 1336b
94. Murray, I.c.; *id.*, *Greek Literature*, 212; Haigh, 292; Sumner, W.G., *Folkways*, 447
95. Aristophanes, *Eleven Comedies*, I; 327 and editor's note; Kirstein, 88
96. *Enc. Brit.*, VII, 584
97. Aristotle, *Poetics*, v, 3
98. CAH, V, 117
99. Aristotle, *Poetics*, iv, 17
100. Ridgeway in Harrison, 76; Sumner and Keller, III, 2109
101. *Enc. Brit.*, VII, 582
102. *Ibid.*, 588
103. Athenaeus, I, 39
104. Dlog. L., 28, "Solon," xi

CHAPTER X

1. Herodotus, vi, 88
2. Grote, V, 16
3. *Ibid.*, 22
4. Herod., vi, 102
5. Rawlinson, app. to Herod., vi; Grote, V, 58; Pausanias, x 20
6. Plutarch, "Aristides."
8. Herod., vi, 182-6
9. Plutarch, I.c.
10. *Ibid.*
11. *Ibid.*
12. Thucydides, i, 5. 138
13. Plutarch, "Themistocles."
14. Plutarch, "Aristides."

15. Herod., vii, 133-7
16. *Ibid.*, 184-6, 198
17. *Ibid.*, 146
18. *Ibid.*, 33-6
19. *Ibid.*, 56
20. Athenaeus, iv, 27; Heroe., vii 118-9
21. *Ibid.*, viii, 4-6
22. vii, 231-2
23. viii, 24
24. *Greek Anthology*, vii, 249; Strabo, ix, 4, 12-16
25. Plutarch, "Themistocles."
26. Mahaffy, *Social Life*, 223. Mahaffy considers the story a legend, but no lover of dogs will doubt it
27. Herod., ix, 4-5
28. *Ibid.*, viii, 89
29. Grote, V, 316f, and Freeman, 77. believe that the two actions were concerted; CAH, IV, 378,
30. Grote, V, 819-20
31. Herod., ix, 70
32. Rawlinson, note to Herod., I.c.

CHAPTER XI

1. Shelley, P.B., "On the Manners of the Ancients," quoted by Livingstone, *Legacy*, 251
2. Herod., viii, 111-12
3. *Oxford Book of Greek Verse in Translation*, Oxford, 1938, 534; Plutarch, "Themistocles."
4. Plutarch, "Aristides."
5. Thucydides, i, 5
6. Grote, VI, 6-7
7. Aristotle, *Constitution*, 2
8. *Ibid.*, 41
9. Plutarch, "Pericles"; Grote, VII 16; CAH, V, 72
10. Plutarch, I.c.
11. *Ibid.*
12. *Ibid.*
13. Glotz, *Greek City*, 241
14. Plato, *Gorgias* 516; Aristotle *Constitution*, 27; Plutarch, I.c.
15. CAH, V, 100; Glotz, 210
16. Glotz, 181
17. Plutarch, I.c.

18. Ibid
19. Plato, *Phaedrus*, 270
20. Plutarch, l.c.
21. Carroll 197
22. Aristophanes, *Acharnians*, 514f; Athenaeus, xiii, 25-6
23. Lacroix, I, 154; Carroll, 200
24. Plato, *Menexenus*, 236; Carroll, 311; Benson, 58
25. Lacroix, I, 156
26. Plutarch, l.c.
27. Plato, l.c.; Benson, 57-8
28. Plutarch, l.c.
29. Benson, 58
30. Plutarch
31. Plato, *Teastetus*, 79, *Republic*, ii, 8, *Laws*, ix, 3; Thucydides, iii, 52; Mahaffy, *Social Life*, 178-9; Grote, VI, 305-6
32. Botsford, 222
33. Olotz, *Greek City*, 156, Carroll, 442
34. Tucker, 251-2
35. Isocrates, *Antidosis*, 320
36. Coulanges, 248
37. Tylor, E.B., *Anthropology*, N.Y., 1906, 217
38. Vinogradoff, II, 61-2.
39. Aristotle, *Constitution*, 57
40. Olotz, *Greek City*, 286
41. Olotz, *Ancient Greece*, 153
42. Botsford, 53-4
43. Olotz, *Ancient City*, 297
44. Cf. Aristotle's will in *Diog. L.*, 185, "Aristoie," ix
45. Xenophon, *Memorabilia*, tr. Watson, Phila 1899, x, 2.9
46. Murray, *Greek Literature*, 328
47. Olotz, *Ancient Greece*, 281
48. Tucker, 263
49. Isocrates, *Antidosis*, 79
50. *Enc Brill.*, X, 829
51. Olotz, *Ancient Greece*, 316
52. Olotz, *Greek City*, 363
53. Herod., v, 77; Aristotle, *Ethics* v, 7
54. Olotz, *Greek City*, 220
55. Zimmern, 290; Ferguson, 69
56. CAH, V, 29; Grote, II, 66-7
57. Thucydides, II, 6
58. *Lyra Graeca*, II, 337

CHAPTER XII

1. Xenophon, *Economicus*, iv-vi, in *Minor Works*
2. Ibid., xviii, 2
3. Semple, 407, 414, 421
4. Pausanias, II, 38
5. Zimmern, 52-4
6. Aristophanes, II, 245; Athenaeus, vii 43, 50f
7. Ibid., vix, 51
8. Xenophon, *Memorabilia*, II, 1
9. Hippocrates, "Regimen in Acute Diseases," xxviii f
10. Aeschylus, *Persian Women*, 288
11. Aristotle, *Constitution*, 47; Baedeker, 123
12. CAH, V, 16
13. Rickard, J.A., *Man and Mitale*, N.Y., 1932, I, 376; Calhoun, 142-3
14. Ibid., 154-6
15. Olotz, *Ancient Greece*, 225
16. Semple, 678-9
17. Ibid., 668
18. Olotz, 205
19. Vitruvius, *On Architecture*, Loeb Library, II, 6.3
20. Aeschylus, *Agamemnon*, 278f; Horod., ix, 3; Thucydides, viii, 26
21. Aristophanes, *Frogs*, in *Eleven Comedies*, II, 194
22. Plato, *Gorgias*, 511
23. Olotz, 294
24. Ibid., 233
25. In Zimmern, 307
26. Lucian, "Nigrinus," 1
27. CAH, V, 29
28. Zimmern, 218; CAH, V, 8
29. Zimmern, 283
30. Isocrates, *Panegyricus*, 42
31. Thucydides, II, 6
32. Xenophon, *Economicus*, IV, 2
33. Olotz, 218
34. Gomme, A. W., *Population of Athens in the 5th and 4th Centuries B.C.*, Oxford, 1933, 21
35. Athenaeus, VI, 103; Becker, 861
36. Semple, 667; Olotz, 192-3
37. Ibid., 208

38. Aeschines, Epistle 12,
in Becker, CAH, V, 8
39. In Botsford and Sihler, 225
40. Glotz, 196
41. Dickinson, 119; Ward, I, 39
42. CAH, VI, 529-30
43. Aristotle, *Ethics*, viii, 18
44. Murray, *Epic*, 16; CAH, VI, 529
54. CAH, V, 25
64. Aristophanes, *Ecclesiazusae*, 307
74. Ward, I, 98
48. CAH, V, 12, 25
49. Glotz, 237
50. Ibid., 286
51. Toutain J., *Economic Life of the Ancient World* N.Y., 1930; Introduction by Henri Berr, p. xxiii
52. CAH, V, 22
58. Semple, 426
54. Glotz, 168
55. Tucker, 261
56. Coulanges, 451
57. Ward, I, 42
58. Glotz, 148
59. Ward, I, 88, II, 48, 76, 268, 342
60. Hall, M.P., *Encyclopedic Outline of Masonic, Hermetic, Oabbalistic and Rosicrucian Symbolical Philosophy*, San Francisco, 1928, 64
61. Aristophanes, II, 871f
62. Ibid 440f
63. Tuncydides, viii, 24
64. Ibid., iii, 10, slightly transposed
65. Aristotle (?), *Economics*, iii, 15
66. Glotz, 296
67. Ibid., 298
68. Ibid., 298; Lysias, *Against the Grain-Dealers*, xxi, in Botsford and Sihler, 426; Semple, 365, 668; Zimmern, 362
69. Glotz, 189

CHAPTER XIII

1. Plato, *Republic*, 459f
2. Aristotle, *Politics*, 1335
3. Haggard, H.W., *Devils, Drugs, and Doctors*, N.Y., 1929, 19
4. Himes 82. 96. *Coltus interruptus*

- was adparacently a popular method of family limitation through antiquity.
5. Athenaeus, xiv, 3
6. Plutarch, "Themistocles," *Moralia*, 185D
7. *Greek Anthology*, vii, 887
8. McCless, H., *Daily Life of the Greeks and Romans*, N.Y., 1928, 41; Metropolitan Museum of Art
9. Ibid., 41; Becker, 223; Mahaffy, *Greek Education*, 16, 19; Weigall, *Sappho*, 200
10. Plato, *Laws*, vii, 84
11. Plato, *Protagoras*, 326
12. Mahaffy, op. cit., 39
13. Becker, 224
14. Winckelmann, II, 296
15. Plato, *Protagoras*, 325
16. Aristotle, *Constitution*, 42
17. Gardner, *Ancient Athens*, 483; Mahaffy, op. cit., 76
18. Lysurgus, *Against Leocrates*, 75-89, in Botsford; and Sihler, 478. On its authenticity cf. Mahaffy, op. cit., 71
19. Dlog. L., "Aristotle," xi
20. Tucker, 173; Weigall, 184
21. Plutarch, *Moralia*, 249B
22. CAH, II, 22-3
23. Becker 456,
24. Carroll, 172
25. Tucker, 125-7
26. Ibid
27. Plutarch, *Moralia*, 228B; *Athenaeus* xv, 34
28. Weigall, 189, 206-7; Carroll, 173
29. Eubulus, *Flower Girls*, in Tucker, 173-4, and Lacroix, I, 101-2
30. Weigall, 187
31. Athenaeus, xv, 45
32. Glotz, 278
33. Wright, F. A., *History of Later, Greek Literature*, N. Y., 1932, 19
34. Zimmern, 215
35. Tucker, 120
36. Coulanges, 294
37. *Greek Anthology*, x, 125
38. Voltaire, *Works*, N.Y., 1927, IV, 71

89. Thucydides, ii, 6; Mahaffy, *Social Life*, 296; Hbbhouse, L. Y., *Morals in Evolution*, N.Y., 1916, 347; Glotz, *Greek City*, 131
40. Vlnogradoff, II, 54-5
- 40a. Aristotle, in Sedgwick and Tyler, *Short History of Science*, N.Y., 1927, 162
41. Glotz, *Ancient Greece*, 280; Becker, 280; Tucker, 150
42. Ibid., 123
43. Grote, V, 53
44. Thucydides, ii, 10.82
45. Pausanias, vii, 9-10; Plutarch, *Arlaxerxes II.*"
46. Xenophon, *Cyropaedia*, Loeb Library, I, 6.27
47. Thucydides, I, 3.76
48. Ibid., v, 17
49. Ibid., III, 9.34
50. Ibid., v, 32.116; vi, 20.95; Polybius, III, 86; Coulangel, 275
51. Thucydides, II, 7.67.
52. Plutarch, "Alcibiades."
53. Plato, *Laws*, viii, 881
54. Herod., v, 78
55. Aristophanes, *Eccl.*, 720; Becker, 241
59. Ibid., 243
61. Demosthenes, *Against Neaera*; Becker, 244
62. Lacroix, I, 124, 129
63. Ibid., 112
64. Ibid., 85
65. Briffault, II, 340
66. Mahaffy, *Greek Life and Thought*, London, 1887, 72
67. Lacroix, I, 88
68. CAH, V, 175
69. Lacroix, I, 166
70. Ibid., 162
71. Becker, 248
72. Athenaeus, xiii, 59
73. Ibid.,
74. Ibid., 58
75. Ibid., 69
76. Lacroix, I, 180
77. Ibid., 179
78. Athenaeus, xlii, 54
79. Lacroix, I; 182-3
80. Ibid., 145-6
81. Ellis, H., *Studies in the Psychology of Sex*, Phila., 1911, VI, 184
82. Murray, *Aristophanes*, 45
83. Plutarch, "Lycurgus"; Strabo, x, 4.21
84. Plutarch, "Pelopidas."
85. Diog. L., "Xenophon." vi
86. Cf. Plato, *Lyds*, 204
87. Plato, *Symposium*, 180f, 192
88. Lacroix, I, 118, 126
89. Bebel, 87; Hime, 52
90. Whibley, 612
91. Carroll, 307
92. Sophocles, *Trachinian Women*, 443
- 92a. Tr. by J.S. Phillimore in *Oxford Book of Greek Verse in Translation*, 367
93. Becker, 478
94. Athenaeus, xiii, 16
95. Sumner, *Folkways*, 362; Baker, 478
96. Tucker, 83
97. Carroll, 164
98. Euripides, *Medea*, 288
99. Coulangel, 63, 298; Becker, 475
Briffault, II, 886
100. Ziminern, 334, 343
101. Euripides, *Asolus*, 22
102. Demosthenes, *Against Neaera*; Smith, Wm., *Dictionary*, 349, s.v., *Concubium*
103. Glotz, *Greek City*, 296; Zimmern, 340 Zeller, Ed., *Socrates and the Socratic Schools*, London, 1877, 62, questions the story and the law
104. Westermarck, E., *History of Human Marriage*, London, 1921 III, 319; Becker, 497; *Lyra Graeca*, II, 136
105. Lacroix, I, 114; *Enc. Brit.*, X, 828; Becker, 496
106. Tucker, 84; Westermarck, op. cit., 319; Lacroix, I, 143
107. Westermarck, I.c.; Coulanges, 119
108. Thuc., II, 6
109. Lacroix, I, 143

110. Becker, 464; Tucker 83-4.
111. Summer, *Folkways*, 497; Brit-fault, I, 405.
112. Tucker, 156.
113. Aristophanes, *Lysistrata*, 42f.
114. In Tucker, 84.
115. *Greek Anthology*, vii, 340.
116. Boisford and Sihler, 51.
117. Tucker, 80-6.
118. Semple, 490-1.
119. Athenaeus, i, 10.
120. *Greek Anthology*, xi, 413.
121. Atheaeus, v 2.
122. Xenophon, *Banquet* ii, 8.
123. Mafaffy, *Social Life*, 120-1.
124. Coulanges, 422.
125. Plato, *Republic*, iv, 425.
126. Tucker, 270.
127. Semple, I.c.
128. Rohde, 167.
129. Harrison, *Prolegomena* 600; Westermarck, E., *Origin and Development of the Moral Ideas*, London, 1917-24, I, 715

CHAPTER XIV

1. Xenophon, *Economicus*, viii, 19f
2. Thuc., ii, 6.40
3. Xenophon, *Bonrust*, iv, 11
4. In Ridder, 48
5. Usher, A.P., *History of Mechanical Inventions*, N.Y., 106-7
6. Cf. the gems in the Fourth Room of the Classical Collection Metropolitan Museum of Art, New York.
7. Pfuhl, 5.
8. Ridder, 287
9. Pliny, xxxv, 34
10. Mahaffy, *Social Life*, 449-50; Ridder, 19
11. Plutarch, "Cimon."
12. Pausanias, x, 25
13. Pliny, xxxv, 35; Winckelman, II, 299
14. Pliny, xxxv, 86
15. Ibid.
16. Plutarch, "Pericles."
17. Pliny, I.c.
18. Athenaeus, xxi, 62
19. Murray, A.S., I, 18
20. Pliny, I.c.
21. Cicero, *De Invent.* II, 1, in Murry, A. S., I, 12, Pliny, I.c., places the story in Acragas.
22. National Museum, Naples; *Guide to the Archeological Collection*, Naples, 1935, 11.
23. Notional Museum, Athens.
24. Xenophon, *Memoreabilia*, ii, 10.7
25. Ripder, 177
26. Fardner, *Greek Sculpture*, 20-1
27. Pliny, xxxiv, 19
28. Ibid.
29. Pijoan, I, 264
30. Cf. Lucian, "A Portrait Study," in *Works*, III, 15-16
31. Jones, H. S., *Ancient Writers on Greek Sculpture*, 78.
32. Glotz, *Ancient Greece*, 281.
33. Cf. Jones, op. cit., 76; Gardner, *Greek Sculpture*, 284; Frazer, *Studies in Greek Scenery*, 411; CAH, V, 479
34. Pijoan, I, 269
35. Pausanias, v, 11; Strabo, viii, 3-80
36. *Iliad*, I, 528
37. Pausanias, v, 11
38. Polybius, xxx, 10
39. Frayer, op. cit., 293
40. Quintilian, *Institutes*, Loeb Library, xii, 1.07
41. Plutarch. "Pericles."
42. Scholiast on Aristophanes, *Peace*, 605, in Jones, op. cit., 76.
43. Lucian, I.c.
44. Vitruvius, iv, 1.8.
45. Cotterill, I, 75
46. Pausanias, v, 10
47. Zimmern, 411, Grote (VI, 70) makes a smaller estimate (\$ 18,000,000) for the architectural works in Athens proper.
48. Warren, 156
49. Ibid., 881
50. Vitruvius, iii, 5
51. Ruskin *Aratra Pentelici*, 174;

- Gardner, *Ancient Athens*, 838;
Gardner, *Greek Sculpture*, 824
52. Warren, 397, 389-41; Mahaffy,
What Have the Greeks? 130
53. Ludwig, 189f.
54. Warren 310-11; Gardner *Ancient Athens*, 258

CHAPTER XV

1. Heath, *Greek Mathematics*, I, 46
Whibly, 228-9
2. Heath, I, 150
3. Sarton, 92
4. Sedgwick and Tyler, 38
5. Heath, I, 176, 178
6. CAH, V, 883
7. Heath, I 93
8. Diog. L., 384, "Parmenides" II;
Sarton, 85
9. Aristotle, *De Coelo*, II, 18;
Heath, Sir Thos., *Aristarchus of samos*, Oxford, 1913, 94
10. Diog. L., 389; "Leucippus," III.
11. Ibid., 390; Heath, *Aristarchus*, 125.
- 11a. Sarton, 92
12. Heath, 78
13. Anaxagoras, frags. 12 and 16,
In Bakewell, 51; Ueberweg, I,
68-5; CAH, IV, 570.
14. Heath, 81.
15. Ibid, 82.
16. Ueberweg, I, 66.
17. Diog. L., 69 60, "Anaxagoras," iv.
18. Heath, 138.
19. Ibid., 79.
20. Anaxagoras, frag. 4, in Bake-
well, 49.
21. Diog. L., I.c.
22. Frags. 5 and 17, in Bakewell,
5; Diog. L., I.c.
23. Frag. 9, in Bakewell, 51; Aristotle
Metaphysics, I 3, *De Coelo*, III;
8, *De Generatione et Corruptione*, I, 1; Lucretius, *De Rerum
Natura*, Loeb Library, I, 83 of.
24. Diog. L., I.c.
25. Aristotle, *De Partibus Animalium*,
I, 10, IV, 10.
26. Aristotle, *Metaphysics*, I, 4.
27. Nilson, 274.
28. Diog. L., 61, "Anaxagoras," VIII;
Robertson, J.M., I, 153.
29. Plutarch, "Pericles."
30. Murray, *Greek Literature*, 159.
31. CAH, IV, 569-70.
32. Heath, *Greek Math.*, I, 172.
33. Diog. L., 61, "Anaxagoras," IX.
34. Germinius in Heath, *Aristarchus*
275.
35. Herod., II, 4, and Rawlinson's
note; Whibley, 71.
36. Orote, II, 29-30.
37. Herod., II, 4.
38. Sarton, 88.
39. Semple, 85-7.
40. Ibid.
41. Cf. Sect. III. of Chap. XVI,
below; and cf. Aeschylus,
Prometheus Bound, 442-506.
42. Gardner, *New Chapters* 269.
43. Sarton, 88.
44. Herod., III, 125-30.
45. Sarton, 77.
46. Ibid. Livingstone, *Legacy*, 209.
47. Sarton, 102.
48. Garrison, F. H., *History of
Medicine*, Phila., 1929, 95.
49. Hippocrates, *Works*, I, Introd., by
W.H S. Jones.
50. Ibid., IV, "Aphorisms," I.
51. "The Sacred Disease"; Airs,
Waters, Places," xxII.
52. Hippocrates, *Works*, II, Introd.,
vIII; I, Introd., xxIV; Garrison,
94.
53. Ibid., IV, "The Nature of Man,"
IV, 10.
54. Ibid., "Regimen III," IxvIII.
55. Livingstone, 234.
56. Garrison, 94; Hippocrates I,
Introd., Ivi.
57. IV, Introd., vIII.
58. Harding, T.S., in *Medical Journal
and Record*, aug., 1; 1928.
59. Hippocrates, IV, Introd., viI,
Hippocrates settles a very an-
cient problem when he writes :

- "It is best for flatulence to pass without noise and breaking, though it is better for it to pass even with noise than to be intercepted and accumulated internally." — *Works*, IV, "Prognostic," 11.
60. In Livingstone, 285.
61. Hippocrates IV, "Regimen, III," Ixviii.
62. Sarton, 96.
63. Livingstone, 108.
64. Hippocrates, II, "The Sacred Disease," xvii.
65. Xenophon, "Constitution of the Lacedaemonians," xii, 6; Mahaffy *Social Life*, 293; Becker, 880; Garrison, 91; Hippocrates, *Works*, I, 299.
66. Garrison, 97; Livingstone, 225.
67. *Ibid.*, 140.
68. I am indebted, for explanation of the material at Epidaurus, to Dr. A. A. Smith, of Hastings Neb.
69. Livingstone, 225.
70. Plato, *Laws*, iv, 720.
71. Carroll, 824-5; Mahaffy, *Social Life*, 297.
72. Xenophon, *Memorabilia*, iv, 2; Garrison, 91; Becker, 876.
73. *Ibid.*, 291; Garrison, 90; Plato, *Statesman*, 259.
74. Hippocrates, II, "Law," I, and *Intro.* to *Essay VI*.
75. I. 291-.
76. *Ibid.*, 299.
77. Becker, 379.
78. Hippocrates, II, "Decorum," vii; "Precepts," vi.
79. "Decorum," v.
80. *Ibid.*, 22; the conclusion is rephrased.
81. Plato, *Parmenides*, 127.
82. Russell, B., *Principles of Mathematics*, London, 1903, I, 847.
83. Plutarch, "Pericles."
84. Plato, *I.c.*
85. Diog. L., "Zeno," iv.
86. *Ibid.*
87. Tredennick, H., *introd.* to Aristotle, *Metaphysics*, Loeb Library, xvi; CAH, IV, 575-6.
88. Heath, *Aristarchus*, 105.
89. Tredennick, *I.c.*
90. Leucippus, frag. 2 in Bakewell,
91. Diog. L., "Leucippus," i-iii.
92. Lange, F.-E., *History of Materialism*, N.Y., 1925, 15.
93. Diog. L., "Democritus," ii-iii.
94. *Ibid.*
95. Lange, 17.
96. *Enc. Brit.*, XVII, 39.
97. Grote, O., *Plato and the Other Companions of Socrates*, London, 1875, I, 68; Bakewell, 62.
98. Robertson, J. M., I. 158; Lange 17.
99. Diog. L., "Democritus," xii.
100. Heath, *Greek Math.*, I, 176.
101. Cicero, *De Oratore*, I, 11; Ueberweg, I, 68; Grote, *Plato*, I, 68, 96.
102. Bacon, F., *Philosophical Works*, ed. Robertson, London, 1906, 96, 471-2, 650.
103. Democritus, frag. O (Elets) in Bakewell, 60.
104. Frags. 117 and 9 in Bakewell, 60.
105. Ueberweg, I, 70.
106. Lange, 27.
107. Ueberweg, I, 96-70; Grote, *Plato*, I, 77.
108. *Ibid.*, 76.
109. Diog. L., "Democritus," xii.
110. Heath, *Aristarchus*, 26, 127.
111. Ueberweg, *I.c.*
112. Grote, *Plato*, I, 78.
113. Lucretius, iii, 370.
114. In Plutarch, *Moralia*, 81.

CHAPTER XVI

1. Athenaeus, xii, 62.
2. Plato, *Protagoras*, 334, 389.
3. Symonds, 116; Owen, John, *Evenings with the Sceptics*, London, 1881, I, 177.
4. Bakewell, 11.

43. Owen, I, 149.
44. Lange, 31; Diog. L., "Democritus," xii; Ueberweg, I, c.
45. Frag. 154a in Bakewell, 68.
46. Frag. 57.
47. In Owen I, 149.
48. Ueberweg, I, 68.
49. Athenaeus, ii, 26.
50. Ibid.; Lucretius, iii, 1039.
51. Diog. L., "Democritus," xi.
52. Athenaeus, I, c.
53. Diog. L., "Democritus," viii.
54. Id., "Empedocles," ii.
55. In Symonds 127.
56. Murray, *Greek Literature*, 76.
57. Symonds, 127.
58. Diog. L., "Empedocles," iii.
59. Ibid., "Empedocles," xi.
60. Ibid., Symonds, 131.
61. Diog. L., "Empedocles," ix.
62. CAH, IV, 563
63. Aristotle, *De Anima*, ii, 6; *De Sensu*, vi
64. Symonds, 148
65. Empedocles, frag. 82 in Bakewell, 45
66. In Aristotle, *De Coelo*, iii, 2
67. Ueberweg, I, 62
68. Symonds, 143
69. Frags. 17 and 25 in Bakewell, 44-5
70. Cf. Frazer, *Spirits of the Corn*, ii, 808
71. Frags. 133-4 in Bakewell, 46
72. Symonds, 187
73. Livingstone, 46
74. Symonds, 185
75. Diog. L., "Empedocles," x
76. Ibid., "Empedocles," xi
77. Ibid.; Symonds, 181
78. Plato, *Protagoras*, 316
79. Grote *History*, VI, 46
80. CAH, V, 24, 377-8
81. Plato, *Protagoras*, 309-10
82. Ueberweg, I, 74
83. Plato, *Protag.*, 311
84. Ibid., 328
85. Diog. L., "Protagoras," iv
86. Plato, *Phaedrus*, 267
87. Ueberweg, I, 76; Sarton, 88
88. Euripides, frag. 189, quoted by Rohde, 488
89. Plato, *Theaetetus*, 160; Bakewell 67; Lange, 42
90. Diog. L., I, c; Bakewell, 67
91. Diog. L., I, c.; Ueberweg, I, 74
92. Bakewell, 67
93. Isocrates, *Antidosis*, 155
94. Philostratus, *Lives of the Sophists*, Loeb Library \$ 494
95. Grote, VIII, 843
96. Ueberweg, I, 77
97. Philostratus, 488
98. Plato, *Republic*, I, 884f; Oxyrhynchus Papyri xi, 1864. In Vinogradoff, II, 29; Murray, *Greek Literature*, 161
99. Plato, *Sophist*, 265
100. Murray, *Aristophanes*, 142
101. Ibid
102. Murray, *Greek Literature*, 160
103. Zeller, 36
104. Plato, *Gorgias*, 502
105. Plato, *Cratylus*, 684
106. Xenophon, *Memorabilia*, I, 6.13
107. Plutarch, *Dec. Orat.*, iv in Becker, 235
108. Aristotle, *Soph. Elenchis*, I, 165
109. Grote, VIII, 828
110. Diog. L., "Plato," xxv
111. Aristotle, *Ethics*, 1109, 1116, 1144, 1164
112. Livingstone, 79
113. CAH, VI, 803
114. Plutarch, *De Mallg. Herod.*, ix, 856, in Dupréel E., *La Légende Socratique*, Bruxelles, 1922, 415
115. Mahaffy, *Social Life*, 205-6
116. Pausanias, I, 92
117. Diog. L., "Socrates," iv
118. CAH, V, 386
119. Plato, *Apoloogy*, 28 *Republic*, 337; Xenophon, *Memor.*, I, 2.1
120. Plato, *Symposium*, 220-1
121. *Republic*, 549
122. Aristotle in Diog. L., "Socrates," x
123. Cf. McClure, M., in Dewey, J., and Others: *Studies in the*

- History of Ideas*, Columbia U. P.; 1985, II, 31
180. Plato *Symposium*, 214
181. Xenophon, *Banquet*, II, 19
182. Plato, *Phaedrus*, 229
183. Diog. L., "Socrates," ix
184. Xenophon, *Banquet* II, 24
185. Diog. L., I c.
186. Plato, *Charmides*, 154-5
187. Id., *Protagoras*, 309
188. Id., *Lysis*, 206; Xenophon, *Memor.*, III, 11
189. Ibid
190. Ibid., iv, 8
191. Plato, *Phaedo*, end
192. CAH, V, 387-8
193. Diog. L., "Socrates," III; Robertson, J. L., I, 160
194. Plato, *Apology*, 41
195. Xenophon, *Banquet*, I, 5
196. Diog. L., "Socrates," xviii
197. Xenophon, *Memor.*, I, 2.16
198. In Pater, 179
199. Plato, *Protag.* 338, 361
200. Xenophon, iv, 4.9
201. Plato, *Theaetetus*, 150
202. Grote VII, 92; Mahaffy, *Greek Education*, 84
203. Cf., e.g., *Charmides*, 159, 161; *Protag.*, 331, 350; *Lysis passim*.
204. Diog. L., "Crito," I.
205. Xenophon, II, 6.28
206. Ibid., I, 6
207. Ibid
208. Diog. L., "Socrates," xiv
209. Xenophon, iv, 1.1
210. Diog. L., "Crito," I.
211. Plato, *Symposium*, 215, 218
212. Sextus Empiricus, *Opera*, Leipzig, 1840, *Adversus Mathematicos*, IX, 45; Boistord and Sihler, 389; Nilsson, 269; Symonds.
213. Zeller, 205, 208
214. Athenaeus, XII, 534
215. Plato, *Meno*, 94
216. Xenophon, *Memor.*, I, 1.2; I, 8.4; II, 6.8; IV, 7.10; Plato, *Symposium*, 220; *Phaedo*, 118; *Apology*, 21
217. Zeller, 82
218. Plato, *Apology*, 29
219. Id., *Cratylus* 425
220. Xenophon, *Memor.*, I, II. II
221. Ibid., IV, 8-16
222. IV, 7
223. I, 1. 16
224. IV, 2 24
225. III, 8.3; IV, 5 9
226. III, 9.5
227. I, 2.9
228. III, 5.15-17
229. IV, 6.12
230. CAH, VI, 309
231. Xenophon, *Apology*, end

CHAPTER XVII

1. Pausanias, ix, 29
2. *Lyra Graeca*, III, 9; II, 246
3. Pausanias, ix, 23
4. Pindar, *Olympic Ode* xiv, 5
5. *Olympic Odes* i-ii
6. Frag. 78 in Pindar, *Odes*, p. 567
7. CAH, IV, 511
8. Symonds, 214
9. *Lyra Graeca*, III, 7
10. Pausanias, ix, 23
11. *Olympic* i, 64
12. Frag. 181
13. *Olympic* ii, 56f, tr. C. J. Billeon, *Oxford Book of Greek Verse in Translation*, 294
14. Pindar, *Pythian Ode* i, 81
15. *Pythian* iv, 272
16. *Pythian* viii, 92, tr. G. Murray
17. *Paeon* iv, 32
18. Symonds, 216
19. S.v. Pratinnas, *Lyra Graeca*, III
20. Aristophanes, II, 82 editor's note
21. Haigh, 37
22. Ibid., 64
23. Mahaffy, *Social Life*, 469; Symonds, 380
24. Haigh, 286
25. *Lyra Graeca*, III, 268
26. Aristotle, *Rhetoric*, Loeb Library, III, 1.
27. Ward, II, 311.

28. Lucian, "Of Pantomime," 27.
29. Haigh, 823-7.
30. Ibid., 827-38f.
31. Fickinger, R. C., *Greek Theater and Its Drama*, University of Chicago Press, 1918, 132.
32. Haigh, 348.
33. Ibid., 345; Norwood, *Greek Drama*, 83.
34. Haigh, 344.
35. Ibid., 12, 24.
36. Ferguson, 69.
37. Haigh, 84.
38. Plato, *Laws*, 669, 700.
39. Herod., vi, 21.
40. CAH, IV, 172.
41. Haigh, 16.
42. Aeschylus, *Prometheus Bound*, 18f, tr. Elizabeth Barrett Browning, in *Greek Dramas*, N.Y., 1912, pp. 6-6.
43. Ibid., II, 459f.
44. Tr. in Murray, *Greek Literature*, 119.
45. Schlegel, A. W., *Lectures on Dramatic Art and Literature*, London, 1846, 93. On the 1849, 93. on the "paradox of *Prometheus Bound*," — an atheistic play by the most pious of Greek dramatists, cf. *Journal of Hellenic Studies*, LIII, 40f, and LIV, 14f.
46. Mahaffy, *Social Life*, 150; Symonds, 260; Murray, *Greek Literature*, 221.
47. Aeschylus, *Agamemnon*, II. 218f, tr. G. Murray, *Oresteia*, p. 44.
48. Tr. Milman in Mahaffy *Social Life*, 162.
49. *Agamemnon*, 1445f, *Oresteia*, p. 100.
50. *Choephoros*, 102-4f, *Oresteia*, 188.
51. Athenaeus, i, 39.
52. Schlegel, 95.
53. *Agamemnon*, II. 65f.
54. Ibid., 180.
55. *Eumenides*, em'.
56. Murry, *Greek Literature*, 215.
57. Botsford and Schlegel, 34.
58. Athenaeus, i, 87; Schlegel, 97; Taine. H., *Lectures on Art*. N. Y., 1901, II, 483; Plumptre, E. H., *Intro. to Tragedies of Sophocles*, London, 1867, p. xxxvi.
59. Sophocles, *Works*, tr. F. Storr, Loeb Library, I, *Intro.*, vii.
60. Symonds, 278.
61. Athenaeus, xiii, 81.
62. Mahaffy, *Greek Literature* II, 57.
63. Murray, *Greek Literature*, 234.
64. Symonds, 290.
65. Sophocles, *Oedipus the King*, 98 of.
66. *Oedipus at Colonus*, 668f tr. Walter Headlam, *Oxford Book of Greek Verse in Translation*, 878.
67. *Oedipus at Colonus*, 607f, tr. Murray, *Greek Literature*, 249.
98. *Oed. Col.*, 1648f, tr. Murray.
69. *Antigone*, 332f, tr. Storr.
70. Ibid., 786f.
71. Ibid., 122of.
72. Murray, *Greek Literature*, 288.
73. *Trachinian Women*, 1265f.
74. *Philoctetes* 451-2.
75. *Electra*, 473f.
76. *Oedipus the King*, 863f.
77. *Oed. Col.*, 1211f, slightly transposed, tr. A. E. Housman. in *Oxford Book of Greek Verse in Translation*, 378. Cf. to like effect *Oedipus the King* 1187-95 and 1529-30.
78. Athenaeus, xlii, 61.
79. Symonds, 278.
80. Mahaffy, *Greek Literature*, II, 97.
81. Murray, *Gk. Lit.*, 261.
82. *Cratichneus*, xiv, 1-38.
83. *Disg. I.*, "Socrates," II.
84. Euripides, *Hippolytus*, 191-7, in Murray *Gk. Lit.*, 12.
85. Murray, op. cit., 84.
86. Euripides, *Medea*, 41of, tr. G. Murray, Oxford, 1912, p. 15.
87. Herod. II, 120.
88. *Iphigenia in Aulis*, 686-54, tr. A. S. Way, Loeb Library.

89. *Iph. in Aulis*, tr. Webb in Mahaffy, *Social Life*, 202-4.
90. *Iph. in Aulis*, 1349-84, tr. A. S. Way.
91. *Hecuba*, 488f, tr. Way.
92. Murray, *Gk. Lit.* 137.
93. *Trojan Women*, tr. G. Murray, Oxford, 1914.
94. Euripides, *Electra*, tr. Murray, Oxford, 1907, p. 77.
95. Euripides, *Iphigenia in Tauris*, tr. Murray, Oxford, 1930.
96. Aristotle, *Poetics*, xiii, 4.
97. Verrall, A. W., *Euripides the Rationalist*, Cambridge Univ. Press, 1913, 178 and *passim*.
98. Elizabeth Barrett Browning referred to "Euripides the human, with his droppings of warm tears."
99. *Iph. Aulis*, 957.
100. *Helen* 744f, tr. Way.
101. *Ion*, 374-8; *Iph. in T.*, 570-5; *Electra*, 400; *Bacchae*, 255-7; *Hippolytus*, 1059; Roberson, I, 162.
102. Euripides, *Electra*, tr. Murray, p. 87; *Heracles*, 1341; *Iph. in T.*, 886.
103. *Bellerophon*, 298, tr. Symond, 868; cf. *Helen*, 1137.
104. *Iph. in T.*, tr. Murray, p. 82.
105. *Helen*, 1688.
106. Verrall, 79.
107. *Trojan Women*, 884.
108. *Hecuba*, 282.
109. *Trojan Women*, prologue.
- 109a. *Cresphontes*, frag.
110. *Hippolytus* and the *Sthenoboea* and *Chrysippus*.
111. *Andromeda*, 135, t., Symonds, 853.
112. Norwood, 311.
113. Euripides, *Medea*, tr., Murray, p. 67.
114. Frag. 167 in Rohde, 438.
115. *Electra*, tr., Murray, p. 78.
116. Rohde, 487.
117. An uncertain frag. tr. Symonds, 887.
118. A frag. in Symonds, 866.
119. Aristophanes, *Frogs*, 552; Athenaeus, i, 41.
120. Symonds, 426.
121. Mahaffy, *Gk. Lit.*, II, 98.
122. Pater, 122.
123. Plutarch, "Nicias."
124. *Greek Anthology*, ix, 450.
125. Quoted by Murray, *Euripides and His Age*, N.Y., 1918, 10.
126. Murray, *Gk. Lit.*, 277.
127. Aristophanes, I, 117.
128. Haigh, 260.
129. Murray, *Aristophanes*, 102.
130. Zeller, 203.
131. Aristophanes, I, 91.
132. *Ibid.*, 814, 319.
133. E.g. *Thesmophoriazusae* II, 286; *Knights*, I, 11; *Ecclesiazusae*, II, 378.
134. *Knights*, I, 81.
135. *Peace*, I, 194. In *The Birds* he calls Heracles a bastard (I, 173); and in *Frogs* he makes Dionysus a coward, an onanist, a lecher, and a clown.
136. Philostratus, 483.
137. Lucian, "Herodotus and Aetion," 1; Bury, J. B., *Ancient Greek Historians*, N. Y., 1909, 96; Mahaffy, *Gk. Lit.*, II, 18; Murray, *Gk. Lit.*, 124.
138. Herod., I, 1.
139. Gibbon, Ed., *Decline and Fall of the Roman Empire*, Everyman Library, I, 77, ch. iii.
140. Strabo, xvii, 1.52.
141. Herod., iii, 101.
142. *Ibid.*, i, 68.
143. iii, 88; ii, 3.
144. E.g., vii, 189, 191.
145. vii, 162.
146. Lucian, l.c.
147. Thuc., i, 1. 21-23.
148. Mahaffy, *Social Life*, 208.
149. Thuc., ii, 45.
150. *Ibid.*, viii, 24; ii, 17.
151. *Gk. Lit.*, 1.

CHAPTER XVIII

1. Dlog. L., "Empedocles," vii.

2. Athenaeus, xii, 84
3. Aristophanes, *Acharnians*, I, 111
4. Glotz, *Ancient Greece*, 314
5. Grote, V, 390
6. Thuc., iii, 87
7. Ibid., i, 3-75
8. Plutarch, "Pericles."
9. Thuc., ii, 6.8
10. Ibid., i, 2.58-65; i, 5.139-46
11. Jones, W. H. S., *Malaria and Greek History*, 182
12. Plutarch, "Tiberius Gracchus."
13. Aristode, *Constitution*, 28
14. Thuc., iii, 9.49-50
15. Ibid., v, 15.22-3
16. v, 17.84f
17. Plutarch, "Alcibiades."
18. Ibid.
19. Xenophon, *Memor.*, i, 1.49
20. Athenaeus, i, 5
21. Benson, *Alcibiades*, 162
22. Plutarch, l.c.
23. Thuc., 18.18
24. Ibid., 20.89
25. viii, 23.18
26. viii, 26.97; Aristotle, *Constitution*, 33
27. Xenophon, *Hellenica*, Loeb Library, i, 4.18
28. Aristotle, *Constitution*, 34
29. Plutarch, "Lysander."
30. Isocrates, *Areopagiticus*, 66
31. Aristotle, op. cit., 40
32. Murray, *Gk. Lit.*, 176
33. Xenophon, *Memor.*, i, 2.82
34. Grote, IV, 68
35. Ueberweg, i, 81
36. In Reinsch, 96
37. Plato, *Apology*, 38
38. Ibid., 27
39. 18
40. 29
41. 80
42. Dlog. L., "Socrates," xxi
43. Plato, *Crito*
44. Xenophon, *Memor.*, iv, 8.1
45. Plato, *Phaedo*, 59-60
46. Ibid., 89
47. Xenophon, *Apology*, 28
48. Diodorus, xiv, 37

51. In Zeller, 201
52. Plutarch, *De Invid*, 6, in Zeller
53. Dlog. L., "Socrates," xxii
54. Grote, IV, 88
55. Tertullian, *Apology*, 14, and Augustine, *City of God*, viii, 3, in Zeller, 201

CHAPTER XIX

1. Aristotle, *Physics*, Loeb Library, 1269-70; Plutarch, "Lysander," "Lycargus."
2. Glotz, *Greek city*, 800
3. Aristotle, *Physics*, 1270
4. Xenophon, *Anabasis*, iv, 7-22
5. Plutarch, *Moralla*, 180f.
6. Plutarch, "Agesilaus."
7. Plutarch *Moralla*, 39
8. Ibid., 192 C.
9. Aristotle, *Physics*, 1270
10. Glotz, *Ancient Greece*, 199
11. Xenophon, "On the Revenues," in *Minor Works*.
12. Calhoun, 46-8, 98-4, 101
13. Glotz, *Anc. G.*, 804; CAH, VI, 72
14. Calhoun, 109
15. Ibid. 116; Glotz, 306
16. Glotz. *Greek City*, 311; *Anc. G.*, 201
17. Glotz, *Gk. City*, 312-3
18. Plato, *Republic*, 312-3
19. Aristotle *Politics*, 1310
20. Isocrates, *Archidamas*, 67. Isocrates was writing of the Peloponnesian Greeks, but probably had his fellow Athenians in mind
21. Pöhlmann, I, 147
22. Plato, *Laws*, v. 786
23. Vinogradoff, II, 118; Glotz, *Gk City*, 318
24. Vinogradoff, I, 205
25. Isocrates, *Anidasis*, 159
26. Glotz, *Gk City*, 328; Rostovtzeff, M., *Social and Economic History of the Roman Empire*, Oxford, 1926, 2; id., *History of the Ancient World*, Oxford, 1928, II 362; Coulanges, 498

27. Mahaffy, *Social Life*, 267, 273
28. Giotz, *Gk. City*, 296
29. Ibid.
30. Athenæus, xiii, 38f; Lacroix, I, 168
31. Athenæus, xii, 43
32. Aristotle, *History Animalium*, 583a7
33. Gomme, 18, 26, 47; Athenæus, vi, 272; Müller-Lyer, *Family*, 203; Grote, V, 838
34. Xenophon, *Hellenica*, vi, 1.5
35. Isocrates, *On the Peace*, 50
36. Aristotle, *Problems*, in Vinogradoff, II, 67
37. Demosthenes in Giotz, *Gk. City*, 218
38. Aristotle, *Constitution*, 41
39. Aristophanes, *Clouds*, 991; Plato *Theætetus*, 173
40. Isocrates, op. cit., 59
41. Grote, XI, 198
42. Diogenes, x, 4
43. Aristotle (?) *Economias*, ii, 2.20
44. Lyra G., III, 866
45. Diog. L., "Plato," xiv; Plutarch, "Dion"; Diódorus, xv. 7; Grote, XI, 84-5. Taylor, A. E., *Plato*, N. Y., 1936, 5, questions the story
46. Plato, *Epistles*, Loeb Library, vii
47. Athenæus, x, 47
48. Plutarch, I. c.
49. Plato, I. c.
50. Plutarch, I. c.
51. Athenæus, xii, 58
52. In Weigall *Alexander the Great*, N. Y., 1938, 19
53. Adams, Brooks, *New Empire*, N. Y., 1903, 86
54. Athenæus, xiii, 63
55. Mahaffy *Social Life*, 425-7
56. Giotz, *Gk. City*, 339
57. Philostratus, 507
58. Plutarch, "Phocion."
59. Philostratus, 61
60. Plutarch, "Alexander."

CHAPTER XX

1. Plutarch, "Demosthenes" :

- Moralia*, 6
2. Mahaffy, *Gk. Lit.*, IV, 187
3. Demosthenes, *On the Crown*, Loeb Library, 128, 258-9, 265
4. Murray, *Gk. Lit.*, 367
5. Isocrates, *Antidosis*, 48
6. Grote, G., *Aristotle*, London, 1872, I, 81; Murray, 844
7. Isocrates, *Panegyricus*, 49
8. Ibid., 167
9. Ibid., 160
10. Isocrates, *On the Peace*, 94
11. Ibid., 13
12. Isocrates, *Areopagiticus*, 15, 70
13. *On the Peace*, 109
14. *Areopag.*, 20
15. Pausanias, i, 18; so Lucian and Philostratus; cf. Murray, 350
16. Milton's phrase, *see Murray*
17. Diog. L., "Xenophon," i-ii
18. Aristophanes, *Clouds*, 226
19. Plutarch, *Moralia*, 212B.
20. Xenophon, *Economicus*, x, 1-10
21. Ibid., xix, 7
22. Quoted by Photius, 180
23. Pausanias, viii, 4b
24. Plutarch, "Alexander."
25. Cotterill, I, 108n.
26. Pliny, xxxv, 36, 40 Winckelmann, I, 219
27. Pliny, xxxv, 32
28. Ibid., xxxv, 36
29. Ibid.
30. Aelian, *Varia Historia*, ii, 3, in Weigall, *Alexander*, 186
31. Pliny, I. c.
32. Vitruvius, ii, 8.14
33. Pausanias, i, 20
34. Gardner, *Greek Sculpture*, 397
35. Pausanias, v, 17
36. Ibid., viii, 9
37. They are listed in Murray, A. S., II, 258-4. Pliny alone mentions 28
38. Pausanias, vi, 25
39. Pliny, xxxvi, 41
40. Ibid., xxxiv, 19
41. Ibid.

CHAPTER XXI

1. Sarton 127
2. Plutarch, "Marcellus."
3. Aristotle, *Metaphysics*, i, 9
4. Plato, *Hippias Major*, 308
5. Sarton, 113
6. Aristotle, *Politics*, 1340
7. Sedgwick, 76
8. Heath, *Greek Math*, I, 209, 233, 252
- 8a. Ibid., 354
9. Diog. L., "Eudoxus," i-iii; Strabo, ii, 6.14 Heath, I, 890; id., *Aristarchus*, 192; Grote, *Plato*, I, 124n; Ball, W. R., *short History of Mathematics*, London, 1888, 41
10. Heath, I, 328
11. Heath, *Aristarchus*, 208
12. Sarton, 118
13. Ibid., 141
14. Heath, *Aristarchus*, 276
15. Heath, I, 16
16. Arrian, *Indica*, London, 1893, chaps. xxxliii
17. Sarton, 190-1
18. Carroll, 325
19. In Zeller, 266
20. Zeller, 277
21. Athenaeus, xiii, 56
22. Vitruvius, ii, 6.1
23. Athenaeus, xii, 68
24. Zeller, 357, 361
25. Ibid., 862b
26. Diog. L., "Aristippus," iv
27. Ibid.
28. Ibid.
29. Ibid.
30. Ibid.
31. Zeller, 867
32. Carroll, 313
33. Ibid.
34. Plato, *Phaedo*, 84
35. Xenophon, *Banquet*, iii, 8
36. Diog. L., "Antisthenes," iv
37. Murray, *Five Stages*, 116
38. Diog. L., "Diogenes," iii
39. Ibid., iii, vi; Zeller, 326n
40. Diog. L., "Diogenes," vi.
41. Ibid.
42. Ibid., x.
43. Ibid., vi.
44. Ibid.
45. Weigall *Alexander*, 103
46. Arrian, *Anabasis of Alexander*, vii, 2; Diog. L., "Diogenes," vi.
47. Ibid., xi.
48. Zeller, 208
49. Diog. L., "Antisthenes," iv.
50. Ibid., "Diohenes," vi.
51. Plutarch, *Moralia*, 21F.
52. Diog. L., I.c.
53. Zeller, 319
54. Ibid., 326
55. Diog. L., "Diog.," xi.
56. Murray, *Five Stages*, 118
57. Pöhlmann, 86-81
58. Zeller, 317
59. Plato, *Republic*, 372
60. Diog. L., "Plato," I.
61. Ibid., v,x.
62. viii-ix; Cicero, *De Finibus*, v, 29
- 62a. Plutarch. *De Exilio*, 10, in Capes, W. W., *University Life in Ancient Athens*, N. Y., 1922, 32.
63. Suidas, *Lexicon*, s.v. *Plato*, in Mahaffy, *Greek Education*, 123
64. Diog. L., "Plato," xi.
65. Mahaffy, op. cit., 128; Grote, *Plato*, I, 125
66. Heath, I, 11
67. Plato, *Republic*, 539
68. Heath, *Aristarchus*, 141
69. Plutarch, *Moralia*, 79
70. Plato, *Epistles*, vii, 531
71. Taylor, 508
72. Cf. *Epistles*, vii, 541
73. Athenaeus, xi, 112
74. Diog. L., "Cimon," i-iii, "Plato," xxxii.
75. Athenaeus, xi, 118
76. Taylor, 20
77. Plato, *Protag*, 384
78. *Symposium*, 175
79. *Euthyphro*, 292
80. *Charmides*, 169

81. *Cratylus*
82. *Phaedo*, 106
83. *Theaetetus*, 161
84. *Ibid.*, 158; *Epistles*, vii, 344
85. Aristotle *Meta.* i 6-8; iii, 2; xiii, 4; *Cratylus*, 440
86. Aristotle, *Meta.*, i, 9.16, etc.
87. Plato *Phaedo*, 65
88. *Ibid.*, 74-5, *Theaetetus*, 186-7
89. Carrel, Alexis, *Man the Unknown*, N. Y. 1935, 236
90. Spinoza, *De Emendatione Intellectus*, Everyman Library. p. 269
91. *Phaedrus*, 245
92. *Philebus*, 22
93. *Rep.*, 605
94. *Laws*, 966; *Phaedo*, 96
95. *Sophist*, 247
96. *Phaedrus*, 245; *Philebus*, 80
97. *Meno*, 81-2
98. *Gorgias*, 523
99. *Phaedo*, 69, 80-5, 110, 114; *Rep.*, 615f; *Tinaeus*, 43-4
100. *Phaedo*, 91, 11
101. *Rep.*, 865
102. *Symp.*, 209
103. *Gorgias*, 482
104. *Ibid.*, 495; *Rep.*, 619; *Philebus*, 66
105. *Rep.*, 441, 587
106. *Philebus*, 94-6
107. *Ibid.*, 57-8
108. *Crito*, 49
109. *Ibid.*, *Laws*, 951; *Phaedo*, 82
110. Aristotle, *Poetics*, i, 4
111. *Rep.* 424.
112. Quoted by Symonds, 411
113. *Philebus*, 51; *Rep.*, 529
114. *Symp.*, 206
115. *Laws*, 636
116. *Symp.*, 201; *Phaedrus*, 244f
117. *Rep.*, 500
118. *Epistles*, vii, 337
119. *Rep.*, 555
120. *Ibid.*, 557
121. 582
122. 585
123. 567
124. 496
125. *Phaedrus*, 239
126. *Rep.*, 459
127. 478
128. *Statesman*, 297; *Epistles*, vii 537
129. *Laws*, 710
130. *Ibid.*, 704
131. 968
132. 761
134. 744, 922-3
135. 785
136. 721, 774
137. 672
138. 885, 908-9
139. *Phaedo*, 66
140. *Pater*, 126
141. *Laws*. 7
142. Diog. L., "Plato," xxv.
143. Calhoun, 125-7
144. Locy, W.A., *Growth of Biology* N. Y., 1926, 27
145. *Athenaeus*, xiii, 56
146. Grote, *Aristotle*, i, 8
147. Diog. L., "Aristotle," iv.
148. Grote, *Aristotle*, i, 43
149. Murray, *Greek Epic*, 99; *CAH* VI, 333
150. Aristotle. *Meta* iii, 8.7-9
151. *Ibid.*, iv, 3.8
152. Aristotle, *On Generation*, i, 2
153. *Physics*, v, 3; vii, 1
154. Aristotle, *Mechanics*, iii, 848-50
155. *On the Heavens*, ii, 14
156. *Meteorology*, i, 14
157. *Meta.*, xii, 8.21
158. Pliny, viii, 16
159. Aristotle, *Parts of Animals*, i, 5
160. *History of Animals* v, 21-2; ix, 39-40
161. *Ibid.*, vi, 22
162. Aristotle (?), *Economics*, i, 8; a typically Aristotelian sentence in a work long attributed to Aristotle, but probably from a later hand
163. *History of Animals*, viii, 2
164. *Reproduction of Animals*, i, 15

165. *Ibid.*, i, 21
166. iv, 1
167. *Hist. An.*, vi, 2-8
168. *Reprod. An.*, ii, 1
169. *Ibid.*, ii, 3
170. ii, 12
171. *Hist. An.*, vi, 2-3
172. *Ibid.*
173. i, 1
174. viii, 1
175. Ueberweg, i, 167
176. Sedgwick, 14
177. Lewes, O. H., *Aristotle : a Chapter in the History of Science*, London, 1864, 284, 361; Longe, 81
178. Lewes, 159
179. Aristotle, *Hist. An.*, ii, 3
180. *Parts of Animals*, ii, 7
181. Sartou, 128
182. Aristotle, *Politics*, 1256; Lewes,
183. Aristotle; *On the Soul*, ii, 1
184. *Ibid.*, ii, 4
185. iii, 8
186. iii, 7
187. *Reprod. An.*, ii, 3
188. *Meta.*, viii, 4.4
189. *Poetics*, ii 8
190. *Meta.*, ix, 7
191. *Politics*, i, 8
192. *Ibid.*, vi, 2
193. *Politics*, 1137b.
194. *Ethics*, 1097b, 1176b.
195. *Rhetoric*, i, 5.4, where, in a long list of things necessary for happiness, virtue comes in a poor last
196. *Ethics*, 1099a.
197. *Ibid.*, 1153b.
198. *Rhetoric*, ii, 18.2
199. *Ethics*, 1178a.
200. *Ibid.*, 1125b.
201. 1098a.
202. 1178b.
203. *Politics*, 1287a.
204. *Ibid.*, 1275b.
205. 1258a.
206. 1296b.
207. *Ethics*, 1160ab.

208. *Rhetoric*, ii, 15.8.
209. *Politics*, 1258b.
210. *Ibid.*, 1281a.
211. 1818b.
212. 1286a.
213. 1278a.
214. 1280a.
215. 1266b.
216. 1254b.
217. 1320a.
218. *Ibid.*
219. 1295a.
220. 1264
221. 1361b.
222. 1296b.
223. 1296a.
224. 1330a.
225. *Rhetoric*, i, 1.7
227. *Politics*, 1287a.
228. *Ibid.*, 1265b.
230. In Ueberweg, i, 177
231. Water, 141

CHAPTER XXII

1. Plutarch, *Moralia*, 178F
2. Mahaffy, *Greek Life and thought*, 18
3. Plutarch, "Alexander."
4. Weigall, *Alexander*, 235
5. *Ibid.*
6. Plutarch, *Moralia*, 127B.
8. *Id.*, *Moralia*, 140A.
9. *Id.*, "Alexander."
10. *Ibid.*; Arrian, i, 17
11. Weigall, 50
12. Plutarch, *Moralia*, 170E
13. *Id.*, "Alexander."
14. Arrian, vi., 28
15. *Ibid.*, iii, 6
16. Grote, *History*, XI, 85
17. Weigall, 85
18. Arrian, i, 8
19. Weigall, 87
20. Plutarch, "Alexander."
21. *Ibid.*
22. Arrian, vii, 9
23. Plutarch, i.c.
24. Vitruvius, ii, 2
25. Plutarch, *Moralia*, 180

26. CAH, VI, 384
27. Arrian iv, 7
28. Ibid., vi, 26
29. vii, 4
30. Plutarch, "Alexander."
31. Grote, XII, 89
32. Athenaeus, xii, 86
33. Plutarch, *Moralia*, 180D.
34. Weigall, 146
35. Plutarch. "Alexander."; Arrian,
36. Lucian, *Dialogues of the Dead*,
37. Cf. Arrian, iv, 9-11
38. Ibid., vii, 11
39. vii, 9-10
40. ii, 12
41. Plutarch, "Alexander"; Arrian,
42. Plutarch, I.c.
43. Grote, *Aristotle*, I, 28
44. Dlog. L., "Aristotle," vii
45. Thrasybulus in Grote, *History*,
VIII, 263

CHAPTER XXIII

1. Mahaffay, *Greek. Life and Thought*, pp. xxx, 112
2. Ibid., 56; Plutarch, "Demetrius"
3. Ibid.
4. Pausanias, x. 19
5. Ibid., 22
6. Livy, T. L., *History of Rome*,
xxxviii, 16; CAH, VII, 103-7
7. Polybius, iv. 77; Pausanias, ii.
9, vii, 7; Plutarch, "Aratus."
8. Athenaeus, vi, 103
9. Heitland, W. E., *Agricola*, Cam-
bridge University Press, 1921
10. Plato, *Critias*, 111
11. Rostovtzeff, M. *History of the
Ancient World*, Oxford, 1930,
I, 320
12. Cf. Tarn, W. W., *Hellenistic
Civilization*, London, 1927, 90
13. Vinogradoff, II, 108-9
14. Glotz, *Ancient Greece*, 866
15. Ibid 864
16. Ibid.
17. Ibid., 331-3; Tarn, 95
18. Tarn, 102; Heitland, 63; Glotz,
369
19. CAH, VII, 740

20. Ibid.
- 20a. Ibid., 265, 741; Tran, 104
21. Ibid., 34
22. Olotz, 333
23. Polybius, vi, 9; vii, 10; xv, 21
Glotz, *Greek City*, 328
- 23a. Diodorus Sic., V, 41-6
24. Beatwich, Norman, *Hellenism*,
Phila, 1919, 62
25. Athenaeus, xii, 18
26. Tarn, 82
27. Theocritus, Idyl ii.
28. Lacroix, I, 138-9
29. Athenaeus, in Becker, 344
30. Glotz, *Ancient Greece*, 298 Tarn;
88
31. Ibid., 88
32. Polybius, xxxvi, 17
33. Plutarch, "Agis."
34. Glotz, *Ancient Greece*, 346
35. Plutarch, I.c.
36. CAH VII, 755
37. Polybius, ii, 52; v, 38; Pausa-
nias, ii. 9
38. Coulanges, 467
39. Pausanias, vii, 50
40. Strabo, xix, 2, 5
41. Ibid.
42. Polybius, v, 88

CHAPTER XXIV

1. Meeting of the Oriental Institute,
Chicago, Mar. 29, 1932
2. Plutarch. *Moralia*, 183 F.
3. Polybius, xy, 8
4. Ibid., xxx, 26
5. Ibid., xxxix, 27; xxxi, 9; Bevan,
E. R., *House of Seleucus* Lon-
don, 1902, II, 181, 158
6. Rostovtzeff *Social and Economic
History of the Roman Empire*,
3; Tarn, 79
7. Toutain, 103-3
8. Glotz, *Ancient Greece*, 358
9. Rostovtzeff *Roman Empire* 3;
id., *Ancient World*, I. 368-70;
Glotz, 321
10. Glotz, *Greek City*, 388
11. Tarn, 254

13. Josephus, *Against Apion*, I, 60 ;
Bevan, 35; Tarn, 209
14. CAH, VII, 193
15. Sachar, A.L., *History of the Jews*,
N.Y., 1932, 102. Cf. Zeitlin, S.,
History of the Second Jewish
Commonwealth, Phila., 1938, 18f,
or CAH, VIII, 501f, for an
economic interpretation of these
intrigues
16. Graetz, H., *History of the Jews*,
Phila., 1891f, I, 446-6; Zeitlin, 18
17. Bevan, I, 171; Mahaffy, J.P.,
Empire of the Ptolemies, London
1895, 341
18. CAH, VIII, 507-8
19. I Macc., I; Josephus, *Works*,
Boston, 1811, I, 438; *Antiquities*
of the Jews, xii, 5
20. Bevan, II, 154
21. I Macc., v-vi; Bevan, 174
22. I Macc., ii
23. Ibid., vi
24. Ibid., ii
25. Ibid., ii-v
26. Sachar, 104
27. Bevan II, 183, 223
28. Usher, 79, 119
29. Pliny, xxxv, 42
30. Rostovtzeff, *Ancient World*, I,
373; Tarn, 102; Glotz, 350
31. Tarn, 155.
32. Botsford and Sihler, 597
33. Athenaeus, v, 36
34. Pliny, xxxvi, 18
35. Breccia, 107
36. Tarn, 198
37. Calhoun, 130
38. CAH, VIII, 662
39. Mahaffy, *Greek Life*, 182
40. Mahaffy, *What Have the Greeks?*,
195-7
41. Tarn, 158; CAH, VII, 28
42. Ibid., 139-40; Tarn, 158; Mahaffy
Empire, 182, 213; Breccia, 42
43. Breccia, 69
44. Strabo, xvii, 1.8-10; Tarn, 146
45. Glotz, 336
46. Athenaeus, iii, 47
47. Herodas, *Mimianbi*, I
48. Lacroix, I, 124
49. Carroll, 326
50. Graetz, I, 418; Mahaffy, *Empire*
86
51. Josephus, *Antiquities*, xii, 1-2
52. Zeitlin, 6-8; Bevan, I, 165
53. Bentwich, 86
54. Renan, E., *History of the Peop*
of Israel, N.Y., 1888, IV, 194;
V, 189
55. Graetz, I, 504
56. Bevan and Singer, *Legacy of*
Israel, Oxford, 1927, 32
57. Josephus, *Antiquities*, xii, 2 ;
Sarton, 151
58. Sachar, 109
59. *Enc Brit.*, XX, 885; Tarn, 177
60. Glotz, *Ancient Greece*, 356;
Tarn, 204
61. Tarn, 158
62. Mahaffy, *Greek Life*, 208
63. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 264
64. Glotz, *Greek City*, 323
65. Polybius, vii, 8
66. Ibid.
67. Randall-MacIver, 188-9
68. Athenaeus, v, 40

CHAPTER XXV

1. Breccia E., *Alexandrea ad*
Aegyptum, Bergamo, 1932, 96;
Strabo, xvii, 1.8
2. Mahaffy, *Empire*, 104; *Greek*
Life, 204
3. Athenaeus, xiii, 37
4. Mahaffy, *Empire*, 162
5. Draper, I, 190
6. Tarn, 148; CAH, VII, 187
7. Ibid., 27; Rostovtzeff, *Roman*
Empire, 269
8. Tran, 149-51, 155; Glotz, *Ancient*
Greece, 845
9. Ibid., 843
10. Usher, 80, 85
11. Strabo, xvii, 1.25
12. Glotz, *Ancient Greece*, 863
13. Tarn, 152; Usher, 75
14. Glotz, I.c.
15. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 482

56. Livy, xxiv, 4

CHAPTER XXVI

1. Polybius, ix, 2
2. Thompson, 71
3. Strabo, xiii, 1.54
4. Grote, *Aris otte*, 50
5. Breccia, 47
6. Ibid., 48
7. Mahaffy, *Empire*, 208
8. Oxyrhynchus. Papyri X, 1241, p. 99; Breccia, 44
9. Tarn, 238; Symonds, 21
10. Tarn, 287 Mahaffy, 511
11. Waxman, M., *History of Jewish Literature*, N.Y., 1930, 1, 48
12. Ibid., 49
13. Ibid., 21
14. Renan, IV, 258
15. Lacroix, I, 166-7
16. Wright, 22
17. CAH, VII, 227
18. Menander, *Arbitranss*, 679-85
19. Bacchis in the *Phormio*
20. St. Paul, 1 Cor., xv, 33
21. Tarn, 219
22. Frag. 40 in Murray, *Aristophanes*, 223
23. Translation by Symonds. 454
24. Ibid., 526
25. Murray, *Greek Literature*, 881; Mahaffy, *Greek Literature* I, 166; id., *Progress of Hellenism in Alexander's Empire*, Chicago, 1905, 119
26. Theocritus, xv, tr. Lindsay, in *Oxford Book of Greek Verse*, 564
27. Theocritus, i, 123-42; tr. Sir Wm. Marris, *Oxford Book*, 543
28. Tarn, 52
29. Frag. 54 in McGrindle, J. W., *Ancient India*, Calcutta, 1877, 120.
30. Bury, *Greek Historians*, 188
31. Polybius, xii, 25, 27, etc
32. Ibid., xxxiv, 6; xxxviii, 6
33. xxx, 32
34. iii, 2
35. vi, 2

36. vi, 3

37. iii, 48, 59; Shotwell, 199

38. xvi, 20

39. xii, 28

40. v, 75

41. xxi, 32

42. xvi, 12

43. vi, 48

44. iii, 31

45. i, 1

46. i, 85; i, 1

47. i, 4

48. ix, 1; ii, 56

49. Dionysius of Halicarnassus in CAH, VIII, 10

CHAPTER XXVII

1. Athenaeus, xiv, 33
2. Mahaffy, *Social Life*, 467-8; 475-6
3. Vitruvius, ix, 9; x, 18; Athenaeus iv, 76; *Oxford History of Music*, Introd. Vol., 26
4. Mahaffy, 455; id., *Greek Life*, 382
5. Athenaeus, xiv, 31
6. Strabo, xiv, 1.87
7. In Gardner, *Ancient Athens*, 486
8. Pliny, xxxv, 40
9. Plynarch, "Aratus."
10. Strabo, xiv, 2.5
11. Pliny, xxxv, 36
12. Ibid., xxxv, 36
13. Lessing, G.E., *Laocoön*, London, 1874, 15
14. Pliny, xxxiv, 18
15. *Greek Anthology*, vi, 171
16. Pliny, l.c.
17. Bostock's note, Ibid
18. Winckelmann, I, 229
19. Virgil, *Aeneid*, ii, 49
20. Pliny, xxxvi, 4
21. Winckelmann, II, 325
22. CAH, VIII, 676
23. In Gardner, E. A., *Six Greek Sculptors*, London, 1910, 6

CHAPTER XXVIII

1. Stobaeus. in Heath, *Greek Mathematics*, I, 357

2. Plutarch, "Marcellus."
3. Ball, W.W.R., *Short History of Mathematics*, London, 1888, 64
4. Ibid., 66-7
5. Plutarch
6. Cicero, *Tusc. Disp.*, i, 25
7. Cicero, *Rep.*, i, 14
8. Singer, C., *Studies in the History of Science*, Oxford, 1921, II, 502
9. Heath, II, 18
10. Plutarch
11. Ibid
12. Polybius, viii, 5; Livy, xxiv, 34
13. Heath, I.c.
14. Plutarch
15. Polybius, I.c.
16. Plutarch
17. Livy, xxv, 81
18. Heath, II, 20
19. Sartou, 184; Usher, 44
20. Ibid., 80
21. Ibid., 41; Sartou, 184, 195
22. Vitruvius, I, I.16
23. Heath, *Aristarchus of Samos*, 810, 883
24. Ibid., 302
25. Heath, *Greek Math.*, II, 2
26. Williams, H.S., *History of Science*, N.Y., 1909, I, 233
27. Heath, *Aristarchus*, 296-7; CAH, VII, 311
28. *Enc. Brit.*, XI, 583
29. Tarn, 280
30. Heath, *Aristarchus*, 339-40
31. Sartou, 144; Olotz, *Ancient Greece*, 875,
32. Strabo, i, 8.8
33. Ibid., i, 4.7-9
34. Ibid., i, 4.6
35. Wright, 14
36. Garrison, 102
37. Theophrastus, *History of Plants*, II, 1.1, in Livingstone, *Legacy*, 178
38. Locy, 37
39. Grote, II, 17
40. Sartou, 143
41. Ibid., 126
42. In Wright, 14
43. Celsus, *De Artibus*, I, 4 in Botsford and Sihler, 631

44. Botsford and Sihler, 631
45. Sartou, 159; Garrison, 153
46. Sextus, Empiricus, *Adv. Math.*, xi, 50, in Livingstone, 201
47. Garrison, 103
48. Sartou, 159-60

CHAPTER XXIX

1. Carroll, 316
2. Athenaeus, xiii, 90
3. Diog. L., "Theophrastus," iv-xi
4. Theophrastus, *Characters*, Loeb Library, 1929, iii, xiv, etc
5. Diog., "Xenophanes," iii
6. Ibid., iii-v, x.
7. Aristotle, *Anal. Post.*, ii, 1
9. Ibid., iii
10. Zeller, E., *Stoics Epicureans and Sceptics*, London, 1870, 99
11. Ibid., 608
12. Wright, 128
13. Ueberweg, I, 138
14. Polybius, xii, 26
15. Diog., "Aristippus," xii-vix
16. Lacroix, I, 160-1
17. Diog., "Epicurus," v.
18. Ibid., vi-viii
19. Lucretius, v, 196; II, 1090; Lucian "Zeus Tragoedus," in *Works*, III, 97
20. Lucretius, II, 292; Plutarch, *Moralia*, 964 C.
21. Cleero, *Nat. Deor.*, i, 20
22. Diog., "Epicurus," xxiv
23. Ibid., xxvii; Murray *Greek Religion*, 168
24. Diog., xxv
25. Athenaeus, xii, 67
26. Diog., xxxi
27. Ibid., xxvii
28. Ibid.
29. Ibid., xxxi, 81
30. Ibid., xxvi
31. xxvii
32. Zeller, 464
33. Diog., xxxi, 28
34. Cf. Frags. 165, 186, 194 and 213 in Murray, 180
35. Murray, 138
36. Frag. 188 in Murray, 141

37. Diog., x.
38. Athenaeus, vii, 11
39. Becker, 825
40. *Jewish Enc.*, art. "Apikōros"; Bentwich, 77
41. Zeller, 388
42. Cicero, *De Fin.*, i, 7.25
43. In Murray, *Greek Literature*, 372
44. Diog., "Zeno," i-ii
45. Ibid., xi, v.
46. Ibid., v.
47. Ibid., "Crates," i-iv, "Hipparchia", i-ii; Zeller, *Socrates*, 328 n.
48. Diog., "Zeno," xxviii-xxix
49. Ibid., xiv
50. Zeller, *Stoics*, 37n.
51. Diog., "Zeno," ix
52. Ibid., xvii. Lucian, Lactanius, and Stobaeus tell the same story; cf. Zeller, 40
53. Zeller, 69
54. Ibid., 121
55. Cicero, *Nat. Deor.*, ii, 7
56. Diog., "Zeno," lxxviii-lxxvii
57. Tr. by Paier, 50
58. Plutarch, *De Stoic. Repug.*, xxi, 4. In Zeller, 178; but Plutarch was intensely prejudiced against the Stoics
59. *Oxford Book of Greek Verse*, 535
60. Zeller, 288
61. Diog., "Zeno," xix

62. Ibid., lxiv
63. Zeller, 316
64. Diog., lxvi
65. Zeller, 503
66. Cicero, *Tusc. Disp.*, i, 84.83
67. Zeller, 327
68. Ibid., 207

CHAPTER XXX

1. Polybius, i, 1.
2. Plutarch, "Pyrrhus."
3. Ibid.
4. Ibid.
5. Mommsen, T., *History of Rome*, London, 1901, ii, 5
6. Plutarch, l.c.
7. Livy, xxv, 40, 31
8. Polybius, ii, 8
9. Ibid., vi, 103
10. Livy, xxiii, 33
11. Polybius, xvi, 80; Livy, xxxi, 18
12. Polybius, xviii, 45
13. Livy, xxxiv, 62
14. Tacit., 29
15. Strabo, viii, 6.23
16. Polybius, xxxix, 2; Strabo, l.c.

EPILOGUE

1. Symonds, 579
2. Rede Lecture for 1876, in Symonds, 578
3. *Enc. Brit.*, ii, 844

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الترجمة	ز

الكتاب الخامس - انتشار الهلنستية

٣ ثبت مسلسل للحوادث التاريخية في الكتاب الخامس

٧ الباب الثالث والعشرون : بلاد اليونان ومقدونية

الفصل الأول : تنازع السلطان	٧
الفصل الثاني : الكفاح من أجل المال	١٦
الفصل الثالث : أخلاق الانحلال	٢٢
الفصل الرابع : الثورة في اسبارطة	٢٩
الفصل الخامس : سيادة رودس	٣٣

٣٦ الباب الرابع والعشرون : الهلنية والشرق

الفصل الأول : الإمبراطورية السلوقية	٣٦
الفصل الثاني : الحاضرة السلوقية	٤١
الفصل الثالث : برجموم	٤٨
الفصل الرابع : الهلنية واليهود	٥١

٦٠ الباب الخامس والعشرون : مصر والغرب

الفصل الأول : سجل الملوك	٦٠
الفصل الثاني : الاشتراكية في عهد البطالمة	٦٥

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث : الإسكندرية	٧٣
الفصل الرابع : الفتنة	٨٠
الفصل الخامس : شمس الحضارة اليونانية تنرب في صقلية	٨٤
الباب السادس والعشرون : الكتب	
٨٦	
الفصل الأول : دور الكتب والعلماء	٨٦
الفصل الثاني : كتب اليهود	٩٣
الفصل الثالث : منافذ	٩٨
الفصل الرابع : ثاوفريطس	١٠٢
الفصل الخامس : بوليبيوس	١٠٩
الباب السابع والعشرون : الفن في عهد التثنت	
١١٥	
الفصل الأول : موضوعات أشتات	١١٥
الفصل الثاني : التصوير	١٢٠
الفصل الثالث : النحت	١٢٥
الفصل الرابع : تعليق	١٢٣
الباب الثامن والعشرون : ذروة مجد العلم اليوناني	
١٣٦	
الفصل الأول : إقليدس وأبولونيوس	١٣٦
الفصل الثاني : أركيدين	١٤٠
الفصل الثالث : أرسبارغورس ، وهبارغوس وإراتستينز	١٤٩
الفصل الرابع : ثاوفراسطوس ، وهيروفيلوس وإراستراتوس	١٥٥
الباب التاسع والعشرون : استسلام الفلسفة	
١٥٩	
الفصل الأول : هجوم المشككة	١٥٩
الفصل الثاني : فراي الأبيقورية	١٦٦
الفصل الثالث : التوفيق بين الأبيقورية والرواقية	١٧٦
الفصل الرابع : العودة إلى الدين	١٨٨

الباب الثلاثون : مجي رومة ١٩١

١٩١ الفصل الأول : پيرس
١٩٦ الفصل الثاني : رومة المحررة
٢٠٠ الفصل الثالث : رومة الفاتحة
٢٠٥ الخاتمة : ما ورثناه عن اليونان
٢١٣ المراجع عامة
٢٢٢ المراجع مفصلة

فهرس الأشكال والصور

شكل ٤٤	تايوت الإسكندر	في أول الكتاب
٤٥	رأس هرمس	أمام صفحة ١٢
٤٦	دوريفوروس	» ١٢
٤٧	رأس مليجر	» ٢٤
٤٨	رأس فتاة	» ٢٤
٤٩	إيكسيومنوس	» ٤٠
٥٠	المنادة النفسى أو الراقصة	» ٥٦
٥١	إحدى بنات نيوى	» ٥٦
٥٢	أفريقي سيرى	» ٧٢
٥٣	دمتر - نيدس	» ٨٨
٥٤	ملبح زيوس في برجوم	» ١٠٤
٥٥	نقش من ملبح زيوس في برجوم	» ١٢٠
٥٦	معركة إسوس	» ١٣٦
٥٧	اللاوكون	» ١٤٢
٥٨	الثور الفرنيزى	» ١٤٨
٥٩	أفريقي ميلوس	» ١٥٨
٦٠	فينوس الميديشية	» ١٥٨
٦١	انتصار سبثريس	» ١٦٨
٦٢	رأس هلنسى	» ١٨٤
٦٣	عجوز في السوق	» ٢٠٠
٦٤	المكافح لنيل الجائزة	» ٢٠٠

مقدمة الترجمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى جميع أنبيائه ورسله .
وبعد : فهذا هو الجزء الثالث والأخير من المجلد الثاني من مجلدات قصة
الحضارة الستة ، وهو يقص تاريخ اليونان ويصف حضارتهم في عهد
انتشارهم في بلاد الشرق والغرب حتى الفتح الروماني كما يصف أسباب قوتهم
وضعفهم وما يدين به العالم إلى هذا الشعب العظيم ؟

وقد تداركنا في هذا الجزء بعض ما فاتنا في الجزأين السابقين من الأسماء
اليونانية التي وردت في الكتب العربية القديمة فكتبناها كما وردت في تلك
الكتب وإن اختلفت بعض الاختلاف عن نطقها الذي أثبتته المؤلف في الأصل
الإنجليزي ، فإذا وجد القارئ بعض الاختلاف في كتابة تلك الأسماء في هذا
الجزء الثالث عنها في الجزأين السابقين فسبب هذا أن المراجع العربية لم تكن
ميسرة لنا من قبل . وليس هذا الاختلاف بذي بال وهو لا يعدو عدداً قليلاً
من الألفاظ أمثال القبيادس وأكسانوفون Xonophon, Alcibiades ولربما
كان تعريبها كما ورد في الجزأين السابقين أقرب إلى نطقها اليوناني من الصيغة
التي وردت بها في الكتب العربية القديمة ، ولكننا آثرنا أن نثبتها حتى تكون
الصورتان أمام القارئ ؟

ولا يسعنا مرة أخرى إلا أن ننوه بفضل الإدارة الثقافية لحامعة الدول العربية التي اختارت هذا الكتاب وعهدت إلينا ترجمته ، وإلى لجنة التأليف والترجمة والنشر التي تكفلت بطبعه ونشره ، وإلى القراء الذين أقبلوا على أجزاءه السابقة إقبالاً كان هو الحافز الأكبر لما بذلناه وما نبذله من جهد في ترجمة هذه الموسوعة القيمة .

المترجم
محمد براهيم

مايو سنة ١٩٥٤